

السنة الخامسة عشرة * العدد ١٥٤ * جمادى الآخرة ١٤٢١هـ * سبتمبر ٢٠٠٠م

إشكالية التعامل مع مصادر الفرق

كامب ديفيد - ٢

الحرية والعبودية

المواجهة الفاصلة في إندونيسيا

ماليزيا
سنغافورة
بروناي
الفلبين
المحيط الهادي
جاكرتا
تيمور

الرفاعي



مجلة إسلامية شهرية جامعة
تصدر عن المنتدى الإسلامي

سعر العدد

الأردن ٥٠ قرشًا ، الإمارات العربية ٨ دراهم، أوروبا وأمريكا ١,٥ جنيه إسترليني أو ما يعادلها، البحرين ٦٠٠ فلس، اليمن ٦٠ ريالاً، مصر ٢ جنيه، السعودية ٨ ريالات، الكويت ٦٠٠ فلس، المغرب ١٠ دراهم، قطر ٨ ريالات، السودان ١٠٠ دينارا، سلطنة عمان ٦٠٠ بيزة.

EUROPE & AMERICA 1.5 (STERLING OR EQUIVALENT)

المركز الرئيس:

AL BAYAN MAGAZINE
7 Bridges Place, Parsons Green
London SW6 4HW, U.K.
Tel : 0171 - 736 9060
Fax : 0171 - 736 4255



مهزلة تصدير الأتاتوركية!

من مهازل هذا الزمان أن يدعو من يسمى وزير (الشؤون الدينية) التركي إلى إعادة النظر في التجربة الأتاتوركية والاستفادة منها باعتبارها هي الإسلام الصحيح؛ مع دعوته في الوقت نفسه إلى إعادة النظر في تفسيرات القرآن والسنة بما يتفق ومعطيات العصر الحضارية، ومناشدة علماء الإسلام والمفكرين المسلمين إلى التداعي لطرح الإسلام من خلال تفسير واقعي ومنطقي؛ لأن جميع الدول الإسلامية تطبق الإسلام بشكل خاطئ!! وإن في ذلك ما سيعيد الاحترام والتقدير للإسلام الذي شوهه المتطرفون!

وبادئ ذي بدء فإنه من المتحقق أن فاقد الشيء لا يعطيه، ثم ما حقيقة الإسلام القائم في دولة تركيا سوى (أطلال باقية)على يد العلمانيين المتطرفين الذين تدخلوا في شؤون الأفراد وحرياتهم الخاصة حتى قننوا منع الإسلام واعتباره اتجاهاً مرفوضاً، وقننوا منع الحجاب للمرأة المسلمة، وعملوا على إضعاف المدارس القرآنية، ورفضوا رغبة الشعب التركي يوم اختار (الاتجاه الإسلامي) الذي حكم لفترة، فضايقوه حتى نُحِّي وزُجَّ برموزه في محاكم همجية تذكِّر بمحاكم التفتيش. فماذا سيرغِّب الناس في الأتاتوركية؟

إن الهراء الذي يطرحه الوزير المذكور (شنشنة معروفة) يطرحها المنحرفون حينما تبور سلعهم؛ وهيهات أن يغتر بها إلا الضالون.

ثم ماذا استفادت تركيا من (التجربة الأتاتوركية) سوى أن أصبحت ذيلاً بين الدول واضطرت بـ (ذلة) إلى طلب ود الغرب والانضمام إليه مع ما قدمته من تنازلات ثم تُرفَض مع كل ذلك، وتحكُم (الدونمة) في أزِمَّة الأمور بتركيا حتى أصبحت بُعداً استراتيجياً للعدو الصهيوني؛ أما ديمقراطيتهم فهي صورة لا حقيقة لها والواقع خير شاهد. وحينما يصل الإسلاميون للحكم فإنهم يُنَحَّوْن بخطط معدة سلفاً أو بانقلابات عسكرية يؤيدها الغرب، ونذكِّر الوزير أن دعوته النشاز تلك ما هي إلا محاولة لإعادة الروح للجثة الأتاتوركية، وهيهات أن تحيا بعد إخفاقها وموتها. وعزة تركيا بل عزة المسلمين جميعاً في التمسك بالإسلام الحق؛ وأوله: تنحية القوانين الأتاتوركية ذاتها التي تبعد الإسلام عن الواقع وتفصله عن الحياة؛ فنحن قوم أعزنا الله بالإسلام وهو طريقنا القويم للحياة الكريمة: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

مكاتب المنتدى الإسلامي ومجلة البيان

م	الدولة	المدينة	ص. ب.	الهاتف	الفاكس
١	بريطانيا	لندن	—	٧٣١٨١٤٥	٧٣٦٤٢٥٥
٢	السعودية	الرياض	٢٦٩٧٠	٤٦٤١٢٢٢	٤٦٤١٤٤٦
٣	البحرين	المحرّق	٥٠١٦٣	٣٣٥٣٠٠	٣٣٦٣٠٠
٤	قطر	الدوحة	١٦٤٦٤	٣٥٢٢٨٢	٣٥٢٢٩٢
٥	كينيا	نيروبي	٧٧٨٠٢	٣٥٠٥٢٦	٥٠٠٠١٥
٦	غانا	أكرا	٢٠	٢٣٥٧٦٦	٢٣٥٧٦٧
٧	بنغلاديش	دكا	١٢٠٧	٩٨٠٢٠١٥	٩٨٠٣٠٠٥
٨	السودان	بور تسودان	٦٩٥	٢٢٥٣٣	٢٢٥٣٣
٩	مالي	باماكو	E٢٠٣	٢٢٣٢٠٣٩٠٩	٢٢٣٢٠٣٩٠٩
١٠	جيبوتي/الصومال	جيبوتي	٣٢٨٠	٣٤١١١٣	٣٤١١١٣
١١	تشاد	أنجمينا	١٧٨٩	٥١٨٥٩١	٥١٨٥٩٠
١٢	توجو	لومي	١٠٧٤	٢٦١٦١١	٢٦١٦١١
١٣	نيجيريا	كانو	٢٦٣٥	٦٣٧١٩٠	٦٣٧١٨٠
١٤	بينين	كوتونو	٠٣-٤١٩٣	٣٠٣٩١٩	٣٠٣٩١٩

المراسلات والإعلانات

الدول العربية:

السعودية : مكتب مجلة البيان - ص.ب ٢٦٩٧٠-الرياض : ١١٤٩٦-هاتف ٤٦٤١٢٢٢ - فاكس ٤٦٤١٤٤٦.

قطر: الدوحة، ص.ب: ١٦٤٦٤ ، هاتف: ٣٥٢٢٨٢ ، فاكس: ٣٥٢٢٩٢.

البحرين: المحرّق مكتب دار البيان ، ص.ب ٥٠١٦٣-هاتف ٣٣٥٣٠٠-فاكس ٣٣٦٣٠٠.

البريد الإلكتروني: bayan@naseej.com.sa

أوروبا وأمريكا :

AL BAYAN MAGAZINE 7 Bridges Place, Parsons Green London SW6 4HW, U.K. Tel : 071 - 736 9060 Fax : 071 - 736 4255

■ الاشتراكات ■

بريطانيا وإيرلندا	١٨ جنيهاً استرلينياً
أوروبا	٢٠ جنيهاً استرلينياً
البلاد العربية وإفريقيا	٢٥ جنيهاً استرلينياً
أمريكا وبقية دول العالم	٣٠ جنيهاً استرلينياً
المؤسسات الرسمية	٤٠ جنيهاً استرلينياً

الحسابات

- **السعودية**: شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع الربوة شارع الأربعين حساب مجلة البيان رقم ٢١٠٠/٧.
  - مصرف فيصل الإسلامي حساب رقم: ٠٠٢-٤٥١٤-٤٢-١٠٩.
  - الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي حساب رقم ٦٣٤٩٢٤.
- **الإمارات**: بنك دبي الإسلامي (فرع دبي) رقم الحساب ٥٥٤٦٥٢٤.
- **قطر**: مصرف قطر الإسلامي حساب رقم:٨٧٨٨٥٥ زكاة ٨٧٨٣٨٣ صدقات حساب مجلة البيان : بنك قطر الدولي الإسلامي رقم: ٢٤٢٠٧٠٠٧١.

AL MUNTADA AL ISLAMI EDUCATIONAL TRUST
National WestMinister Bank PLC Fulham Branch
45 Fulham Broadway London SW6 1AG
Sorting Code No. 60-22-16
A/C NO: 44348452

الموزعون

- **السعودية** : مؤسسة المؤتمن للتوزيع ص.ب ٦٩٧٨٦ ، الرياض ١١٥٥٧ ، هاتف : ٤٦٤٦٦٨٨ - فاكس: ٤٦٤٢٩١٩.
  - الشركة الوطنية للتوزيع : هاتف : ٤٨٧١٤١٤ - فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
- **المغرب** : سوشبرس للتوزيع ، الدار البيضاء ، ش جمال بن أحمد ص.ب ١٣٦٨٣ - هاتف : ٤٠٠٢٢٣ - فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
- **اليمن** : مكتبة دار القدس ، صنعاء : ص.ب ٣٦٠٠ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة ، هاتف : ٢٠٦٤٦٧.
- **السودان** : شركة النحوي للتجارة والتوزيع المحدودة، الخرطوم: ص.ب ١٠٣٧١ - هاتف : ٧٧٤٣٣٦-٧٧١٥٤٧.
- **مصر** : القاهرة - ش الجلاء - الأهرام للتوزيع ، هاتف وفاكس : ٥٧٤٧٠٢٣.
- **الأردن** : الشركة الأردنية للتوزيع ، عمان ص.ب ٣٧٥ هاتف : ٦٣٠١٩١ ، ٦٣٥١٥٣، فاكس: ٦٣٥١٥٢.
- **الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان** : شركة الإمارات للطباعة والنشر ، دبي ص.ب ٦٠٤٩٩ ، هاتف ٦٢٣٩٢٠ ، فاكس ٦٦٣٧٦٨.
- **قطر** : دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ، الدوحة هاتف: ٦٦٢٤٤٤ ، فاكس: ٦٦٢٤٥٠.
- **الكويت** : شركة الخليج لتوزيع الصحف والمطبوعات : ص.ب: ٤٢٠٥٧ الشورفح ٧٠٦٥١ - هاتف: ٤٨١٦٨٨٥ - فاكس: ٤٨٣٦٦٨.
- **البحرين** : مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف - المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩-٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.



علم النفس والسياسة وفن الخداع

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فمن العلامات المميزة في التخطيط عند الغربيين : دخول دراسات علم النفس في جميع المجالات العملية التي تمس حياة الكائن البشري؛ فهناك علم النفس العام بجانب علم النفس التربوي، وعلم نفس النمو، وعلم النفس الصناعي، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم النفس الديني... إلخ، وكلها دراسات تنصبُّ على معرفة الميول والانفعالات والاتجاهات والحاجات ... لدى الأفراد والجماعات، مما يمهد الطريق لمعالجة (الانحرافات) الموجودة، أو توليد توجهات جديدة، أو التأثير على المشاعر للوصول للهدف المنشود؛ أياً كان هذا الهدف.

ولا شك أن هذه الدراسات يمكن الاستفادة منها إسلامياً في الدعوة والتغيير، ولكن أيضاً يجب التنبه إليها وإلى آثارها عند تطبيقها علينا بصورة غير معلنة ولا ظاهرة؛ بحيث تبدو الأحداث وكأنها بريئة أو (ساذجة) ليتم بلع الطعم المراد بصورة عفوية.. والحقيقة أن الأمور تجري تحت الدراسة والسيطرة!

ولأن التأثير على المجتمعات لا يتم بالتعامل مع كل فرد على حدة؛ فإن الإعلام بأجهزته المختلفة يلعب دوراً كبيراً في توجيه هذه المجتمعات (بالجملة) من خلال إلقاء معلومات معينة، أو إبراز بعضها وإخفاء آخر، أو بطريقة عرض المعلومة... ليتقمص هذا الإعلام ـ بمن يملكونه ويحركونه ـ دور الطبيب والمعالج النفسي.

ونستطيع ضرب أكثر من مثل لإيضاح هذا الدور في التأثير (الخفي) على المستهدفين.

فبعد انتشار صور المذابح الوحشية التي ارتكبها الصرب بحق المسلمين في البوسنة والهرسك مما أثار مشاعر المسلمين في أنحاء العالم وأنذر بإيقاظ روح الأخوة الإسلامية وإلهاب مشاعر الغيرة والحماس خَفَتَ الحديث عن هذه المذابح وصَغُر حجم النشر عن هذه الحرب؛ مما يومئ بتراجع أهميتها في الأحداث، ومن ثَمَّ في حس القارئ أو المشاهد (المسلم طبعاً)، وصاحَبَ ذلك نَشْرُ بعض الصور التي يظهر فيها بعض (البوسنويين) وهم يشترون حاجياتهم أو يعبرون الطرقات بمرافقة أحد جنود القوات الدولية، مما يومئ بأن هؤلاء البوسنويين (تكيفوا) مع هذه الأوضاع ـ ولا تنس أن منهم من كان يمارس الرقص واللهو في أقبية المخابئ ـ مما يعني أن لا داعي للقلق عليهم، ويومئ أيضاً بأن قوات الأمم المتحدة تقوم بواجبها في حماية هؤلاء الضعفاء المساكين؛ فليطمئن المسلمون أصحاب العاطفة الدينية الجياشة في العالم ولينسوا هذه القضية التي تشعل هذه العاطفة، بينما كانت الحقيقة أن المذابح متواصلة، وأن مسلمي البوسنة ينهشهم الصرب والكروات ـ الذين تسلحوا في الحرب بأكثر مما تسلحوا قبلها ـ من كل جانب، والحقيقة أيضاً أن قوات الأمم المتحدة (والناتو) ما تدخلت تدخلاً جدياً (بصورة مظهرية) إلا عندما كان المسلمون على وشك إحراز انتصار حاسم في كل مرة.

مثال آخر : ما شاهدناه ونشاهده منذ فترة من فصول مسرحية مملة عنوانها : (عملية السلام في الشرق الأوسط) ، ويمكننا أن نشير إلى بعض الإلحاحات التي توضح المقصود ، ويستطيع القارئ إكمال الصورة من خلال تفحصه هو لما يبث كل يوم وكل ساعة .

فمن ذلك : الإلحاح على إظهار أن المفاوضات (ومن ثم : الصراع!) قائم على مسائل ومطامع جزئية (وثانوية) ، فالمفاوضات الشاقة تدور حول قضية لاجئين ، أو اقتسام المياه ، أو السماح بممر آمن ، أو افتتاح مطار ، أو إقامة مجموعة مبانٍ ، أو السيادة على شارع ، أو إغلاق نفق ، أو حرية الوصول إلى مسجد (ولو كان المسجد الأقصى أو مسجد الخليل) . . ومع الوقت يصدِّق رجل الشارع (العربي) أن هذه النزاعات هي بالفعل جوهر الصراع ؛ لأنها دائماً مسائل المفاوضات ، وينسى - كما هي عادته التي يعرفها الغربيون - أن أساس الصراع هو بين فكرتين وحضارتين إسلامية وغربية صهيونية ، وينسى أن هناك وطناً كاملاً اغتصب من أمة قطعت أوصالها .

ومن ذلك : إظهار علاقات المفاوضين من الطرفين (لاحظ أنه تم تمرير أن المفاوضين عن العرب ممثلون حقيقيون لأمتهم وباسم شعوبهم) تارة بمظهر الود والوئام والصداقة والاحترام (وهي بالفعل كذلك) حتى إنهم ليبيتون سوياً ويأكلون سوياً ويتنزهون سويا ويلعبون سوياً! . . ويحترمون عطلة السبت سوياً ، وفي ذلك إعطاء القدوة لرجل الشارع (العربي) بكسر حاجز البغض والعداوة بهدف ترسيخ أن اليهود ليسوا أعداءاً بل بشر كغيرهم ، فيهم اللطيف الظريف كبيريز وباراك ، كما فيهم الفج العنيف كشارون ونتنياهو ، فلِمَ لا نقبلهم ولا نثق بهم؟! وبالطبع تبلع الشعوب (العاطفية) المتقلبة الطعم .

وتارة أخرى يظهر المفاوض العربي بمظهر المفاوض الصعب والمتعنت حتى إنه لينسحب من المفاوضات ، أو على الأقل يحزم حقائبه ويهدد ، وهي رسالة واضحة (بالطبع لرجل الشارع العربي) بأن اطمئن ؛ فالقضية في أيد أمينة ، لا تتنازل ولا تتهاون ، وإنما هي واقعية! ترضى بما هو متاح ومستطاع ممن بيدهم ٩٩٪ من أوراق (اللعبة)! .

ويتعلق بذلك : إظهار تعنُّت المفاوض (الإسرائيلي) وتعاطف الراعي الأمريكي معه ، وإظهار صعوبة المفاوضات حتى إنها لتؤجل وتلغى وتتحول من مكان لآخر ، ومن راعٍ إلى آخر ، وتخفق أكثر من مرة مما يستلزم رحلات مكوكية واستدعاء أطراف أخرى للضغط على المفاوضين ، وطرح مبادرات جديدة ، ولأن رجل الشارع (العربي) اعتاد أن (لا يوجد حلاوة من غير نار) فإنه - طبقاً لنظرية الاشتراط الجزائي - يتوقع أن كل نار يتبعها حلاوة! وعلى ذلك فإنه يتهيأ نفسياً لقبول أي (اتفاق) يخرج ؛ لأن أي (مكتسبات) تعطى فإنما هي إنجازات انتزعت بشق الأنفس من بين مخالب الأسد! ويصبح أصحاب هذا الاتفاق أبطالاً يستحقون الشكر والثناء ثم الإشادة والإطراء .

إننا قد لا نستطيع حصر هذه النماذج في مثل هذا المقام ؛ فهي تحتاج لدراسة أعمق وأشمل ، ولكننا نؤكد على أننا مستهدَفون منذ زمن ، ولذلك وُضعنا تحت مجهر الدراسات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، تقوم بذلك مؤسسات عريقة ومراكز أبحاث ذات إمكانات عالية ، لم يكن ذلك بالأمس القريب ، بل منذ أن أخفق الغرب في حروبه الصليبية ، فأرسل جنوده من الرحَّالة والرهبان والتجار والسفراء والمستشرقين . . يسجلون ويحصون ويكتبون ويرسمون ، حتى باتت أعراقنا وخصائصنا وثقافتنا وتاريخنا وتقاليدنا ومجتمعاتنا وإمكاناتنا جميعها تحت المجهر ، فأخذوا يدرسون ويخططون ، ثم ينفذون ويُجهزون!

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٥ - ١٧] .



تخريج الأحاديث النبوية

فريضة شرعية وأمانة علمية

جلال راغــون

مما لا شك فيه أن السنة النبوية تعد المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن؛ والأدلة على ذلك كثيرة، منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] وعدّ القرآن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله ـ عز وجل ـ: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وحذرنا من مخالفة أمره: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وأقسم الله على نفي الإيمان عمن أعرض عن سنة رسول الله ﷺ ولم يقبل حكمها راضياً مسلّماً ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فالسنة النبوية في مرتبة القرآن الكريم من حيث وجوب الاحتجاج؛ فهما معاً المصدران الأساسيان للإسلام، ولكن السنة ليست كالقرآن من حيث الثبوت؛ فالقرآن قطعي الثبوت بخلاف السنة فبعضها ظني الثبوت.

١ - تقسيم السنة من حيث الثبوت:

من المسلَّمات العلمية عند المحدِّثين أن السنة النبوية تنقسم من حيث الثبوت إلى قسمين:

- سنة مقبولة، وسنة مردودة.

أ - السنة المقبولة: هي التي تتوفر على الشروط الآتية[١]:

١ - اتصال السند.

٢ - عدالة الرواة.

٣ - ضبطهم وإن خف.

٤ - عدم الشذوذ.

٥ - عدم العلة القادحة.

٦ - التقوية والاعتضاد عند الحاجة.

والحديث المقبول يتنوع إلى أربعة أنواع[٢]:

١ - الصحيح لذاته.

٢ - الصحيح لغيره.

٣ - الحسن لذاته.

٤ - الحسن لغيره.

ب - السنة المردودة: وهي التي فقدت شرطاً من شروط القبول المتقدمة. وتعرف السنة المردودة عند المحدثين بالحديث الضعيف.

والحديث الضعيف أنواع كثيرة يمكن تصنيفها إلى صنفين:

١ - ما ضعفه خفيف.

٢ - ما ضعفه شديد.

وشر أنواع الضعيف الحديث الموضوع.

وقد أحببت أن أذكِّر - ولو على وجه الإجمال - بهذه المعطيات العلمية المقررة في مصطلح الحديث لأبين أنه: ليس كل ما ينسب إلى رسول الله ﷺ فهو ثابت مقبول، بل هناك أحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة. وهذا الأمر يحتم على من يريد الاستدلال بالحديث النبوي تخريجه ليعرف مرتبته من حيث القبول أو الرد.

٢ - حكم تخريج الأحاديث:

في ضوء ما تقدم يمكن أن نستنتج أن أول واجب على المستدل بالحديث النبوي الشريف تخريجه ليعرف مرتبته. وبعدم تخريج الحديث؛ فقد يساهم في نشر الكذب على النبي ﷺ إذا كان الحديث موضوعاً.

ومن الأدلة الشرعية التي نستفيد منها وجوبَ التخريجِ السنةُ النبوية؛ فهناك حديثان صحيحان يدلان على ذلك:

الحديث الأول قوله ﷺ: «من حدَّث عني بحديث يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»[٣].

والحديث الثاني قوله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع»[٤].

---

(١) نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث، طبعة دار الفكر بدمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ، ص ٢٨٦.

(٢) محمود الطحان، تيسير مصطلح الحديث، طبعة المعارف بالرياض، الطبعة التاسعة، ١٤١٧هـ، ص ٣٣.

(٣) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه عن سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة: طبعة دار الفكر بلبنان ١٤٠٣هـ بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، ج ١، ص ٩، وقد خرجت هذا الحديث وبينت ما يستفاد منه في مقال بعنوان: (وجوب التثبت في نقل السنة) نشر بمجلة البيان، العدد ١٢٥.

(٤) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، وأبو داود، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، انظر السلسلة الصحيحة للألباني رقم ٢٢٥، المجلد ٥، ص ٣٨، ٣٩ طبعة مكتبة المعارف بالرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

والحديثان أخرجهما أيضاً ابن حبان في صحيحه وترجم لهما بقوله: «فصل ذكر إيجاب دخول النار لمن نسب الشيء إلى المصطفى ﷺ وهو غير عالم بصحته»[1]. فمن نسب الحديث إلى رسول الله ﷺ وهو لا يعلم مرتبته فإنه يستحق دخول النار. ومعلوم أن من يستحق دخول النار هو تارك الواجب أو مرتكب الحرام. وهذا الذي استفاده الإمام ابن حبان من الحديثين يدل على بعد نظره وحسن فقهه. وقد قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في هذا المجال: «ومما زاد في إغراء العلماء بالنظر في صحيح ابن حبان والأخذ عنه ما حفل به هذا الصحيح من استنباطات فقهية دقيقة عنون بها المؤلف كل حديث أورده؛ فكتابه من هذه الناحية يعد كتاباً في الفقه ذا أهمية خاصة؛ لأن استنباطاته مبنية على أدلتها مستندة إلى نصوصها»[2].

ويمكن أن نستدل على وجوب التخريج بالقرآن نفسه وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فمن نسب الحديث إلى رسول الله ﷺ دون تخريج ومعرفة بمرتبته فقد قفا ما ليس له به علم، ومن ثَمَّ وقع في المحذور.

ويمكن أيضاً أن نستدل على الوجوب بالقاعدة الشرعية المشهورة: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» فعدم الكذب على رسول الله ﷺ واجب ولا يتم ذلك إلا بتخريج الحديث لمعرفة مرتبته؛ وعليه فتخريج الحديث واجب.

فاتضح لنا أن تخريج الأحاديث فريضة شرعية. ومعلوم أن ممتثل الفرض يثاب، وتاركه يستحق العقاب.

وتخريج الأحاديث يعدّ أمانة علمية أيضاً؛ إذ إنه ـ كما هو مقرر في المنهجية العلمية ـ يتعين على الباحث نسبة الأقوال إلى أصحابها وذكر المصادر والمراجع المعتمدة في نقل تلك الأقوال. إذا كان هذا في حق أقوال عامة الناس فما بالك بالنسبة لمن أقواله تعتبر من التشريع؟ فمن الأمانة العلمية أن نخرج الحديث ونبين مرتبته ونذكر المصادر والمراجع المعتمدة في ذلك. وإذا كان في عصور الرواية لا ينسب الحديث إلى رسول الله ﷺ إلا بذكر إسناده، واشتهرت في تلك العصور المقولة الآتية: «الإسناد من الدين؛ ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء» ففي عصرنا يعتبر تخريج الحديث هو إسنادنا، ولذا فما أحوجنا في هذا العصر إلى المقولة الآتية: «تخريج الحديث من الدين، ولولا التخريج لقال من شاء ما شاء»! ولكن مما يؤسف له في

---

(١) ابن بلبان الفارسي: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ج ١، ص ٢١٢.

(٢) مجلة البصائر، العدد ١١، سنة ١٩٨٧م، ص ٦١: ابن حبان وكتابه الصحيح لشعيب الأرناؤوط، وهي مقدمته لتحقيق الإحسان.

عصرنا قلة العناية بهذه الفريضة الشرعية، والإخلال بالأمانة العلمية، فتجد المستدل على أمر هام في الدين يستدل بالأحاديث دون تخريج وقد تكون ضعيفة وموضوعة، بَلْهَ الخطيب في خطبته والواعظ في موعظته والمدرس في درسه والكاتب في مقاله.

٣ - نموذج لقلة العناية بهذا الواجب:

النموذج الذي سأذكره ينتمي إلى مجال يعتبر في عصرنا من أهم وسائل الدعوة ونشر التعاليم الإسلامية. ذلك المجال هو الصحافة الإسلامية؛ فمما لا شك فيه أنها تقوم بدور متميز في توعية المسلمين بأمور الحياة المختلفة انطلاقاً من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وهي تستحق على ذلك كل تقدير واحترام. ولكن الملاحظ قلة عنايتها بواجب التخريج إلا من بعضها. فالمفروض أن تساهم الصحافة الإسلامية في نشر الإسلام الصحيح من منبعه الصافي القرآن وما ثبت عن رسول الله ﷺ.

وسأقتصر على مقال واحد تضمن ثمانية أحاديث بدون تخريج، عنوانه (اختيار الزوج) نشر بصحيفة إسلامية مغربية؛ وبعد تخريج تلك الأحاديث وجدت معظمها شديد الضعف، ومنها ما هو موضوع كما سيتضح مما يلي:

١ - تنكح المرأة لأربع: «لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» أخرجه البخاري[١]، ومسلم[٢] عن أبي هريرة.

٢ - أتى رسول الله ﷺ رجل يستأمره في النكاح فقال: «نعم انكح، وعليك بذات الدين تربت يداك».

لم أقف على من أخرجه، وفي الحديث السابق غنى عنه؛ لأنه يتضمن معناه.

٣ - «لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين».

أخرجه ابن ماجه[٣] عن أبي هريرة، وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي وهو ضعيف في حفظه[٤].

٤ - «لا يختار حسن وجه المرأة على حسن دينها».

ذكر المتقي الهندي في كنز العمال[٥] أن

---

(١) ابن حجر: فتح الباري، طبعة دار الفكر، (د ت)، ج ٩، ص ١٣٢، ح/ ٥٠٩٠.

(٢) مسلم: الصحيح، ج ٢، ص ١٠٨٦، ح/ ١٤٦٦.

(٣) ابن ماجة: السنن، طبعة دار الفكر، (د ت) بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، ج ١، ص ٥٩٧، ح/ ١٨٥٩.

(٤) ابن حجر: تقريب التهذيب، طبعة دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ (ت) عبد الوهاب عبد اللطيف، ج ١، ص ٤٨٠.

(٥) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، طبعة مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ، ج ١٢، ص ٣٠١.

الديلمي رواه عن عبادة بن الصامت، وفي إسناده الوازع ابن نافع[1].

قلت: قال في حقه الإمام البخاري: منكر الحديث. وقال النسائي: متروك[2].

٥ - «إياكم وخضراء الدِّمَن، قيل: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء» رواه القضاعي في مسند الشهاب عن أبي سعيد الخدري، ومداره على الواقدي وهو متروك[3]. ومن ثَمَّ فهذا حديث ضعيف جداً.

٦ - «تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم». أخرجه ابن ماجة وغيره عن عائشة، وقد صححه الشيخ الألباني بمجموع طرقه[4].

٧ - «تزوجوا في الحِجْر الصالح؛ فإن العرق دساس». أخرجه ابن عدي في الكامل عن أنس بن مالك، وهو موضوع[5].

٨ - «لا تتزوجوا الحمقاء؛ فإن صحبتها بلاء، وفي ولدها ضياع». في إسناده كذاب كما ذكر الإمام الشوكاني[6] ومن ثَمَّ فهو موضوع.

٤ - توجيهات للقيام بهذا الواجب:

أختم هذه الدراسة المتواضعة بتوجيهات تنير السبيل للقيام بواجب التخريج. وقبل ذلك يحسن بي أن أعرِّف التخريج ولو على وجه الإجمال[7]:

المقصود بتخريج الحديث عزوه إلى مصدره أي الكتاب الذي يذكر صاحبه الأحاديث بأسانيده كصحيح البخاري مثلاً. أما الكتب التي لا تُذكر فيها الأحاديث بالأسانيد فهي مراجع للسنة كرياض الصالحين للنووي، والترغيب والترهيب للمنذري على سبيل المثال.

والأصل في التخريج عزو الحديث إلى مصدره، وإذا تعذر ذلك فلا أقل من عزوه إلى المرجع الذي يلتزم صاحبه بعزو الأحاديث إلى مصادرها.

والغاية من التخريج معرفة مرتبة الحديث ليحتج بالمقبول ويترك المردود. ومصادر السنة كثيرة ومتنوعة يمكن تصنيفها إلى صنفين:

الصنف الأول: التزم أصحابه الصحة. ومن أشهر المصادر المندرجة في هذا الصنف الصحيحان: صحيح البخاري، وصحيح مسلم اللذان يعتبران أصح مصادر السنة النبوية،

---

(١) في المطبوع: الوازع بن قانع بالقاف، وهو خطأ.

(٢) الحافظ الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، طبعة دار المعرفة ببيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ (ت) البجاوي، ج ٤، ص ٣٢٧.

(٣) الألباني: السلسلة الضعيفة، طبعة المعارف بالرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ رقم الحديث ١٤.

(٤) الألباني: السلسلة الصحيحة رقم ١٠٦٧.

(٥) الألباني: ضعيف الجامع الصغير، طبعة المكتب الإسلامي ببيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ، ص ٣٥٨.

(٦) الشوكاني: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (د ت) (ت) المعلمي، ص ١٣٠.

(٧) يراجع للتوسع في الموضوع: أصول التخريج ودراسة الأسانيد لمحمود الطحان، طبعة دار المعارف بالرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

وهما جامعان، والجامع في الاصطلاح هو المصدر المرتب على الأبواب والذي يوجد فيه جميع موضوعات الدين وأبوابه[1]؛ وعليه فمن يريد الاستدلال بالحديث في أي مجال فسيجد مبتغاه في الصحيحين. وهما مطبوعان والرجوع إليهما ميسر، ولله الحمد.

الصنف الثاني: لم يلتزم أصحابه الصحة، ولذلك تجد فيه الأحاديث المقبولة والمردودة. ومن أشهر المصادر المندرجة في هذا الصنف السنن الأربعة: سنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه[2]. وهذه المصادر الأربعة لها مكانة خاصة عند المحدثين؛ فهي مع الصحيحين تتمم الأصول الستة المشهورة عند العلماء بالكتب الستة. وبما أن السنن الأربعة توجد فيها أحاديث مردودة فعلى المستدل بحديث من أحاديثها أن يبحث في أقوال المحدِّثين ليعرف مرتبته. وقد قام الشيخ ناصر الدين الألباني - رحمه الله - بعمل جليل نحو السنن الأربعة؛ حيث ميز صحيحها من ضعيفها في سلسلة خاصة طبعت، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء؛ فالاستدلال بأحاديث الكتب الستة ميسر ولله الحمد.

ومن مصادر السنة المندرجة في هذا الصنف أيضاً المسانيد والمعاجم ومن أشهرها مسند الإمام أحمد، ومسند البزار، ومسند أبي يعلى الموصلي، ومعاجم الطبراني الثلاثة: الكبير والأوسط والصغير. وقد قام إمام من أئمة الحديث بتيسير الاستفادة من هذه المصادر وذلك بإفراد زوائدها على الكتب الستة مع بيان مرتبتها، ذلك الإمام الهمام هو الحافظ نور الدين الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ) في كتابه الحافل: (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد)[3] وقد طبع؛ وعلى ذلك فإن في استطاعة من يريد الاستدلال بحديث من الأحاديث الواردة في المصادر السابقة أن يرجع إلى هذا المرجع الهام.

ومن أهم المراجع المعاصرة التي تضم آلاف الأحاديث المقبولة مع عزوها إلى مصادرها كتاب (صحيح الجامع الصغير وزياداته) للشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله.

وبهذا يتضح لنا أن علماء الأمة - قديماً وحديثاً - قدموا خدمات جليلة للسنة النبوية، ويسروا للباحثين السبل لتخريج الأحاديث ومعرفة مرتبتها.

وفقنا الله جميعاً للقيام بواجب التخريج؛ ففي ذلك خير عظيم والحمد لله رب العالمين.

---

(١) نور الدين عتر، منهج النقد، ص ١٩٨.

(٢) لأخذ نظرة عن مكانة السنن الأربعة عند المحدثين يراجع على سبيل المثال منهج النقد لعتر، ص ٢٧٥ - ٢٧٨.

(٣) لأخذ نظرة عن هذا الكتاب يراجع: (علم زوائد الحديث: دراسة ومنهجاً ومصنفات) لعبد السلام محمد علوش، طبعة دار ابن حزم ببيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ص ٢٢٦.

إشكالية التعامل مع المصادر الأصلية والثانوية للفرق الإسلامية

ضوابط منهجية

د. أحمد جمال بادي

مدخل إلى الموضوع:

تعج المكتبة الإسلامية بكم هائل من الدراسات والمصنفات القديمة والمعاصرة فيما يتعلق بالفرق الإسلامية عموماً، وفيما يتعلق بمسائل الإيمان والتوحيد، أو ما اصطلح عليه بعض المتأخرين بـ «علم الكلام» على الخصوص.

لكن الباحث يلاحظ ويواجه إشكاليات عديدة في تعامله مع تلك الدراسات والكتب والمصنفات قد تقوده إلى نتائج سلبية وخيمة، ومنها أن التصورات الخاطئة عن فرقةٍ مَّا من الفرق قد تؤدي إلى التجني في الحكم عليها والإجحاف في حقها؛ لا سيما إذا ما انضاف إلى ذلك العامل النفسي وما جُبِلَ عليه الناس من بغض المخالف مما يؤدي بدوره إلى التحامل والتحيز ضد تلك الفرقة. يقول الله - تعالى -: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

ومن النتائج المباشرة لوجود تلك الإشكاليات ما نلمسه عن قرب ونجده من تضارب في الأقوال ووجهات النظر بين تلك الدراسات والمصادر سواء في نسبة الأقوال إلى قائليها من كل فرقة، أو في حقيقة أقوال فرقة مَّا في المسألة الواحدة من مسائل الاعتقاد، أو في الحكم على تلك الفرقة ومدى قربها أو بعدها من الحق.

ومن تلك النتائج - وهو إشكالية قديمة متجددة - موضوع تفريعات وتقسيمات الفرق إلى فرق صغيرة والذي يبدو عليه في بعض الأحيان التمحل الواضح، وكأن الهم الوحيد

للمؤلف أو صاحب الدراسة هو إيصال عدد الفرق إلى اثنتين وسبعين فرقة ليطابق العدد المذكور في حديث «الافتراق» المشهور[1].

ويدخل في النتائج المترتبة على الإشكالية السابقة إهمال عامل التطور الفكري والعقدي لفرقةٍ مّا أو لأحد رجالاتها مما أوقع الكثيرين في التناقض أو الحيرة والتخبط.

هذه الإشكاليات وما ترتب عليها من نتائج يُبرِز مدى الحاجة إلى الضوابط المنهجية التي تعين كل باحث وطالب علم في موضوع الفرق الإسلامية على التعامل الصحيح مع ذلكم الكم الهائل من المصادر والمراجع العامة والخاصة، القديمة والمعاصرة.

ويحسن بي قبل البدء بالكلام على هذه الضوابط والقواعد أن أتلمس بعض الأسباب والعوامل التي أدت إلى وجود هذه الظاهرة.

الأسباب العامة للإشكالية:

إن المتتبع للدراسات العامة والخاصة عن الفرق الإسلامية من المتخصصين في هذا الفن ينتبه إلى جملة عوامل تشكل في مجموعها أهم الأسباب الكامنة وراء الإشكالية المتحدث عنها:

أولها: صعوبة الوصول إلى المصادر الأصلية «الأولية» لبعض الفرق الإسلامية إما لضياعها أو لعدم انتشارها؛ أو لقلة التأليف عند أصحابها.

وبذلك أصبحت المصادر العامة التي ألفت عن تلك الفرقة هي المعتمد لدى كثير من الباحثين وطلبة العلم.

ثانيها: ظاهرة النقل الحرفي المتكرر لبعض المؤلفات العامة في الفرق لاحقاً عن سابق دون تمحيص أو تحليل أو نقد أو تفكير وروية؛ فقد يخيل لبعض الدارسين إجماع أصحاب تلك المؤلفات والمصنفات على المسائل المنقولة والمدروسة، وما هي عند التدقيق والتحقيق إلا منقولات مكررة وعبارات مقتبسة غير محررة.

يقول ابن تيمية: «ما ينقله الشهرستاني وأمثاله[2] من المصنفين في الملل والنحل عامته ما ينقله بعضهم عن بعض، كثير من ذلك لم يحرر أقوال المنقول عنهم، ولم يذكر الإسناد في عامة ما ينقله، بل هو ينقل من كتب من صنف قبله»[3].

بل كثيراً ما ينقل الشهرستاني الأقوال دون عزو إلى مصادرها، وقد يترجم بعض الكلام فينقله من الأعجمية إلى العربية[4].

كما يذكر الرازي[5] بأن الشهرستاني ينقل عن كتاب: «الفَرْق بين الفِرَق» للبغدادي، وأن الثاني لا يكاد ينقل مذهب المخالفين على وجهه، ولذلك وقع الخلل في نقل المذاهب؛ وهي مسألة لها تعلق بقضية التعصب والتحيز المذهبي[6].

---

(١) سيأتي الحديث عنه وتخريجه لاحقاً.

(٢) لاحظ العبارة؛ فالظاهرة عامة والحديث عن جمع من المصنفين الذين يسلكون المسلك نفسه، وليس عن الشهرستاني فحسب، فليتأمل.

(٣) ابن تيمية: «منهاج السنة النبوية»، ٦/٣٠٠ من منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

(٤) عبد العزيز بن محمد علي العبد اللطيف: «مقالات في المذاهب والفرق»، ص ٥١، دار الوطن، الرياض، ١٤١٣هـ.

(٥) انظر: جمال الدين القاسمي: «تاريخ الجهمية والمعتزلة»، ص ٢٣، ٢٤، ونقل كلام الرازي المذكور الدكتور عرفان عبد الحميد في كتابه «الفرق والعقائد الإسلامية»، ص ١٢٨ الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٧٧م.

(٦) أول الكتب تأليفاً عن الفرق «مقالات الإسلاميين» لأبي القاسم البلخي عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي المعتزلي (ت ٣١٧ هـ).

ثالثها: أن معظم المؤلفات العامة في الفرق أُلِّفت من قِبَل أصحاب توجه أو مذهب عقدي معين مما أدى إلى التحامل في النظرة إلى الخصوم والمخالفين عند الحديث عنهم، وسوء تفسير كلامهم وتأويل مقصودهم.

رابعها: ومن الأسباب الجلية أيضاً وراء الموضوع اعتماد كثير من المؤلفين والدارسين على المصادر التاريخية العامة فيما يتعلق بالأحداث التاريخية الخاصة بالفرق، وما يتعلق بتلك الأحداث من أقوال ذكرت عنها أو نسبت إلى تلك الفرق.

من بين تلك المصادر التاريخية العامة: تاريخ الطبري (ت ٢٢٤هـ) و «مروج الذهب» للمسعودي (ت ٣٤٦هـ) و «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، و «المنتظم» لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، و «البداية والنهاية» لابن كثير (ت ٧٧٠هـ؟)، و «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (ت ٧٨٠هـ).

والحق أن تلك الأحداث والوقائع والأقوال في حاجة إلى أمرين اثنين:

الأول: التأكد من مدى ثبوتها عن أصحابها.

الثاني: معرفة حال رواتها؛ لأنهم في غالب الأحيان قد يكونون من أتباع مذهب عقدي معين يروون الخبر ضد خصومهم ومخالفيهم.

ويكفي في التدليل على ذلك أن نعلم مثلاً أن أبا مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧هـ) قد روى له الإمام الطبري في تاريخه ما يقارب ستمائة رواية[١]. علماً بأن أبا مخنف هذا معروف بتشيعه أولاً، وأجمع علماء الحديث على تركه وتوهينه لتشيعه وكذبه ثانياً.

خامسها: ومن الأسباب التي يمكن اعتبارها في الموضوع فيما يتعلق بالدراسات المعاصرة الخاصة بالفرق أن بعضها كتب بأيدي المستشرقين؛ حيث طبقوا عليها مناهجهم في البحث والاستدلال، ووظفوا فيها سيل المعلومات غير الموثقة توظيفاً خاطئاً، ورتبوها ترتيباً انتقائياً ليصلوا إلى النتائج المعدة سلفاً أو ما يوافق أهواءهم وتغرصاتهم. ثم تابعهم على آرائهم ونتائجهم بعض الكتاب والباحثين من المسلمين؛ وهو ما أوقع أصحاب تلك الدراسات في التناقض العجيب[٢].

سادسها: ومن أسباب الإشكالية أيضاً اختلاف وجهات النظر حول تصحيح حديث الافتراق والأخذ به.

فرغم ورود الحديث في معظم كتب السنة[٣]، ورواية عدد كبير من الصحابة[٤] - رضي الله عنهم - له، ورغم تصحيح أقطاب الفن والتخصص له[٥]، إلا أن عدداً من العلماء المتقدمين والمفكرين المتأخرين ضعفوه، وطعنوا في ثبوته وصحته.

---

(١) انظر: يحيى بن إبراهيم بن علي اليحيى «مرويات أبي مخنف لوط في تاريخ الطبري»، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٠هـ.

(٢) انظر: «ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي»، ١/٢٥٢ - ٢٥٧، ٢٦٧ - ٢٨١، مكتبة الطيب، القاهرة، ١٤١٧هـ.

(٣) منها: سنن أبي داود، والترمذي، وابن ماجة، ومسند الإمام أحمد، ومستدرك الحاكم، وسنن الدارمي، والطبراني في «الكبير» و «الصغير»، وصحيح ابن حبان، ومصنف ابن أبي شيبة ومسند أبي يعلى.

(٤) منهم: أبو هريرة، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن عمرو، وعوف بن مالك، وأنس بن مالك، وأبو معاوية، وأبو الدرداء، وواثلة بن الأسقع، وابن مسعود، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أجمعين.

(٥) صحح الحديث الحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر في تخريج الكشاف، وجوَّد إسناده الحافظ العراقي.

والحقيقة الدامغة التي غابت عن هؤلاء أو ذهلوا عنها أن الواقع التاريخي والواقع المعاش اليوم خير دليل عملي مشاهد وأقوى حجة وبرهان على صحة هذا الحديث. فهل ينكر منكر ويكابر مكابر في وجود الاختلاف والتفرق والتشرذم على مر التاريخ وإلى يومنا هذا؟

فهذه المكتبة التي تعج بالكتب والمؤلفات والردود، والردود على الردود في مختلف مسائل الاعتقاد شاهد نظري على ذلك الأمر. وهذه الفرق بمسمياتها المختلفة والموجودة في كل أقطار العالم الإسلامي، وكثير منها لها حضور سياسي ملموس، شاهد عملي على ذلك.

بل إن أكثر الذين شككوا في حديث الافتراق وصحته إنما بثوا كلامهم هذا أثناء حديثهم عن الفرق التي يخالفونها ويردون عليها، فهل بعد هذا من عجب؟

سابع الأسباب: ومن أسباب الإشكالية أيضاً اختلاف وجهات نظر العلماء والباحثين والدارسين حول أسباب الاختلاف والتفرق هل هي: أسباب داخلية ذاتية؟ أم أنها أسباب خارجية ومن كيد أعداء الإسلام كاليهود والنصارى والمجوس؟ أم أنها عوامل مشتركة؟ وإذا كانت مشتركة فهل هي منفصلة عن بعضها ولا ارتباط بينها؟ أم أنها أسباب داخلية ثم استثمرت واستغلت من قبل الآخرين (الأعداء) لتصل إلى ما وصلت إليه؟ لكل رأي من هذه الآراء قائل ومدافع، وعلى كل واحد منها أدلة تاريخية أو جدلية برهانية.

أما التاريخ فيقول أهل الاختصاص فيه: أعطني أي فكرة أو رأي فأثبته لك، وأثبت لك عكسه من التاريخ. وأما الجدل وقضاياه فله قواعده التي يمكن بها اختبار مدى صدقه من كذبه.

ولا زال الأمر في حاجة إلى تمحيص ودراسة.

أهمية تحرير الضوابط المنهجية:

ولعلنا مما ذكر آنفا نعلم مدى الحاجة بل والضرورة إلى تحرير الضوابط المنهجية التي تعين طلبة العلم بل وعموم المطلعين والباحثين الذين يبحثون في موضوع الفرق الإسلامية وأقوالها وأفكارها وآثارها والحكم عليها، فتيسر لهم سبل الإفادة من مختلف المصادر والمراجع على الوجه العلمي الصحيح المبني على قواعد التحقيق والتدقيق لتحصل بذلك الفائدة ويتم المقصود.

ونحن في حاجة اليوم لمثل هذا الأمر أكثر من أي وقت مضى للأسباب الآتية:

١ - توفر الكتب والمصادر بغثها وسمينها بتيسر الطباعة وانتشار دور النشر في كل بقاع الدنيا.

٢ - ازدياد عدد الجامعات الإسلامية في العالم الإسلامي الذي تبعه ازدياد عدد طلبة العلم والباحثين حول الموضوع.

٣ - وجود عامل الاستقطاب المذهبي والإحياء الطائفي.

٤ - نشأة بعض الجماعات الإسلامية في الساحة الدعوية والتي بنت فكرها وأصولها ومنهجها بتتبع خطا من سبقها من الفرق والمذاهب العقدية.

٥ - ما ترتب من سلبيات على الأمر السابق، انعكست آثاره على المجتمعات الإسلامية فعانت من تلك الآثار ولا زالت تعاني حتى الآن.

٦ - ما ترتب على الأمرين السابقين من دخول حلبة ميدان الكتابة في الموضوع من ليسوا من أهل الاختصاص كبعض الصحفيين الذين سالت أقلامهم

بمشاعرهم وما نشأ عن مشاعرهم من تصورات قد يكون فيها المبالغة والحيدة عن جادة الصواب.

٧ - ازدياد عدد المثقفين في العالم - وهو أمر محمود - الذين يكوِّن الكثير منهم تصوراته ومفاهيمه الإسلامية عبر ما يتلقفه وتقع عليه يداه من كتب ومقالات وأشرطة دون منهجية علمية سليمة. ويمثل هؤلاء في عمومهم ومجملهم الأرض الخصبة للاستقطاب المذهبي والطائفي المذكور.

بيان الضوابط وكيفية التعامل معها:

كل هذه العوامل والأسباب تجعل من آكد فروض الكفاية اليوم بيان الضوابط المنهجية للتعامل مع المصادر الأولية والثانوية للفرق الإسلامية.

وفيما يلي محاولة متواضعة في الموضوع[1]، وقد قسمت الضوابط إلى قسمين بحسب تقسيم المصادر إلى أولية وثانوية.

أولاً: الضوابط المنهجية للتعامل مع المصادر الأولية:

الأول: ينبغي لطالب العلم المبتدئ والباحث المستجد الذين لم تتأصل لديهم العلوم الشرعية، وليس لديهم المنهجيات الكافية الحذر من البدء بكتب الفرق، أو بالكتب التي ألفت عنها؛ لأنها مفازة لا يستطيع اجتيازها إلا الخبير الذي أخذ للأمر أهبته واستعداده، وإلا وقع في المهالك واحتوشته شبهات المنحرفين إلا أن يشاء الله تعالى.

ومن أسباب هذا التحذير أن معظم الكتب العامة التي ألفت عن الفرق زرعت الشبهات ولم تردَّ عليها، وبذرت الشكوك ولم تكترث لعواقبها.

فالنصيحة للمبتدئ في الموضوع أن يبدأ بالكتب الآتية:

١ - الكتب التي تحذر من البدعة والابتداع، نحو: «البدع والنهي عنها» لابن وضاح، وكتاب الإمام الطرطوشي، وكتاب أبي شامة.

٢ - الكتب التي أصَّلت الأصول والقواعد والضوابط في موضوع الفرق والفرقة والاختلاف، ويأتي في مقدمتها كتاب: «الاعتصام» للإمام الشاطبي.

٣ - البدء بالكتب التي كتبت عن الفرق ولم تكتف بإيراد الشبهات، بل ردت عليها وفندتها ودحضتها. ويأتي في مقدمة هذه الكتب المفيدة: كتاب: «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي (ت ٣٧٧ هـ) فبالإضافة إلى ما يورده من آراء أهل البدع والرد عليها، قدم له مؤلفه بمقدمات منهجية في الموضوع.

الثاني: ضرورة معرفة مصطلحات كل فرقة والإلمام بها قبل الشروع في التعامل مع مصادرها أو غيرها من المصادر التي كتبت عنها، وذلك لمعرفة حقيقة أقوالها، وتبين مقصدهم بكلامهم.

فالتوحيد مثلاً مصطلح أو مفهوم له دلالاته الخاصة عند كل فرقة من الفرق؛ فهو عند السلف غيره عند المعتزلة، وكذا الحال بالنسبة للأشاعرة والمتصوفة وغيرهم.

وقُلِ الأمرَ نفسه بالنسبة لما يتعلق بهذا المفهوم من مفاهيم أخرى لها ارتباط به.

وقلَّما يوجد مفهوم واحد في الفكر الإسلامي

---

(١) أفدت من كثير مما ذكر من هذه الضوابط من خلال تدريسي لمادة «الفرق» لطلبة كلية معارف الوحي بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا على المستوى الجامعي ومرحلة «الماجستير».

عموماً وفي الدراسات العقدية على وجه الخصوص إلا ويوجد حوله اختلاف في معناه ودلالته بين الفرق الإسلامية المختلفة[1].

فلا بد من الوقوف على المصطلحات الداخلية الخاصة بكل فرقة، والحذر من اعتماد الباحث وطالب العلم على فهمه الذاتي وتحليله الشخصي للمصطلح أو المفهوم.

وإذا وجد بيان لمثل تلك المفاهيم والمصطلحات في كتب الفرقة نفسها فهو الأوْلى والمعوَّل عليه.

ويكفي في بناء عنصر الحذر والانتباه في هذا الباب علمنا أن مصطلحات مثل: «الفرق الناجية»، «أهل الحقيقة»، «أهل الشريعة»، بل حتى «أهل الجنة» لها دلالتها الخاصة وظلالها الخفية عند كل فرقة من الفرق الإسلامية.

الثالث: أهمية التفريق بين المصادر الأولية والثانوية في موضوع الدراسة أو البحث، والتفريق بين المصادر والمراجع؛ وأن يكون الاعتماد على المصادر الأساسية الأولية لكل فرقة، فهي مصدر معرفة رأي الفرقة، ومنها يستنبط ويستشهد ويستدل.

أما المراجع والمصادر الثانوية فوظيفتها ثانوية كتقديم رأي للنقاش أو إغناء الحوار أو المساعدة في تحليل نص. ولا يتم اللجوء إلى أي منها كمصدر بديل إلا عند تعذر الوصول إلى المصادر الأولية تعذراً حقيقياً مطلقاً لا تعذراً نسبياً أو مؤقتاً، وهذا الأمر خاص ببعض الفرق التي لا تعلم أقوالها إلا من خلال المصادر الثانوية لقدم الفرقة وقلة أو انعدام مؤلفات رجالاتها. وحتى في هذه الحالة الاضطرارية لا بد من مراعاة الضوابط العلمية والمنهجية في التعامل مع تلك المصادر والتي سأذكر ما تيسر لي منها لاحقاً.

وأضرب بعض الأمثلة للضابط السابق:

١ - فمن المصادر الأولية للمعتزلة «المغني» للقاضي عبد الجبار.

٢ - ومن المصادر الأولية للأشاعرة «المواقف» للإيجي، وشروحه.

٣ - ومن المصادر الأولية للماتريدية «النسفية» للتفتازاني، وشروحها.

٤ - ومن المصادر الأولية للشيعة الاثني عشرية «الكافي» للكليني.

ومع ما مر ذكره لا بد من مراعاة الضوابط الأخرى التالية.

الرابع: الوقوف على المنظومة العقدية للفرقة، والأقوال المتفق عليها لديهم ومعرفة رجالاتها، فلكل فرقة أقوال اتفقت عليها كلمتهم، وأمور وتفصيلات اختلفت فيها؛ حيث كانت سبباً في تفريقها إلى فرق أخرى صغيرة. وقد حاول عبد القاهر البغدادي - وغيره - جاهداً تتبع المتفق عليه والمختلف فيه بين

---

(١) ولذلك يحسن في مثل هذه الحال - للباحث وطالب العلم - الرجوع إما لكتب الفرقة نفسها للتعرف على المصطلح المراد، أو الرجوع إلى معاجم المصطلحات وأهمها:

أ - كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي.

ب - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة.

ج - مفاتيح العلوم للخوارزمي.

د - اصطلاحات الصوفية للكاشاني.

رجالات كل فرقة في كتابه «الفرَق»[(١)]، ولعل هذا يفسر لنا منهج البغدادي في تسمية الفرق الفرعية لكل فرقة رئيسية حيث ينسبها إلى صاحب المقولة بغض النظر عن وجود أتباع له أم لا.

ومن الأمثلة التطبيقية لهذا الضابط: أن النظّام - مثلاً - رفض اعتزاله كثير من المعتزلة. فلا يصح بذلك نسبة ما قاله وتفرد به عنهم إلى كامل الطائفة.

الخامس: التحري من نسبة القول إلى قائله والتأكد من مدى صحة تلك النسبة؛ فقد ينسب قول لفرقةٍ مَّا ثم لا يتوافر دليل واحد على صحة هذه النسبة، ولعل الأمر يكون تخميناً أو ظناً أو رجماً بالغيب من قِبَل المخالفين.

فلا يفوت الباحث الناقد البصير عدم الجزم أو القطع بأمر يصعب إثباته على وجه اليقين؛ حيث إن قضية اليقين في مسائل كهذه أمر نسبي.

وكمثال يوضح لنا أهمية هذا الضابط ما ذكره ابن تيمية في شأن ما ينقله بعض المصنفين في بعض المسائل الاعتقادية عن طوائف «المرجئة» بقوله: «وبعض الناس يحكي هذا عنهم وأنهم يقولون: إن الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم أن يعملوها ولا يضرهم تركها، وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون: لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد، لكن ما علمت معيَّناً أحكي عنه هذا القول، وإنما الناس يحكونه في الكتب ولا يعيِّنون قائله»[(٢)].

السادس: أهمية الرجوع إلى المصادر المعترف بها من قِبَل الفرقة نفسها، والتي تعتمد عليها في نشر آرائها ومعتقداتها. فلا يعتمد الباحث على مصادر مشكوك فيها أو غير معترف بها من أصحاب الفرقة. فمحاولة إلزام «الشيعة الاثني عشرية» بكتابات «موسى الموسوي»، مثلاً، وهو في نظر بعض أهل السنة شيعي معتدل، ولكنه بالمقابل يعتبره الشيعة شيعياً معارضاً، فأي استدلال بكتاباته لن تلزمهم وإن كانت قد تقنع الآخرين.

السابع: يجب أن يكون الباحث عالماً بالمسار التاريخي للفرقة منذ النشأة وانتهاءاً بالعصر الحديث إن كانت الفرقة لا تزال موجودة، وأن يكون عالماً بأهم المحطات والأحداث التاريخية التي عاشتها، وبمواقف علمائها وأعلامها، وبطبقاتهم ومصادر التأثير فيهم وعليهم. وأن يحاول الباحث ما أمكنه جهده وطاقته أن يربط بين أفكار وأطروحات الفرقة والظروف الزمانية والمكانية التي تقلبت وعاشت فيها، وكذا الواقع التاريخي والفكري والسياسي الذي عاصرته؛ فإن ذلك يعين على فهم كثير من القضايا والإشكاليات وتفسيرها.

وهذا الأمر ينطبق على الفرقة باعتبارها فرقة وعلى رجالاتها بوصفهم أفراداً؛ فبعض مفكري الفرق من يكون قد مر بمراحل فكرية معينة وانعكس ذلك على كتاباته ومؤلفاته وأفكاره ومواقفه.

ومن أمثلة ذلك: أبو الحسن الأشعري، وأبو حامد الغزالي[(٣)]؛ لأن فهم هذا الأمر وإدراكه مما يعين بإذن الله على استيعاب الاختلاف الذي قد يقع بين مصنفاتهم.

ومن هذا الباب أهمية معرفة طبيعة الكتاب التي أُلِّف من أجلها والظرف الذي أحوج إليه. فمن

(١) مع ما ذكره من المؤاخذات العلمية التي عليه.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ٧/١٨١، طبعة الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين.

(٣) ينصح بمراجعة كتاب «الحقيقة في نظر الغزالي» للدكتور سليمان دنيا.

المؤلفات ما كان السبب المحوج إليه المناظرات والخصومات بين الفرقة وغيرها.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله - في هذا الشأن: «شغل المعتزلة بمجادلة الزنادقة والروافض والثنوية وغيرهم، وكل مجادلة نوع من النزال، والمحارب مأخوذ بطريقة محاربه في القتال مقيد بأسلحته، متعرف لخططه، دارس لراميه. وكل ذلك من شأنه أن يجعل الخصم متأثراً بخصمه، آخذاً عنه بعض مناهجه؛ فالمعتزلة قد سرى إليهم بعض من تفكير مخالفيهم «ثم ذكر قولاً مشابهاً للمستشرق (نيبرج) - وقد يكون استنبط من قوله قاعدته السابقة - في مقدمة إخراجه لكتاب «الانتصار» للخياط المعتزلي: «مَنْ نازل عدواً عظيماً في معركة فهو مربوط به مقيد بشروط القتال وتقلب أحواله، ويلزمه أن يلاحق عدوه في حركاته وسكناته وقيامه وقعوده، وربما تؤثر فيه روح العدو وحيله، كذلك في معركة الأفكار، وفي الجملة فللعدو تأثير في تكوين الأفكار ليس بأقل من تأثير الحليف فيه»[1].

الثامن: وقد يكون من أهم الضوابط التي ينبغي اعتمادها في دراسة الفرق ومناقشة آرائها: الأمانة والنزاهة العلمية التي تنأى بالباحث عن الخروج عن حد الموضوعية أو التحيز والتعصب لرأي معين دون أي دليل أو برهان. فلا بد للباحث من الحياد الموضوعي في التعامل مع اضطراب المصادر، وأن يتحرى الدقة والأمانة العلمية في النقل عن تلك المصادر، فلا يتلاعب بالأقوال أو يؤولها ويحملها ما لا تحتمل.

وفي التعامل مع تلك المصادر لا بد من الاقتباس الكامل للنصوص وعدم قطع تلك النصوص أو بترها لتتناسب مع فكرة الباحث ورأيه المسبق.

كما أنه لا بد من الرجوع إلى أكبر عدد ممكن من المصادر عن كل فرقة، ثم المقارنة بين تلك المصادر للتعرف على آراء الفرقة وخلفياتها الفكرية بموضوعية، وعدم تجزئة أقوال الفرقة أو أقوال أئمتها، فلا يكون البحث علمياً إذا جمعت الأقوال الشاذة لفرقة مًا لتعتبر هذه الأقوال هي آراء الفرقة، وإنما المعتبر هو ما عليه جمهور الفرقة وزعماؤها أو ما اتفقت عليه كلمتهم كما مر سابقاً. وأما تفرد فرد من الفرقة بقول لم يوافقه عليه غيره فلا يمكن أن ينسب للفرقة أو أن تتحمل الفرقة تبعة هذا القول أو ذاك.

ومن ذلك عدم تقويل شخص مًا شيئاً لم يقله، أو إلزامه بلازم القول أو المذهب، وهو أمر يقع أحياناً من بعض الباحثين والدارسين في تحليل أقوال الأشخاص والإشارة إلى أنه يقصد بالقول كذا وكذا.

ومن ذلك عدم قبول أقوال الفرق المتخاصمة في طعن بعضها بعضاً؛ لأن كل فرقة تشنع على مخالفيها وتحاول تصيد أخطائهم إلى حد المبالغة بل والتزوير أحياناً والزيادة على الأقوال. ومنها أن يكون الغرض من البحث أو الدراسة هو معرفة الحق في المسألة، وليس لأغراض أخرى حتى يتجنب الباحث مشكلة التعصب لفرقة أو ظلم أخرى.

ومنها البعد عن التعميم في إصدار الأحكام المتعلقة بالفرق؛ فلا بد من التحديد الذي يخرج

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد، ص ١٢٧، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة.

بالباحث عن دائرة التكهنات والافتراضات.

ومنها الإنصاف مع المخالف والاعتدال في النظرة إليه.

ومنها عرض أي رأي يختاره الباحث أو ينتقده على الكتاب والسنة؛ فهما المعيار الصحيح والوحيد لضبط الأقوال وقبولها أو ردها؛ فما وافقهما قُبِلَ، وما خالفهما رُدَّ.

التاسع: فهم طبيعة الاختلاف بين الفرق، ومعرفة كيفية التعامل معه. ويمكن فهم طبيعة الاختلاف بين الفرق في ضوء ما ذكره العلامة ابن القيم عند حديثه عن تقسيم الاختلاف إلى محمود ومذموم وبيان حال كل منهما بقوله: «الاختلاف ينقسم أهله إلى محمود ومذموم؛ فمن أصاب الحق فهو محمود، ومن أخطأه مع اجتهاده في الوصول إليه فاسم الذم موضوع عنه وهو محمود في اجتهاده معفو عن خطئه، وإن أخطأ مع تفريطه وعدوانه فهو مذموم»[1].

ثم يبين - رحمه الله - طبيعة الاختلاف المذموم ليكون مدخلاً لكيفية التعامل معه فيقول: «والاختلاف المذموم كثيراً ما يكون مع كل فرقة من أهله بعض الحق؛ فلا يقر له خصمه به بل يجحده إياه بغياً ومنافسة، فيحمله ذلك على تسليط التأويل الباطل على النصوص التي مع خصمه؛ وهذا شأن جميع المختلفين بخلاف أهل الحق فإنهم يعلمون الحق من كل من جاء به، فيأخذون حق جميع الطوائف ويردون باطلهم» ثم أوضح المنهج الحق في التعامل مع الاختلاف الذي بين الفرق فقال: «فمن هداه الله - سبحانه - إلى الأخذ بالحق؛ حيث كان ومع من كان، ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، ورد الباطل مع من كان، ولو كان مع من يحبه ويواليه؛ فهو ممن هدي لما اختُلف فيه من الحق»[2].

وقفة مهمة:

ويجب التنبيه إلى أمر مهم هنا وهو ضرورة فهم كلام الإمام ابن القيم في سياقه الصحيح. فالواحد منا لا يكوِّن عقيدته وتصوراته ومفاهيمه بالتقاطها من هنا وهناك من كتب الفرق ليصلَ إلى الحق.

بل الأصل والأمر المتوجب هو بناء العقيدة الصحيحة من مصادرها الأصلية أولاً، وبناء المنهجية العلمية الرصينة من القواعد والضوابط والأصول، وقواعد الترجيح من مظانها قبل التعامل مع أقوال الفرق وآرائها، وذلك حرصاً على سلامة المعتقد وبعداً عن لوثات المبطلين وشبهاتهم التي توقع صاحبها في الحيرة والشك والتخبط الذي قد لا يفارق صاحبه إلا بالموت، نعوذ بالله من ذلك.

العاشر: ويتفرع عن الضوابط السابقة معرفة المنهج الصحيح في الحكم على الفرق المخالفة؛ وقد قعّد الإمام الشاطبي لهذه المسألة في كتابه: «الاعتصام»، ويمكن تلخيص أهم القواعد التي استخلصها من كلام العلماء وأئمة السنة في المسألة وذكرها في كتابه كما يلي:

١ - أن الفرقة لا تصير فرقة إلا بمخالفة الحق في أصل كلي، أو في جزئيات كثيرة لها حكم الأصل الكلي.

(١) الصواعق المرسلة، ص ٥١٥، النسخة المحققة.

(٢) المصدر السابق.

٢ - أن الثنتين والسبعين فرقة المخالفة الوارد ذكرها في الحديث هي جزء من أمة الإجابة، وأنهم مسلمون لا يحكم عليهم بكفر بدليل نص الحديث نفسه: «وستفترق أمتي».

٣ - أن هذه الفرق وإن حادت عن الجادة والصواب في قليل أو كثير ووقعت في البدعة، إلا أن هذه البدع ليست مكفرة. والبدع وإن كانت أشد حالاً من المعاصي إلا أن حكمها حكم المعاصي في الآخرة؛ حيث يكون صاحبها تحت المشيئة، فإن شاء الله عذبه على قدر بدعته ثم مآله إلى الجنة والنعيم، وإن شاء غفر له ابتداءً وأدخله الجنة. وهذه المغفرة قد تكون بسبب: كزيادة الحسنات على السيئات أو بشفاعة أو غير ذلك من الأسباب الموجبة لدفع العذاب[1]، وقد تكون بمحض عفو الله ورحمته.

٤ - قد يكون من تلبس برأي فرقة من الفرق معذوراً بسبب من أسباب العذر الشرعي، والذي من شأنه أن يرفع عنه الوزر والإثم.

ثانياً: الضوابط المنهجية للتعامل مع المصادر الثانوية (المراجع) في الفِرَق:

تشمل هذه المصادر الثانوية ما يلي:

١ - المصادر العامة التي سبقت الإشارة إليها في أول المقال.

٢ - المصادر الخاصة التي كتبت عن «الفرق» ولكن من غير أصحابها.

٣ - الدراسات المعاصرة والمراجع المتأخرة سواء أكانت رسائل علمية لنيل درجة علمية مَّا، أو كانت كتباً علمية ألفها أهل الاختصاص في الفن من المتأخرين، أو ألفها كاتب من عموم المثقفين والمفكرين المعاصرين.

٤ - الدراسات التي ألفها المستشرقون عن الفرق الإسلامية وآرائها، ويدخل في ذلك كتب الفرق التي قاموا بتحقيقها والتقديم لها.

وفيما يلي أهم هذه الضوابط حيال تلك المصادر:

الأول: ضرورة فهم الآراء والأقوال في المصادر الثانوية بعد فهمها في مصادرها الأولية.

الثاني: التثبت من صحة الأقوال ونسبتها، والمقارنة بين ما ورد في المصدر الثانوي والمصادر الأولية لتوثيق الأقوال وتمحيصها ومعرفة أوجه الاتفاق والاختلاف.

الثالث: عند النظر في المعلومات المأخوذة عن المصادر الثانوية لا بد من التفريق بين: ما يمكن اعتباره حقائق مسلَّمة وأموراً ثابتة لا تقبل الجدل، وبين ما يمكن اعتباره افتراضات وتخميناً تحتاج إلى برهنة ودراسة واختبار للتأكد من صحتها أو خطئها؛ وبين ما هو رأي أو وجهة نظر قد تكون راجحة أو مرجوحة.

الرابع: عدم الاكتفاء بمصدر ثانوي واحد في أخذ المعلومة حتى لا تتكرر الأخطاء، بل يتوجب على الباحث وطالب العلم والمثقف الرجوع إلى أكبر عدد ممكن من المصادر الثانوية لا سيما في حالة قلة المراجع الأولية أو عدمها؛ ثم المقارنة بين المصادر الثانوية فيما بينها ليظهر الحق في المسألة.

الخامس: على الباحث وطالب العلم أن يكون على علم بموقف صاحب المصدر من الفرقة التي هي موضوع الدراسة، فلا يعتمد على مناصر

---

(١) أوصلها بعض العلماء إلى عشرة أسباب كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، ونقله ابن أبي العز في شرح الطحاوية.

ولا معارض. وهذا الأمر يستوجب بذلك الجهد ومضاعفته في تخير المصادر الموضوعية.

أما الدراسات التي تنطلق من منطلق عدائي أو تقديسي فلا تعتمد باعتبارها أساساً ولكن قد يتم الرجوع إليها بوصفها دراسات استثنائية تعين الباحث على معرفة عمق توجهات الفرقة إذا كان الكاتب مناصراً لها، كما تعينه على معرفة جوانبها المتعددة.

وأما إذا كانت الدراسة عدائية فهي تعينه - أي الباحث - على تفهم موقف الآخرين «المخالفين» من هذه الفرقة وأهم النقاط التي انتقدت لأجلها.

والأصل أن تكون الأولوية للكاتب الذي عاصر تلك الفرقة ولا تربطه بها أي علاقة انتماء أو عداوة.

كما ينبغي أن يكون الباحث مدركاً ومستبصراً بما يطلق عليه «مرحلة الاستقطاب المذهبي»[١] كما يجب الانتباه إلى معرفة حقيقة الظروف والملابسات التي أحاطت بكتابة تلك المصادر.

السادس: لا بد من أن يضع الباحث في اعتباره عند التعامل مع هذه المراجع أنها نتاج جهد بشري يعتريه ما يعتري كل الأعمال البشرية من الخطأ والنسيان والقصور.

وبناءً على ذلك الأمر لا بد أن تخضع تلك الدراسات لميزان الحقيقة والنقد والتمحيص.

السابع: الحذر من تقليد بعض الدراسات المعاصرة التي وقعت في شراك المستشرقين وحبائلهم، وتأثرت بآرائهم وأقوالهم واستنتاجاتهم؛ حيث نقلتها واعتمدتها وأخذت بها مأخذ التسليم.

وكذا الحذر من الإسقاطات المعاصرة لدى بعض الدراسات؛ حيث حاولت تفسير الأحداث التاريخية السابقة في ضوء ما هو واقع اليوم[٢].

الثامن: هناك بعض الأسئلة التي ينبغي للباحث أن يطرحها على نفسه عند قراءة المصادر الثانوية ومراجعتها لعلها تنير له الطريق وتحدد له مدى جدوى الدراسة التي يتعامل معها ومصداقيتها. فمن هذه الأسئلة:

- ما هو الدافع والمحرض على كتابة المقال أو الكتاب؟

وأضرب مثالاً على ذلك بكاتبين من بلدين مختلفين ألف كل منهما كتاباً يناصر فيه فكر المعتزلة ومنهجهم، وكان سبب مناصرتهما لهذه الفرقة وفكرها واضحاً من خلال عباراتهما ومقدماتهما وتعليقاتهما أنها ردة فعل، مع اختلاف في نوعية ردة الفعل تلك. وقد نسي هذان المسكينان أن منهج المعتزلة يعتمد القوة وفرض الرأي على الآخرين، كما يعتمد مصادرة أفكار الآخرين مهما كان حالها وصحتها، والحكم على المخالف بالكفر. لقد فر هذان الكاتبان من شيء ليقعا في أسوأ منه.

ومن الأسئلة أيضاً:

- هل كان الكاتب عضواً من أعضاء الفرقة، أو هو ينظر إلى الفرقة من خارجها؟
- إلى أي حد حلل النصوص المنقولة عن الفرقة من زاوية نظر تخصصه؟
- ما هي المنهجية التي استعملها لتحديد الفرقة وتصنيفها؟

---

(١) كما أشار إليه الأستاذ الدكتور عرفان عبد الحميد فتاح في كتابه: «دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية».

(٢) انظر: د. سفر الحوالي: ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، ١/٢٥٢ - ٢٥٧، ٢٦٧ - ٢٨١، ٣٠٢ - ٣٠٥.



- هل صنفها حسب أفكارها وآرائها، أم حسب مفكريها وأعلامها؟

- ما هي الضوابط والمعايير التي استعملها في تصنيف الفرق الصغيرة الفرعية داخل تلك الفرقة؟

- ما هي المصادر والمراجع التي رجع إليها في دراسته لتلك الفرقة: هل هي مصادر أصلية أم ثانوية؟ هل هي مصادر الفرقة نفسها أم مصادر كتبها عنها مخالفوها؟

- وفي حالة كونها مصادر ثانوية: هل تحدث الكُتَّاب بوصفهم أشخاصاً معاصرين للفرقة وشاهدي عيان، أم هم مجرد نقلة؟ وكم بينهم وبين الحدث من سنوات ونَقَلَة؟

- هل هؤلاء النقلة ثقات وموثقون؟

- هل حاول هؤلاء الذين كتبوا عن الفرقة كمصدر ثانوي التأكد من الحقائق والمعلومات التي يذكرونها؟

- هل أصحاب الفرقة المتحدث عنها يوافقونه فيما توصل إليه، أم أن مصادرهم تقول خلاف ذلك؟ وإذا كان لديهم خلاف ذلك فهل حرره وبينه؟

- إلى أي حد كان الكاتب موضوعياً أو متجنياً منحازاً ضد الفرقة؟

- إذا كان النقل عن مصادر أولية كتبها أصحاب الفرقة أنفسهم: هل ما نقل عن الفرقة هو كلام كل من ينتسب إليها؟ أم أنه كلام فرقة من فرقها؟ أم اجتهاد علم من أعلامها قد لا يوافقه عليه غيره منهم؟ أم أنه - على الأقل - كلام جمهورهم ومعظمهم؟

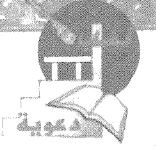
- في أي فترة تاريخية كتب الكتاب: في مرحلة تكون الفرقة وبداياتها، أم أنه في الفترة الوسطى (التطور)، أم في فترة لاحقة ومتأخرة؟

إن إثارة مثل هذه الأسئلة وغيرها له دور جيد في التعامل مع المصادر الثانوية، لتحصل الفائدة المرجوة للباحث، ويخرج من بحثه بنتائج علمية مثمرة.

ولا يفوتني تذكير القارئ الكريم بالحرص على الدعاء النبوي الجامع في هذا الباب - رغم بذل جهده في تحقق الأسباب بالأخذ بالضوابط المذكورة وغيرها - والذي خرَّجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الصلاة، فيما روته عائشة - رضي الله عنها وعن أبيها - في شأن دعاء استفتاحه ﷺ، الصلاة عند قيامه لصلاة الليل، ونصه: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(١).

كما أرجو الله - سبحانه وتعالى - أن يكون هذا المقال بداية ومفتاحاً لجهود علمي أكبر في هذا المجال المهم، وأن يتحول إلى دراسة علمية أوسع وأشمل وأكثر فائدة لطلبة العلم؛ سواء حصل ذلك الأمر مني أو من غيري. كما أسأله - سبحانه - أن يوفقنا جميعاً إلى ما يحب ويرضى من الأقوال والأعمال، وأن يثبتنا على الحق والصراط المستقيم، وأن يعلِّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علماً آمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله الأمين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) رواه مسلم في صحيحه، ١/٥٣٤.



ما كل ما يعلم يقال.. وفي الدعوة أيضاً

سليمان الخضير

يصادف القارئ أثناء اطلاعه على بعض الكتابات التي تصف واقع المسلمين أو تقومه مقاطع وفقرات قد صيغت بأسلوب يجمع بينها أنها تحمل في صريح عباراتها آهات وزفرات أفرزتها غَيْرةٌ وحرقة ـ فيما نظن ـ لكنها تحكي من وراء مجموعها نفسية قاتمة وتصوراً كالحاً للحال الذي يعيشه المسلمون، وربما تزيد الظلامية النفسية في بعضها فيعطي المتحدث أو الواعظ أو الكاتب وصفاً باستحالة التغيير، وأنه ضرب من إضاعة الوقت، وخير له أن يُقْبِلَ على خاصة نفسه.

والحديث لا يدور في صحة فحوى تلك العبارات، ولا على الباعث عليها، ولا هل كان أصحابها ذوي نفسيات تشاؤمية؟ وإنما الكلام من خلال قاعدة مشهورة هي أن (ما كل ما يعلم يقال)؛ فلقد جربنا تحذير الناس عن طريق التألم على الواقع، وتعداد حالات الانحراف المرير، وسردنا لهم أمثلة على تفاهة اهتمامات الشباب، وإسفنجية المرأة.. وأخطاء الصحوة.

ولكن هل الناس ـ مع اختلاف نفسياتهم وتباين طباعهم ـ يؤثر فيهم هذا الأسلوب المفرد؟ وهل مجموع الناس على الصفة المذكورة؟

فهل يسعنا أن نجرب ـ بالإضافة إلى طريقة التحذير ـ أسلوب إبراز الجانب المشرق في واقع الناس من خلال إعلان النماذج الرائعة في التسابق للخيرات من غير المتدينين والتصريح بإكبار الشباب لعلماء الشريعة وإجلالهم في نفوسهم، وذكر الأفكار التربوية التي تفتقت عنها تجارب ربات البيوت، ومدى إقبال الفتيات والأمهات على مدارس تحفيظ القرآن الكريم النسائية، ونتائج الدراسات الميدانية الإيجابية لواقع الناشئة والفتيان؟

قد يكون الوصف المشين لواقعٍ مّا صحيحاً، ولكن التصريح به دائماً ـ وربما تعميمه ـ يلقي في

النفوس شعوراً بالإحباط، ولعل هذا مما يشمله مفهوم حديث رسول الله ﷺ عند مسلم: «إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم» على رواية فتح الكاف، أي تسبب في هلاكهم بإشعارهم بالهلاك من خلال وصفهم به[1]، على نحو قوله ﷺ لمعاوية - رضي الله عنه -: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم - أو كدت تفسدهم -»[2]. قال في فتح الودود: أي إذا بحثت عن معايبهم وجاهرتهم بذلك فإنه يؤدي إلى قلة حيائهم منك، فيجترئون على ارتكاب أمثالها مجاهرة[3]، ربما كان سبباً في إعطاء بعض من لديه ميل للشر جرأة على المنكر؛ ولذا حرم الله - سبحانه - الحديث في من وقع في الزنا، إلا من قامت عنده البينة (أربعة شهود بشروط)؛ لما في الخوض في ذلك من إشاعة الفاحشة[4] قال الله - تعالى -: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٥ - ١٩]، وهذا عند ذكر الحالات الفردية؛ فكيف إذا كان وصفاً عاماً؟ إنه حينئذ يتيح فرصة لمن كان يقلقه فعله المعصية أن يهدِّئ روعه؛ فهو - كما يتصور من التعميم - يرى المجتمع على مثل حاله!! وقد قال عثمان - رضي الله عنه -: ودَّت الفاجرة (أي الزانية) لو أن أهل المدينة كلهم زنوا.

وفي المقابل فإن بعض النفوس لا تتحمل الوقوف أمام الخطر وحدها؛ وتشعر - في الوقت نفسه - أنها المكلفة بإزالته أو تغييره ولا يمكنها ذلك، فتصادق اليأس وتلوذ بالسلبية.

لقد كان أحد أسباب وقوع الناس في المعصية وغلبة الغفلة عليهم عدم الإحساس بالمسؤولية، وضعف الشعور بالانتماء للإسلام من خلال الفهم المخطئ للانتماء للإسلام: أنه لا يكون إلا بالاتباع المحض، والتدين الصادق، فصاروا ينظرون لأنفسهم نظرة تقويم سلبية تدفعهم لـ (اللامبالاة) بالأحكام الشرعية؛ باعتبار وقوعهم في المعصية وخروجهم عن الإسلام الصحيح - مع احتفاظهم بالاسم - وحين تذكر

(١) انظر تفصيل معنى (قول الرجل: هلك الناس) في شرح النووي على مسلم: (١٦/١٧٥) فهو مهم، على أن النووي - رحمه الله - نقل عن الحميدي أن رواية الرفع أشهر. والله أعلم.

(٢) رواه أبو داود، ح/٤٢٤٤.

(٣) عون المعبود: (١٣/٢٣٣)، (أو كدت إلخ) شك من الراوي.

(٤) انظر مجموع الفتاوى: (١٥/٣٣٣ - ٣٣٥)، (١٤/٢٠٩، ٢١٠).

لبعضهم الجوانب المشرقة في نفسه، والمواقف الإسلامية التي تُحفَظ له، ومشاعره الصادقة تجاه الدين وأهله: حينذاك تشرق نفسه وينفتح لها أفق جديد قد لا يتغير في ظاهره شيء ولكن حسبنا أن وثَّقنا الإسلام في قلبه؛ فهو خير لنا من أن ننخدع بظاهرٍ باطنه خواء، أو نخسر مسلماً فهم الانتماء للإسلام خطأ!

إنه مع وجود مظاهر الخلل والانحراف الواقعة في مجتمعات المسلمين اليوم فإن جوهر الإسلام - ولله الحمد - باق ما يزال نابضاً في الحياة الاجتماعية الإسلامية إلى حد كبير؛ فجذوة العقيدة حية في النفوس علاها الرماد بتأثير المعاصي والمنكرات والبدع والخلط في بعض المفاهيم كـ (العبادة، والإسلام)، والانصراف عن القوة في أخذ الدين والجدية في التربية، ولكنها حية تنتظر من ينفخ عنها الرماد لتشتعل من جديد، وبخاصة عندما تهدد الإسلام قوى خارجية أو داخلية، وبتعبير أدق: عندما ينجح الدعاة في إشعار جماهير المسلمين بوجود الخطر على الإسلام[1]، وأن كل فرد منهم عليه أن يساهم في رد هذا الخطر؛ فجوهر الإسلام باق ما يزال نابضاً في نفوسهم وكثير من أنماط حياتهم.

ولعلي لا أعد عدم التفات من لم يلتفت من الدعاة إلى هذا الملحظ (إبراز الجانب المشرق) أو عدم توفيته ما يناسبه من اهتمام لا أعده مشكلة حينما تكون القناعة به راسخة في الأذهان؛ فهو على غرار جملة من المبادئ والمسائل والاهتمامات في طريقها للتنفيذ، تختفي لبعض الوقت لتخلف القدرة عليها تارة، وتقدير عدم ملاءمة الزمان والمكان تارة أخرى!

إنما غاية الإشكال والحرج في عدم قناعة بعض الدعاة بوجود جانب مشرق - فضلاً عن جوانب - في المجتمع، وإنما الواقع - في نظره - أكوام من المنكرات تتكدس شيئاً فشيئاً؛ فتستحيل براكين يترقب ثوراتها في أي لحظة، ومثل صاحب هذا الرأي بحاجة إلى أن يقف على نتائج دراسات صادقة، وبشائر لا تخلو منها المجتمعات الإسلامية - بحمد الله - وتقديم الدلائل على أن بعض الأمور قد تكون في ظاهرها شراً - أو يغلب عليها الشر - لكن فيها مصلحة خفية لا تلبث أن تربو وتنمو، فتزهر خيراً كثيراً، وتثمر فجراً جديداً.

وحينما يؤكد على ضرورة إظهار الجانب المشرق للمجتمع ينبغي لنا مراعاة أمور منها:

١ - أن ما تقدم لا يفهم منه المناداة بترك جانب التحذير بالكلية، وإغفال إيضاح أبعاد الشر، وتقدير تبعاته لو استمر الحال؛ فهذا

(١) انظر: الغارة على التراث الإسلامي: (١٠، ١٠٨) وواقعنا المعاصر (١٣٨).

الفهم انتقال من طرف إلى طرف، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

٢ - إن إظهار الجانب الإيجابي ينبغي ألاَّ يكون مديحاً صرفاً يكال بالمكيال، وإنما يوظف لنفض ما قد علق ببعض النفوس من اليأس والانهزامية، وأن يكون منضبطاً متزن الطرح؛ فإنه قد يترتب على التوسع فيه ركون الناس إلى هذا المديح والإخلاد إليه، فيعمل فيهم عمل المسكر: نشوة ولا عمل!

٣ - أن حاجة الناس إلى البرامج العملية التي تصحح واقعهم في أنفسهم ومجتمعهم لا تقل عن حاجتهم لتقويم الواقع وتصحيحه، وإبراز مواطن الشر فيه، وتحديد نقاط الضعف التي تتخلله، ومداخل العدو إليه، كما لا تقل عن حاجتهم إلى زرع الثقة فيهم، وإقناعهم بطاقاتهم ومواهبهم وتوظيفها توظيفاً شرعياً.

وهم - بحاجة كذلك - إلى قيادات تقدم لهم تلك البرامج العملية، وتتقدمهم فيها، وتشاركهم تنفيذها.

٥ - تتعرض المفاهيم - لأكثر من سبب - إلى عوامل تعرية (أو تغطية) مما يستوجب مداومة مراجعتها مع الناس، وعقد المقارنات مع معان أخر مظنة وقوع الخلط بينها، وتأصيلها تأصيلاً شرعياً، وتنبيه الناس إلى دقائق من شأنها لفت انتباههم إلى ما هو أبعد منها وأعمق؛ فإن من الخطر لبس الحق بالباطل، وتصور الأشياء على غير وجهها. قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «المرء ما لم يحط علماً بحقائق الأشياء التي يحتاج إليها يبقى في قلبه حسكة»[١].

٦ - وحين لا نرغب في ذكر جوانب كلية مشرقة في حياة عامة الناس - أو نجهلها - فهل نملك أن نقدم لهم نماذج مفردة من واقعهم في التغيير؟! نحو:

- أخبار التائبين من المسلمين والكفار، على أن تكون تلك الأخبار والقصص جامعة بين تنوعها في طبقات الناس وتخصصاتهم ومستوياتهم الاجتماعية، وبين بعدها عن المثالية في السرد والصياغة!

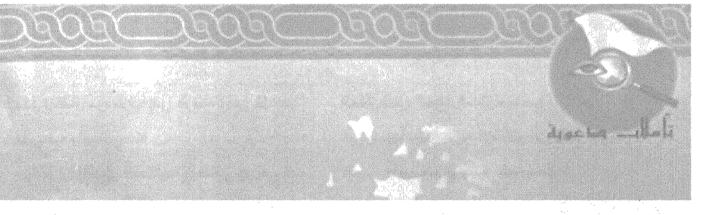
- أخبار من تفوَّق بعد إخفاق، أو شارك في الإصلاح بعد انطواء وعزلة، أو كان ثمرة تربية عالم أو مربٍّ، أو نشأ في بيئة غير ملائمة واستدرك زمانه واغتنم ما بقي من عمره؛ فقد أعاقتنا جُمَل مثل: «كان نابغاً في صغره» «ظهرت علامات النجابة فيه منذ نعومة أظفاره» «حفظ القرآن ولم يناهز الحلم» «مات ولم يخلف بعده مثله» «نشأ في بيت علم وصلاح».

- أخبار المشاركين في مسيرة الإصلاح ولو بالقليل فكان له أثر ملموس.

والله ولي التوفيق.

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/٣٦٨).





الاعتدال في الحماس للفكرة

محمد بن عبد الله الدويش

من جوانب القصور لدى البشر الغلوُّ والإفراط، وفقدان التوازن في التعامل مع الأفكار. ومن مظاهر فقدان التوازن: الغلو في الحماس للفكرة.

فقد يتكوَّن لدى المرء اقتناع بفكرةٍ مَّا، أو حماسة لمشروع دعوي أو علمي، أو رؤية في تفسير ظاهرة من الظواهر؛ فيغلو في الحماس لهذه الفكرة. ومن مظاهر هذا الغلو:

● تضخيم الفكرة وإعطاؤها أهمية أكبر من حجمها، سواء في الحكم على مدى انتشار ظاهرة من الظواهر في المجتمع، أو في التفاؤل بنجاح مشروع من المشروعات، أو في أهمية الإقدام عليه وخطورة إهماله، أو في صلة هذه الفكرة بتفسير ظاهرة من الظواهر.

● توسيع دائرة الفكرة، والتكلف في ربط أمور كثيرة ربطاً متكلَّفاً بها، مع أنه لا علاقة لذلك كله بهذه الفكرة من قريب ولا من بعيد.

● الاستهانة بغيرها، ويصل الأمر في أحيان كثيرة إلى احتقار ما يقوم به الآخرون وينشغلون به عن هذه الفكرة الرائدة! ولو كانوا قد قاموا بوظائف شرعية، أو سدوا ثغوراً مهمة مما تحتاجه الأمة؛ فهناك من يحتقر جهد من يدعون غير المسلمين - رغم دخول كثير من الناس في الدين على أيديهم - بحجة سوء واقع المسلمين وأنه أوْلى بالدعوة والاهتمام، وهناك من يحتقر من يعتني بالعلم الشرعي ونشره وتعليمه بحجة أن غيره من الميادين الدعوية أوْلى منه، وهناك من يعكس الصورة، وهناك من يحقر جهود البناء بحجة أن الأولوية في الاحتساب على المنكرات ... وهكذا.

● الغفلة عن سلبيات هذه الفكرة ومشكلاتها؛ فكثير من الأفكار والمشروعات قد لا تخلو من جوانب

سلبية ومن مشكلات وعقبات، إلا أن الغلو في الحماس لها يؤدي بصاحبها إلى أن يغفل عن سلبياتها ومشكلاتها، وكما قيل: حبُّك الشيءَ يعمي ويصم.

● إشغال طائفة ممن لا يعنيهم الأمر بهذه الفكرة؛ فالناس طاقات ومواهب، وقدرات وإمكانات، وما يعني الخاصة قد لا يعني العامة، وما يفقهه الدعاة وطلبة العلم قد لا يفقهه غيرهم، فليس من المقبول أن نسعى إلى حشد طاقات الناس ـ على اختلاف مشاربهم وقدراتهم ـ للحماس لفكرة معينة والتفاعل معها.

إن الغلوَّ صفة مرذولة مذمومة، تأباها الطباع المستقيمة، وتمجها العقول السليمة؛ فكيف والشرع قد ذمَّ الغلو وعاب أهله بغضِّ النظر عن موضوع الغلو ومجاله؛ فالغلو في تعظيم من يستحق التعظيم والتوقير قد يوصل إلى الشرك، بل كثير من صور الشرك هي نتيجة للغلو في هذا الباب.

والغلو في التعبد ـ ولو كان فيما هو مشروع بأصله ـ يقود إلى رهبانية تخالف منهج النبي ﷺ وسنته، فكيف بالأفكار والآراء التي تحتمل الخطأ والصواب؟

وكما أن غلو الشخص في العبادة يشغله عن الواجبات الشرعية الأخرى كما قال ﷺ: «يا عثمان! أرغبت عن سنتي؟! فإني أنام وأصلي وأصوم وأفطر وأنكح النساء؛ فاتق الله يا عثمان! فإن لأهلك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً؛ فصم وأفطر، وصلِّ ونم»[1].

فكما أن هذا الغلو يشغل صاحبه عن حقوق أخرى، فغلو المرء في الحماس لفكرة يشغله عن غيرها.

وفي المقابل فحين لا تروق لنا فكرة فينبغي أن نعتدل في ردها ورفضها؛ فالغلو يولد الغلو.

(١) رواه أبو داود، ح/ ١١٦٢.



قراءة سياسية لنصوص بيعة العقبة

عبد الحكيم الصادق

لا ريب أنه بعد رجوعه ﷺ من الجولة السياسية لمدينة الطائف، ورحلته الربانية إلى بيت المقدس وسدرة المنتهى، ولقائه مع ممثلي الأمم من النبيين والمرسلين ـ عليهم السلام ـ قام ﷺ بعد ذلك بتعديل منهج التغـيير؛ حيث اعتمد العمل من خلال مؤسسات المجتمع الجاهلي وأعمدته المتمثلة في القبيلة وأركانها؛ فقد قام ﷺ باتصالات مكثفة بتلك المؤسسات، كقبيلة عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبني نصر، وبني البكاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة[1].

كل ذلك محاولة منه ﷺ أن يقبلوا الإسلام، أو يؤووه ويمنعوه حتى يُبلِّغ دعوة الإسلام، ويُقيم دولة القرآن على أنقاض دول الكفر والعصيان، وفي تلك التحركات السياسية قَدِم بعض قيادات الأوس والخزرج إلى مكة سعياً لعقد تحالفات سياسية مع قريش رجاء أن تؤمن عليهم حياتهم الداخلية التي كانت تهددها النزاعات الشديدة بين الأوس والخزرج، وتدفع عنهم المخاطر الخارجية المتمثلة في تهديدات قبائل يهود، وذلك ما كان من زيارة سويد بن الصامت الذي ارتاد مكة يبحث عن تحالف، وكذلك أبو الحيسر أنس بن رافع، وإياس بن معاذ كانا في وفد لذلك الغرض، وأسعد بن زرارة، وذكوان بن عبد قيس الزرقي ذهبا إلى مكة للغرض نفسه كذلك!

وقد تم بالفعل اللقاء بشخص الرسول القائد ﷺ، وكانت هذه اللقاءات الاستراتيجية تدور في فلك إمكانيات قيام دولة الإسلام، والتمكين لها على أرض يثرب حسب ما هو متاح من الحيز المكاني، والقطاع البشري المؤمن، وحجم العناصر التأمينية الأساسية، كعنصر القوة العسكرية، والاقتصادية، والأمنية.

الأبعاد السياسية لنصوص بيعة العقبة:

لا يخفى أن الإنسان مدني بالطبع؛ فهو مفطور على الاجتماع ببني جلدته، تَحْدُوه بذلك دوافع الحصول على الكساء والغذاء والدفاع عن نفسه ضد الحيوان[2]. والإنسان خاضع لضرورة ثانية هي إقامة الجماعة السياسية لضبط جدلية النظام والحركة؛ فالسلطة السياسية ظاهرة اجتماعية في المقام الأول، ولا يمكن تصور وجودها خارج الجماعة، كما أنه لا قيام للجماعة دون نظام سياسي. ذلك أن هنالك قطبين يتقاسمان الوجود الإنساني،

---

(١) راجع طبقات ابن سعد، ١/ ٢١٨ [illegible].

(٢) انظر: المقدمة، لعبد الرحمن بن خلدون، الطبعة السادسة، دار القلم، بيروت، عام ١٤٠٦هـ، ٤١.

هما: قطب التعاون ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، ثم قطب الصراع ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ومن ثم فإذا ما تصورنا هذا الوجود كائناً حياً، كان لا بد له من ناظم يضبط ويكبح الغرائز الفردية الجامحة، وينمي بالمقابل الإحساس بالتضامن الاجتماعي!

وهذا ما عبر عنه الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بقوله: «لا بد للناس من إمارة بارَّة كانت أم فاجرة، فقيل: يا أمير المؤمنين! هذه البارَّة قد عرفناها؛ فما بال الفاجرة؟ فقال: تقام بها الحدود، وتأمن بها السبل، ويجاهد بها العدو، ويقسم بها الفيء»[(١)].

فالرسول الكريم ﷺ الرائد كان يرى ضرورة السلطة والتنظيم كضرورة الماء للكائن الحي، بل كان يرى ذلك حتى في أبسط شكل من أشكال الاجتماع السياسي، كخروج ثلاثة نفر في سفر، كما صح عنه ﷺ ذلك، وذلك حين قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»[(٢)]، وفي رواية أحمد قال ﷺ: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة الأرض إلا أمَّروا عليهم أحدهم»[(٣)].

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في فهم هذه الأحاديث أنه ﷺ قد: «أوجب تأمير الواحد في الاجتماع العارض في السفر منبهاً في ذلك على سائر أنواع الاجتماع»[(٤)].

ويقول في موضع آخر: «وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع، والتعاون، والتناصر، فالتعاون على جذب منافعهم، والتناصر لدفع مضارهم، ولهذا يقال: الإنسان مدني بالطبع، فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد والناهي عن تلك المفاسد، فجميع بني آدم لا بد لهم من طاعة آمر وناه...»[(٥)].

لقد كان الرسول ﷺ مدركاً تمام الإدراك للدور الذي تلعبه السلطة في عملية النهوض التاريخي، والتغيير الحضاري الضخم، ولكنه لم يدرك ذلك مقولة ذهنية فحسب، بل مارس تلك الحقيقة ممارسة الواعي بخطه الاستراتيجي، المدرك لتقلبات النظم السياسية، الراصد للتحولات العرفية والإنسانية، العارف بالضرورة الإنسانية والحاجة الفطرية لذلك؛ حيث إنه كان حريصاً على إقامة السلطة السياسية، وبناء الدولة الإسلامية قبل هجرته للمدينة، وذلك أثناء بيعات العقبة الثلاث التي ركزت على تأسيس مقومات الدولة، وقيام أركان الاجتماع السياسي بصورة لم يسبق لها مثيل ولا نظير في تاريخ التحول البشري، والاجتماع السياسي.

أولاً: البعد الديني في بيعة العقبة:

يتضح مما مضى أن الدولة الإسلامية قائمة على عقيدة، وفكر، وتصور، وأنه بقدر وضوح هذه القضايا في أذهان أفراد المجندين لصفوف الدولة، وانتشارهم أفقياً ورأسياً مشكلين بذلك قاعدة عريضة تحمل هذه العقيدة والفكر والتصور

---

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية، دار الآفاق الجديدة، ببيروت، عام ١٩٨٣م، ٣٥.

(٢) موسوعة السنة، سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب (في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم)، المجلد التاسع: ٣/٨١.

(٣) موسوعة السنة، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٢/١٨٦، ٢١٤، وكذلك الترمذي، في كتاب الجهاد، ح/ ١٦٧٤.

(٤) انظر: الحسبة في الإسلام، لابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، عام ١٤٠٠هـ: ٥.

(٥) المرجع السابق، ٢ ـ ٣.

الصحيح، أقول: بقدر هذا الوضوح والانتشار يكون التمكين للدولة، وبسط التأمين الشامل لأفكارها، وقياداتها، وبرامجها الآتية والبعيدة، كما يفهم ذلك من قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

ولأهمية هذا البعد الديني جاء ذكره في صدارة بنود مشروع قيام الدولة الإسلامية؛ حيث قال الرسول القائد ﷺ: «أما الذي أسألكم لربي: أن تؤمنوا به، ولا تشركوا به شيئاً»(١). وذلك ضرورة لتحقيق الإيمان بالله ومقتضيات ذلك الإيمان، واجتناب نواقضه الاعتقادية، والقولية، والعلمية، لكون ذلك شرط صحة في المشروع الإسلامي على مستوى الفرد والجماعة في مرحلتي الدعوة والتأسيس، والدولة والتمكين... يعبدونني لا يشركون بي شيئاً.

ثانياً: البعد السياسي:

لا يخفى أن البيعة الأولى كانت تدور في فلك ضرورة الإيمان بهذه الدعوة الجديدة وحمايتها ونشرها بين أوساط قبائل الأوس والخزرج تمحيصاً لتحقيق أبعاد المشروع السياسي، وذلك بإقامة دولة الإسلام بأركانها الاعتبارية (دار ـ وأنصار ـ وسلطان).

وهذا البعد السياسي فيما يبدو كان واضحاً في أذهان الرهط الخزرجي، وبرهان ذلك حين أشار الرهط الخزرجي على الرسول الكريم ﷺ أن يتريث في القدوم عليهم إلى أن يتمكنوا من ترتيب الأوضاع في بلادهم من الناحية السياسية والأمنية وغير ذلك مما هو لازم لذلك التحول التاريخي.

ثم أرسل الرسول القائد ﷺ بعد هذه البيعة مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ لتحقيق هذه المقدمات الضرورية لقيام الدولة الإسلامية، فانطلق مصعب بن عمير ومن أحاط به من رجال الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ يقصدون كسب سادة المدينة إلى الإسلام، فأسلم حينئذ عدد من زعماء المدينة، منهم أسيد بن الحضير، وسعد بن معاذ.

وحين أصبح عدد الزعماء الذين أسلموا من أهل المدينة كافياً لتقديم النصرة إلى الدعوة بمعنى تسليم السلطة السياسية إلى الرسول القائد ﷺ هنالك عقد الأنصار في المدينة مقر الدولة الإسلامية الجديد مؤتمراً فيما بينهم قرروا فيه إعطاء النصرة للرسول ﷺ لكي يتسلم مقاليد الحكم والسلطان في المدينة، وعلى إثر هذا المؤتمر قدم وفد من هؤلاء الأنصار والزعماء يتألف من ثلاثة وسبعين رجلاً، وامرأتين ـ وذلك في موسم الحج ـ وتم عقد بيعة العقبة الثانية التي أعطي فيها زمام الحكم والدعوة لصاحبها رسول الله ﷺ؛ وذلك في الموعد نفسه الذي ضربه رسول الله للاجتماع بهم.

فقد ورد نص هذا المؤتمر الذي انعقد في المدينة على لسان جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ حين قال: «فائتمرنا، واجتمعنا سبعين رجلاً منا، فقلنا: حتى متى رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة، ويخاف؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه، قال: تبايعوني قلنا: نبايعك.. الحديث»(٢).

وهذا يعني: أن هذا الاجتماع مع الرسول القائد ﷺ في هذا الوقت إنما كان فقط ـ من أجل البيعة

---

(١) رواه أحمد، ح/ ١٦٤٦١.

(٢) المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي: ٢/٦٢٥.

والتواثق على شيء قد تقررت الموافقة عليه من قبل هذا اللقاء؛ وذلك بإعطاء النصرة للنبي ﷺ بالمفهوم السياسي.

يدل على ذلك عدة أمور تفهم من حديث كعب بن مالك - رضي الله عنه - بشأن هذه البيعة وهي: أن العباس بن عبد المطلب - وكان أول من تكلم في الاجتماع - بادر الأنصار قائلاً: «إن محمداً قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم»[1].

إذن، فالأمر مبتوت فيه، وليس هذا الاجتماع من أجل الدخول في مباحثات حوله من أجل تقريره أو لا، وإنما كان الاجتماع من جهة الرسول القائد ﷺ للتثبت من تسلم زمام السلطة وأن يسمعوا له ويطيعوا على كل أحوالهم «أبايعكم على السمع والطاعة في النشاط والكسل»[2]!! «وأما الذي أسألكم لنفسي أن تطيعوني أهدكم سبيل الرشاد»[3].

هذا من جانب النبي ﷺ، أما من جهة الأنصار فقد كان التأكيد على قبولهم للدعوة والدولة الإسلامية، وأنهم على أتم الاستعداد للتضحية من أجل سلامة هذا المشروع، وتحقيقه على أرض الواقع، وتأمين أهدافه في مختلف مراحل التمكين والتأمين، «لن نقيل ولا نستقيل»!!

ثالثاً: البعد العسكري:

لا ريب أنه لا يستقيم أمر عقيدة، وفكر سياسي، وكيان دولة تتجلى على أرض الواقع؛ إلا بقوة عسكرية تحميها في مراحل تأسيسها وتمكينها؛ فكم من حق ديس بالأقدام لعدم وجود قوة تحميه! وكم من باطل قام وانتفخ ليس بأفكاره وعدالة مبادئه، وإنما للقوة المدججة التي تحميه وتنافح عنه! والواقع خير شاهد على ذلك. قال - تعالى - لنبيه: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ [النساء: ٨٤][4].

جاء في رواية الزهري فيما قاله أسعد بن زرارة - رضي الله عنه - أحد رجالات الأنصار في هذا الاجتماع، قال: «يا رسول الله! إن لكل دعوة سبيلاً إنْ لينٌ وإنْ شدةٌ!!

وقد دعوتنا اليوم إلى دعوة متجهمة للناس، متوعرة عليهم!!

دعوتنا إلى ترك ديننا واتباعك إلى دينك، وتلك مرتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك!

ودعوتنا إلى قطع ما بيننا وبين الناس من الجوار، والأرحام، والقريب والبعيد، وتلك مرتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك!

ودعوتنا ونحن جماعة في عز ومنعة، ولا يطمع فينا أحد أن يرأس علينا رجل من غيرنا، قد أفرده قومه، وأسلمه أعمامه، وتلك رتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك! وكل تلك الرتب مكروهة عند الناس إلا من عزم الله على رشده، والتمس الخير في عواقبها، وقد أجبناك إلى ذلك بألسنتنا، وصدورنا، نبايعك على ذلك، ونبايع الله ربك، يد الله فوق أيدينا، ودماؤنا دون دمك»[5].

ثم قام العباس بن نضلة - رضي الله عنه - أحد فاعليات الأنصار الذين حضروا البيعة، فألقى كلمة

---

(١) الروض الأنف، للسهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي، مطبعة الجمالية، بمصر ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤م: ٢/ ٨٩.

(٢) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ١/ ٦٦.

(٣، ٤) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: ١/ ٣٢٦.

(٥) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: ١/ ٣٢٦.

توضيحية قال فيها: «هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم! قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس»[1].

ثم قام أبو الهيثم بن التيهان ـ رضي الله عنه ـ أحد فاعليات الأنصار الذين حضروا البيعة، فألقى كلمة أكد فيها على أهمية البعد العسكري لهذه البيعة المباركة، فقال لهم: «يا قوم! هذا رسول الله، أشهد أنه لصادق، وأنه اليوم في حرم الله وأمنه، وبين ظهري قومه وعشيرته، فاعلموا أنه إن تخرجوه رمتكم العرب عن قوس واحدة! فإن طابت أنفسكم بالقتال في سبيل الله، وذهاب الأموال، والأولاد فادعوه إلى أرضكم؛ فإنه رسول الله حقاً، وإن خفتم خذلاناً فمن الآن. فقالوا عند ذلك: قبلنا عن الله، وعن رسوله ما أعطيانا، وقد أعطينا من رسول الله الذي سألتنا يا رسول الله»[2].

رابعاً: البعد الأمني:

لا بد للحركة التي تريد إحداث انقلاب استراتيجي سواء أكانت في مرحلة الدعوة والتأسيس، أو طور الدولة والتمكين أن تعتني أيما اعتناء بفن الأمن والتأمين لتحقيق التغيير الجاد الذي يهدف إلى استرداد حاكمية الله على العباد والبلاد، ولا يكون ذلك التغيير الجاد إلا في وسط من ردود فعل حادة أو متوسطة من قِبَل الجاهلية الكنود، فإن لم تكن استراتيجية الحركة قد أعدت العدة لتأمين قياداتها وبرامجها في حالات الانتقال، والاصطلام، والاستلام، يكون الأمر جد خطير.

يقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ وهو بصدد حديثه عن بيعة الحرب، بيعة قيام الدولة الإسلامية، مؤكداً فيها على أهمية البنود الواردة بخصوص الأمن والتأمين للدعوة والدولة في مراحل تأسيسها والتمكين لها: إنما كان ليلة العقبة ما ذكر ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي أن النبي ﷺ قال لمن حضر من الأنصار: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم، وأبناءكم، فبايعوه على ذلك، وعلى أن يرحل إليهم، هو وأصحابه»[3].

وفي رواية أحمد: «وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب، فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا، وأزواجنا، وأبناءنا»[4].

وينبغي ألا يعزب عن بالنا أن طلب الرسول ﷺ من الأنصار في هذه البيعة ـ بيعة الدولة الإسلامية ـ التأمين الشامل والكامل بشقيه الوقائي والإيجابي في إطار (الأنفس، والأزواج، والأولاد، والأصحاب) ما هي إلا سنة من سنن قيام الدولة الإسلامية التي تساعد على انطلاق استراتيجية الدولة نحو الأفق الواسع تأسيساً وتجنيداً، استيعاباً وتمكيناً.

وفي المقابل فإن عدم الإقرار بهذا المبدأ، وعدم الاهتمام به، من وجهة نظر حركية تغييرية، وسياسية انقلابية يعتبر اختزالاً لسنة الرسول الكريم ﷺ، وغايات اعتذارية يلجأ إليها على الغالب الذين جعلوا القرآن عضين: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

خامساً: البعد الاقتصادي:

لا ريب أن الجانب الاقتصادي له أهمية كبرى في مراحل التأسيس وأطوار التكوين وذلك على مستوى الأفراد والجماعات والدولة، لذلك رأى الرسول القائد ﷺ تأمين هذا الجانب وضرورة

(١) الروض الأنف، ٢/١٩١.

(٢) السيرة النبوية، للإمام الذهبي، ٢٠٥.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ١/٦٦.

(٤) انظر موسوعة السنة، مسند أحمد بن حنبل: ٥/٣٢٥.

التنويه عليه ضمن ديباجة البيعة التأسيسية، فقال لهم: «وأما الذي أسألكم لي ولأصحابي: أن تواسونا في ذات أيديكم، وأن تبايعوني على النفقة في العسر واليسر - فمددنا أيدينا فبايعناه»(١).

ويمكن لنا أن نفهم أن بنود البيعة كانت بمثابة لبنات تأسيسية لمؤسسات وزارية في إطار الدولة فيما بعد؛ وذلك لتلبي حاجات الدولة الداخلية والخارجية، وتأمين حياة الفرد في إطار ذلك، وذلك على كافة المستويات، فمثلاً قوله ﷺ: «تبايعوني: على السمع والطاعة، في النشاط والكسل»(٢) يعتبر ذلك بمثابة جهاز أمن يلبي حاجات الدولة والفرد ضمن منظومة أمنية بعنصريها الوقائي والإيجابي، وقوله ﷺ: «وعلى النفقة في العسر واليسر» بمثابة وزارة الاقتصاد التي تحقق التكافل الاجتماعي، والتضامن والتعاون الاقتصادي في إطار استراتيجية الدولة الداخلية والخارجية، وقوله ﷺ: «وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» بمثابة وزارة الحسبة؛ حيث إنها تحقق المحافظة على مبادئ المشروع الرباني من أن تشوبه الشوائب، وقوله ﷺ: «وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم» بمثابة وزارة الدفاع؛ حيث تحقيق الأمن والاستقرار للدولة ولمبادئها وقيادتها من أي اعتداء خارجي، وقوله ﷺ: «وعلى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم» بمثابة وزارة الداخلية؛ حيث تحقيق الأمن الشامل لقيادات المشروع الرباني، ولأهلهم «وعلى أن تقولوا في الله، لا تأخذنكم لومة لائم» بمثابة وزارة الخارجية؛ حيث نشر الدعوة خارج الحدود، وطرح قضاياها المصيرية في التجمعات السياسية والاجتماعية بدون خوف ولا وجل وأن تقولوا في الله، لا تأخذكم لومة لائم».

ومن هنا يمكن لنا القول بأن التكافل الاجتماعي، والتضامن الاقتصادي الذي طبقه رسول الله ﷺ عند دخوله واستقراره في مقر دولته الجديدة (المدينة المنورة) يعتبر تطبيقاً لهذا البعد الاقتصادي الذي تم الاتفاق عليه بين الرسول القائد ﷺ والأنصار - رضوان الله عليهم - الذين آثروا إخوانهم المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً. آثروهم بالأموال والأنفس في صورة لم يعرفها تاريخ البشرية من قبل، فقد صوَّر لنا المولى - عز وجل - ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

[الحشر: ٩].

ولا يخفى أن هذا البعد الاقتصادي كان يدور في فلك تحقيق معالم التكافل الاجتماعي، والتضامن الاقتصادي، والاستقرار السياسي، وذلك من خلال الحفاظ على ثوابت المشروع الرباني، وقيمه العليا، والوقاية من مذلة حاجة المأكل والملبس والمسكن بالنسبة لعناصر الدولة وقياداتها، والتمكين للمهاجرين الذين تركوا أموالهم وديارهم من تحسين وضعهم الاقتصادي، واعتبارهم السياسي، ومكانتهم الاجتماعية في إطار المجتمع الإسلامي الجديد.

دواعي ودوافع ضمن الاجتماع المنعقد في العقبة الثانية:

لقد لوحظ في سرد الروايات التي تناولت وقائع البيعة لتأسيس الدولة الإسلامية عدة نقاط تحدد دوافع قبول أهل المدينة توصيات تلك القمة الكبرى، وتوقيعهم على بنودها بكامل السعادة والاطمئنان

(١) أحمد، ح/١٦٤٦١.

(٢) أحمد، ح/ ١٣٩٣٤.

«لن نقيل، ولن نستقيل» وهذه الدوافع، وتلك الدواعي جديرة بالتأمل، والتحليل، والاعتناء بها في مراحل الدعوة والتأسيس، والدولة والتمكين في حالتي الاستضعاف والاستخلاف، وهي كما يلي:

الدافع الأول: ديني:

لا يخفى أن أهل يثرب كانوا على وعي ديني متقدم عن بقية القبائل الأخرى، لذلك رأوا أن الإسلام يشبع رغبتهم الدينية، وفطرتهم البشرية، فأسعد بن زرارة، وأبو الهيثم بن التيهان كانا ممن يتكلم بالتوحيد بيثرب، حتى إن ذكوان بن عبد قيس الزرقي عندما استمع إلى الرسول ﷺ في مكة يوم ذهب ومعه أسعد بن زرارة إلى هناك، فقال لأسعد: «دونك! هذا دينك».

الدافع الثاني: سياسي:

لا شك أن هناك دافعاً سياسياً كان وراء تلك البيعة، وقد عبر هذا الدافع عن نفسه بأشكال متعددة، بعضها منطلق من حالة القلق التي سادت الأوس والخزرج بعد يوم بعاث وسعيهم إلى عقد تحالفات سياسية تؤمن لهم المستقبل.

وبعضها منطلق من الملل من الأوضاع السياسيّة في يثرب التي اتسمت بحروب قبلية متصلة بين الأوس والخزرج جعلت العلاقات الاجتماعية قلقة مضطربة والخوف من المستقبل حالة قائمة، ومن ثم دفعت أهل يثرب إلى البحث عن حل يوحدهم حتى وإن كان هذا الحل خارجياً؛ فقد عبروا عن ذلك بقولهم لرسول الله ﷺ: «عسى الله أن يجمعهم عليك فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك فلا أحد أعز منك».

الدافع الثالث: عسكري:

وذلك كان منطلقاً من الخوف من استعادة اليهود سيطرتهم على يثرب لا سيما أنهم كانوا يهددون أهلها من العرب بأن نبياً سيظهر وأن اليهود سيتبعونه ويقتلون به العرب، كما جاء ذلك على لسان الأنصار يوم البيعة؛ حيث قالوا: «يا رسول الله! بيننا وبين الرجال - يعني اليهود - حبال، وإنَّا قاطعوها؛ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟»

الدافع الرابع: اجتماعي:

مما لا شك فيه أن هناك دافعاً اجتماعياً كان ضمن الدوافع التي عجلت بالتوقيع على بنود البيعة؛ إذ يوحي هذا الدافع بوجود خلل اجتماعي يعاني منه أهل يثرب؛ ففي حديث ابن إسحاق عن بيعة العقبة الأولى أن الرسول ﷺ بايعهم بيعة النساء: «على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف».

وفي تقديرنا أن الوعي الديني المتقدم، والقلق السياسي، والخوف من السيطرة اليهودية، والضجر من الحياة الاجتماعية، والمستوى الثقافي المتقدم، كل ذلك عمَّق الاتجاه نحو الإسلام، خاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الإسلام قدم لأهل يثرب الوحدة؛ لأنه قدم لهم العقيدة، وخلق لديهم روح التعاون والتكافل والتضامن التي جعلت الأوسي والخزرجي يتجاوز نفسه، ويتجاوز قبيلته إلى سعة الإيمان وأخوة الدين، فكان طبيعياً إذن أن يلتقيا في وحدة أصبحت أسسها أقوى من تحزيب اليهود الذين تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

ولا ريب أن الإسلام قد قدم لهم بعد ذلك السيادة سيادة العقيدة والفكر، وسيادة السلطة، وسيادة الذات؛ حيث وحَّدهم وحررهم من السيطرة اليهودية التي كانوا أسيري خوف منها سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ثم بعد ذلك قدم لهم أيضاً حلاً أخلاقياً للعلاقات الاجتماعية، والروابط الأسرية: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨].

نتائج وتوصيات بيعة العقبة الكبرى:

لقد أسفرت البيعة الأولى عن عدة نتائج وتوصيات استراتيجية في إطار تأسيس الدولة الإسلامية، والانتقال من مرحلة الدعوة والتأسيس إلى مرحلة الدولة والتمكين، وفحوى هذه التوصيات ما يلي:

أولاً: ضرورة تشكيل الجماعة الدينية الاجتماعية - الأعوان، والأنصار - وذلك على هيئة منظومة موحدة لتنفيذ مشروع الدولة الإسلامية: «قد جعل الله لكم إخواناً»(١).

ثانياً: ترسيم الأرض وتحديد حدود الدار الإسلامية التي تقوم عليها الرعية وهي آمنة على نفسها، وفي مالها، وعلى عرضها: «قد جعل الله لكم داراً تأمنون بها»(٢).

ثالثاً: تعين السلطة الدستورية، والقوامة الشرعية: «ولا يطمع فينا أحد أن يرأس علينا رجل من غيرنا، قد أفرده قومه، وأسلمه أعمامه، وتلك رتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك»(٣).

رابعاً: تقرير قاعدة السمع والطاعة لهذه السلطة الدستورية، والقوامة الشرعية، والقوانين الربانية في المنشط والمكره، في العسر واليسر: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر»(٤).

خامساً: تحديد الشوكة الشرعية: وتقرير أهدافها الاستراتيجية وفق دستورية الدولة الإسلامية الجديدة: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم! والذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك مما نمنع منه أزرنا، فبايعْنا يا رسول الله؛ فنحن والله، أهل الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر نبايعك على ذلك»(٥).

وبهذه التوصيات، وتلك الأهداف تم تكوين الرعية المؤمنة، وترسيم الأرضية، وتحديد معالم الدار سياسياً، وتعيين السلطة الدستورية والقوامة الشرعية، وتقرير قاعدة السمع والطاعة لهذه السلطة الدستورية، وتحديد الشوكة الشرعية. وبتلك التوصيات الانتقالية تكون الدولة الإسلامية قد خرجت من طور الدعوة والتأسيس إلى مرحلة الدولة والتمكين، ومن مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة الاستخلاف.

وفي مقال تالٍ - بإذن الله - سوف نتناول تفاصيل تلك المرحلة الاستراتيجية الهامة في الفكر السياسي الإسلامي، مرحلة وضع الدستور، وكيفية التعامل مع الأقلية والأكثرية من خلال بنود الصحيفة الدستورية.

---

(١) الروض الأنف، للسهيلي، ٢/٢١١.

(٢) المرجع السابق، ٢/٢١١.

(٣) كنز العمال، ١/٣٢٦.

(٤) سنن البيهقي، للإمام البيهقي، ٩/٩.

(٥) الروض الأنف، ٢/١٨٩، ومجمع الزوائد، ٦/٤٢، ٤٤.

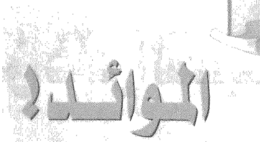




عبد السلام كامل عبد السلام

ذريني يا بنات الشعر هجرا ... ولا تُبقي لودّي اليوم ذخرا
ذريني؛ فالليالي صرن يأساً ... ولم نلمح مدى الآفاق فجرا
ولا شهماً نناديه فيأتي ... ولا قلباً فتيَّ النبض حُرّا
إلامَ الأمر يبقى دون بثٍّ ... ولا من بارق ينهلّ قطرا
أما ذي الصرب جاست في ثرانا ... وصبَّت حقدها الموّار مورْا
أما هذي نساءٌ مسلمات ... مؤرّقة وما لاقين يُسرا
أما سيقت شيوخ للمنايا ... وما رُحمت دموع القهر تترى
أما الأطفال قد سلبوا كراها ... وقد فقدوا ابتسام العمر قسرا
أما الصرخات تجتاز القواصي ... ولكن إنّ في الآذان وقرا
أما الآهات شقت كل فجّ ... ولكن عاد رجع الصوت صفرا
أما جرّوا إلى التقتيل قوماً ... جريرتهم نداء الله جهْرا
متى يا قوم نستلّ المنايا ... متى نعطي دم الشهداء مَهرا
متى كالسيل يعلو كل هامٍ ... ظلوم لا يرى في الدين خيرا
أكوسوفاه! أين خيول ربي ... تجدّد فيك كوسوفاهُ بدرا
وأين شبابنا المقدام يمضي ... ليُجري من دم الأعداء نهْرا
وأين صوارمٌ لله غضبى ... تذيق الصربَ في الغَمَرات بكرا
وأين بنو صلاح الدين ذابوا ... وهم قبلاً أحالوا الكفر قطرا
بني ديني! تركنا العزّ لمّا ... تركنا من جهاد الكفر سِفرا
وقلنا: ذاك إرهاب ذميم ... وأصبحنا لقول الغرب أسرى
«أعدّوا» قد نسيناها كأنا ... نسخنا من كتاب الله سطرا
وقلنا إننا للسلم ندعو ... فيا عجباً لفارٍ وَدّ هِرّا
بني الإسلام! مهما يدج ليل ... سينشر بعده الإصباح تبرا





تركي المالكي

١

صاحبٌ.. كان لي
في زمان الصخبْ!
حينها والجميعُ شجاعٌ
ورأس الغواية في المحتطبْ!
كان يركض خلف العواصفِ
يقذفها باللهبْ!
محتمٍ بالدروع الأسامي!
ومن تحتها لمعانُ الذهبْ!
(أتراه ذهبْ)؟!

٢

كان روحاً لروحي!
كان ينهشُ قيدَ الطغاة الذي
نهشتْ نابُهُ معصمي!
كان إيقاعُ نبضي على نبضه نغماً طاهراً
للصديِّ الظمي!
حبرُه من دمي!
والدواةُ جروحي!
يهدِرُ البغيُ من فوقنا..
برعود الغضبْ!
مطراً أسود
ويُسوِّرُ من حولنا هضبات الرمادِ...
وينبحُنا بكلاب الخطبْ!
وترى دمَنا الجمرَ ما بينها يلتهبْ!الالا
برقُهُ.. ركضُ مهرٍ جموحِ!

٣

صاحبٌ.. آه! كانَ..
وفي غفلة من جروحي
بهتت نجمةٌ في السويداء وانسحبتْ..
نحوهمْ
رَمَّدتْ جمرَها تحت أقدامهم!
ثم باعت لهم نفسَها .. ودمي!
والهوى.. وضريحي!
وتعرَّتْ على بابهم..
فتكسَّرَ ما كان من نغم طاهرٍ
رقصتْ فوقهُ..
كالغزالة للفهد..
فابتسمي.. يا جروحي!

٤

أسد كان لكنْ..
هوى لاثماً..
رِجْلَ كلب قبيحٍ!
نابُهُ نهشَتْ قبلُ شِقَّ (الأمينِ)
فكان الشهيدَ
وكان الأمينُ السجين الأمينَ!
فماذا أسمِّي الذي..
خلتُه أسدي.. وفمي.. ونصيحي!
ثم ها هو بين يدي قاتلي
لاعقاً قدمَ البغيِ..
داس على وهجه و (المعالم) منتفشاً
بعقود المديحِ!
واللعابُ يسيلُ على عظمة نالها
فوقها من دمائي السليبةِ..
لحمي.. وقومي.. وروحي!

٥

كان رؤيا تفوح بأطيابها..
ثم ها هو كابوسُ حلم قبيحٍ .. قبيح!
فادفني جثةً سمّمتها حياضُ الذُّبابِ ادفنيها
واغسلي ما بقي من رؤاها
ثُمّتَ التئمي يا جروحي!



يا من غادر السفينة!

صالح علي العمري

كان بالأمس على الشط ينتشل الغرقى؛ فكيف أصبح اليوم بينهم يصارع الأمواج؟!

رضيتَ بالدونِ؟! أم أسلمتَ للنكدِ؟! ... أمْ السراب ابتلى عينيك بالرَّمدِ؟!

أم هل بلغتَ المُنى.. والشمسُ ما وقفت ... والعمرُ متصلٌ والدرب في مددِ؟!

أم هزّك البغيُ، والأيامُ دائرةٌ ... والحق يعلو على الأعداد والعُددِ؟!

لا تحسبنَّ الهوى ينجيك من كبدٍ ... فإنما خلق الإنسان في كبدِ!!

وجنة الخلد تُنسي كلَّ مسغبةٍ ... أنعم بذاك النعيم الناضر الأبدي

هل بات يُلْهيك ما يُلْهيك من مُتعٍ؟! ... فاذكر بربك ما تلقاه بعد غد

أم هل تغشاك قطاع الطريق ضحىً ... وحبلهم - يا أخي في الله - من مسد

أم هل غُررتَ بكُثْر الساقطين هنا ... فالحق لا يُبتغى من كَثْرة العدد

دنيا تربَّتْ على التنغيص فالتصقت ... بطبها.. كالتصاق الروح بالجسد

محبوبة قُوتُها وجدان عاشقها ... أعوذ بالله من نفَّاثة العقد

تزينتْ لاصطياد القوم وابتسمتْ ... والسمُّ في ثغرها فوق اللهاة ندي

يا أنت: أين المنى اللاتي شمختَ بها ... فأعظم الغبن إزهاق المنى بيدي

غشاوة الدرب في عينيك شاهدةٌ ... أن السقام اجتوى جنبيك من أمد

والنفس كالموج تستهوي الرياح به ... والذئب يغريه قاصي البهم بالرصد

والفقر بعد الغنى ذلٌ ومسكنةٌ ... والغيُّ بعد الهُدى عارٌ إلى الأبد

وكلُّ نفسٍ أُهينت بعد عزَّتِها ... فليتها قبلُ لم تُعْزَزْ ولم تسُدِ

قد كان لي فيك آياتٌ وموعظةٌ ... تزفُّ وبل الرضا بَرْداً على كبدي
قد كنت عند حدود الله ذا وجلٍ ... فما لك اليوم لا تلوي على أحد؟!
أين التلاوةُ والعبْرات مسبلةٌ؟! ... أين الأحاديث ذات المتن والسند؟!
أين العلومُ التي أسدتك رونقها؟! ... وذقت ما ذقتهُ من عيشها الرَّغِدِ؟!
ما لي أراك حسير الطرف منهزماً ... وكنت بالأمس ترياقاً لكل صدي!!
ماذا أسَطِّرُ والآياتُ بيِّنةٌ ... وأنت تعلمُ ما يلتاع في خلدي
لكن تناجيك أشجاني، ومعذرتي ... أني محبٌ رماه الحُزْن بالفَنَدِ
إن لم يكن في الفؤاد الحرّ من قبسٍ ... فليس يجديك ما أعددتُ من عُدد..
فخشية الله أطواق النجاة، وما ... يُغْني النفوسَ بهاءُ المال والولد
لمَّا سقطت أمامي.. وانجلى بصري ... عزّيت نفسي وثار الخوف في أودي
واحلولكت كلمات البشر في شفتي ... وأظلم الكون في عيني على عَمَدِ
ومهجتي وترت.. فالنفس بائسةٌ ... كأنها قبل لم تَبْسم ولم تزِدِ..
أأنت من يشتري الدنيا بباقيةٍ ... ويصطفي الزيف والبهتان بالرشد
قد كنتَ بالأمس في درب التقى علماً ... فلا تك اليوم تمثالاً لكل ردي..
عُرى العقيدة جلّت عن مساومةٍ ... ما قيمتي في الملا من غير معتقدي؟!
قد كنت أبقيك للخطب الجليل فمن ... لغيهب الغمِّ والبأساء والكمد؟!
إبليس يغرينِ والأهواء عارمةٌ ... إني أعوذ بوجه الواحد الصمد
يا مالك الملك! يا من عزّ عابده ... كما رفعت زواياها بلا عمد..
ثبت فؤادي وكفّر كل معصيةٍ ... ما لي سوى ملجئي بالواحد الأحد
يا صفو نفسٍ: دروب الشك شائكةٌ ... بلا رَكوبٍ ولا زادٍ ولا مددِ
إن اللآلئ تبقى وهي غاليةٌ ... وإنما تعصف الأمواج بالزبد!!

الطريق إلى القدس

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

قبل عشرين عاما تقريبا وقف ياسر عرفات خطيبا محمر الوجه، منتفخ الأوداج، يستصرخ بأعلى صوته، ويستنجد بالعرب لإنقاذ فلسطين، وينعى الخيانة العظمى للرئيس المصري أنور السادات في (كامب ديفيد)، ويعجب أشد العجب من جرأته في الاستهانة بالشعوب، وكيف أنه وضع يده بأيدي المجرمين الذين عاثوا في الأرض فساداً، وتلوثوا بدماء الأبرياء!

وما هي إلا سنوات قلائل حتى تمخضت تلك الانتفاخة البطولية! عن الحقيقة الكامنة وراء تلك الشعارات الزائفة؛ فها هو ذا الرئيس الفذُّ يدخل إلى منتجعات كامب ديفيد فاتحاً، ويقف جنباً إلى جنب مع أسياد اليهود، ضارباً بقدمه تاريخاً حافلاً لهذه الأمة من الصراع والعداء مع بني صهيون، وناسفاً ثوابت الأمة ومقدساتها، وملقياً وراء ظهره ما تشبثت به الأمة من الحق والعدل، بل وساخراً بعقول الناس الذين صفقوا في يوم من الأيام لشعاراته الوطنية، وتصريحاته الثورية..!

إنَّ المرء حينما يتجرد من وازع الخوف من الله ـ تعالى ـ، والالتجاء إليه، والاعتماد عليه، ويمتلئ قلبه تعظيماً لأعداء الله ـ تعالى ـ وثقة بهم تراه يتخبط في دياجير الهوى، ومستنقعات الخيانة، ويعمى أو يتعامى عن إدراك الوقائع والأحداث، وينظر إليها بعين الذليل الحقير الذي لا يملك صرفاً ولا عدلاً.



إن ثمة حقيقة ناصعة الوضوح؛ وهي أن القدس ليست ملكاً لمنظمة من المنظمات، بل ولا لشعب من الشعوب، حتى يحق لهم أن يساوموا أو يفاوضوا عليها؛ بل هي للمسلمين جميعاً من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، منذ أن تعطرت أرضها الطيبة بمسرى النبي ﷺ، ورَوَّاها الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بدمائهم الطاهرة فاتحين. لا يحق لكائن من كان أن يضع هذه الأرض المباركة أداة لكسب سياسي مزعوم، أو ورقة دعائية يقف بها تحت الأضواء، وأمام عدسات الإعلاميين..!!

إنَّ غدر اليهود وتلاعبهم في الاتفاقات المختلفة حقيقة حدثنا

عنها التاريخ الماضي، وها نحن نشهد في تاريخنا المعاصر طرفاً من ألاعيبهم الباردة، وخياناتهم الجلية الواضحة - حتى مع من حالفوهم ووضعوا أيديهم معهم -، وقد دلنا على ذلك كتاب ربنا في قوله - تعالى -: **﴿ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾** [البقرة: ١٠٠].

والصراع مع اليهود عقيدة قائمة مهما وُقِّع من عهود ومواثيق، ولن ينتهي هذا الصراع إلا حينما: «يقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله»(1)، وما هذا الارتماء المهين على أعتاب اليهود إلا علامة من علامات الخزي والخذلان، وها هو ذا طريق النصر واضح بيِّن في كتاب الله - تعالى - لا يغفل عنه إلا من أعمى الله بصيرته، وطمس على قلبه: **﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾** [الملك: ٢٠ - ٢٢].

وما ضاعت القدس إلا حينما ضيعنا الدين، وهجرنا القرآن العظيم، وسقطنا في مستنقعات الفساد، وقد حدثني أحد أشياخنا الفضلاء عن القدس حديثاً تهتز له النفس ألماً، ويتفطر له القلب أسىً؛ فقد ذهب في صيف عام (١٣٨١هـ) لصلاة الجمعة في المسجد الأقصى، فلما دخل ساحة المسجد وجدها مليئة بالأعشاب الجافة والنباتات الصحراوية - مما يدل على غاية الهجر والإهمال -، وقد خطَّ فيها الناس جادة ضيقة يسيرون فيها للوصول إلى مكان الصلاة؛ فبينما هو كذلك؛ إذا به يرى في ساحة المسجد فتاتين عربيتين متبرجتين تبرجاً مخجلاً، وتسيران في هذه الجادَّة بتمايل وتكسُّر، فقابلهما شيخ كبير النسن، فأشارتا إليه باستهزاء وسخرية، وراحت إحداهما تشير إلى لحيته بتقذر، والأخرى تكاد تسقط من الضحك به والعبث بلحيته، فما كان من الشيخ المغلوب على أمره إلا أن طأطأ رأسه، ولم يقوَ على ردهما، وترك لهما الجادة.

قال صاحبي: فلمَّا دخلت المسجد إذا بي أرى ذلك الشيخ يعتلي المنبر لخطبة الجمعة! وما كنت أظن أن ذلك الشيخ هو الإمام، فأصابني ضيق شديد؛ فهل هذا هو قَدْر أهل العلم؟! وهل تصل مهانتهم إلى هذا الحد؟! وكنت أظن أن إمامنا سيتحدث عن حال تلك الفتاتين، أو عن واقع الأمة المتردي، وعزوف الناس عن الصلاة وطاعة الله - تعالى -، ولكنه تحدث عن أمر آخر بعيد عن ذلك كله. فخرجت من المسجد وأنا أحوقل وأسترجع وأسأل الله - تعالى - اللطف بحالنا..!!

فإذا كنا قد ضيعنا القدس بهجرنا لكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، فلن نستردها إلا إذا عدنا إلى مصادر العزة والتمكين؛ فنحن قوم أعزنا الله بالقرآن، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله.

---

(1) أخرجه مسلم رقم (٢٩٢٢).



احذروني.. أنا من الرؤوس الجهال!

خالد أبو الفتوح
abulfutoh@hotmail.com

عندما تضع شمعة مشتعلة في ضوء ساطع فإنك بمشقة تلحظ أنها مضيئة، ولكنك كلما ابتعدت عن مركز النور واقتربت بها إلى الظل ازداد ضوؤها لمعاناً، فإذا تخطيت إلى منطقة ظلمة ازداد سطوعها، ويتصاعد ضوء الشمعة سطوعاً كلما دخلت بها إلى منطقة أكثر إظلاماً.. ضوء الشمعة هو هو لم يتغير، ولكن تغيرت البيئة المحيطة بها.. أليس كذلك؟

هكذا هُدَى الرسالة، وهكذا المقتبسون من هُدَاها؛ فالرسالة نور ساطع (مبين): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾ [النساء: ١٧٤]، والمؤمنون بها مقتبسون من هذا النور - كل بقدره -: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وهكذا (لمعان) النقاط الضوئية الضئيلة الضعيفة (المقتبسون من الرسالة) عندما يخفت ضوء مركز الإشعاع الساطع (الرسالة نفسها)، فكلما بَعُدَ الإنسان عن مركز النور (علم الرسول ﷺ وهديه) زماناً ومكاناً ازداد ضعف إبصاره لذلك النور، وازداد تبعاً لذلك ظهور الضوء الخافت.

فعن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْرُسُ الإسلامُ كما يدرس وَشْيُ الثوب، حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، ولَيُسرى على كتاب الله - عز وجل - في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية..»[1]، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا..»[2].

وما دام الصادق الأمين ﷺ أخبر بهذا الحديث فهو واقع لا محالة، ولكن بعض الطيبين يظنون أن ذلك الاندراس واتخاذ الرؤوس الجهال يكون قبيل قيام الساعة فقط، ولا شك أن هذا الظن صحيح في حالة الاندراس التام والجهل المطبق، أما في غير هذه الحالة فالاندراس يحدث واتخاذ الرؤوس الجهال يتم، ولكن بتدرج ونسبية[3]، فاندراس وشي الثوب - وهو بِلَى نقش الثوب - الذي ضربه الرسول ﷺ مثلاً لاندراس الإسلام لا يتم فجأة وبدون مقدمات - وإن تسارع في ظروف معينة - كما أن قبض العلماء لا يتم في لحظة واحدة؛ وهذا ما تؤكده رواية أخرى: «ولكن يذهب بالعلماء، كلما ذهب بعالم ذهب بما معه من العلم حتى يبقى من لا يعلم فيَضِلوا ويُضِلوا»[4].

(١) أخرجه ابن ماجه، ك/ الفتن، ب/ ٢٦، والحاكم في مستدركه، ٤/٤٧٣، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ح/ ٨٧.

(٢) أخرج البخاري، ك/ العلم، ب/ ٣٤، ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد بن حنبل.

(٣) انظر كلاماً نفيساً للحافظ ابن حجر - رحمه الله - في فتح الباري: ١٣/ ٣٠٠.

(٤) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، ك/ العلم، ب/ ٤٢، وعبد الرزاق في مصنفه ١١/ ٢٥٤، وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٠١) أن الحديث أخرجه البزار عن عائشة رضي الله عنها، وقال: «فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث، وهو ضعيف، ووثقه عبد الملك بن سعيد بن الليث».

وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ واضح في أن هؤلاء الرؤوس الجهال ليسوا مجرد أدعياء علم، بل إنهم يتصدون لمسائل حيوية ووقائع نازلة في حياة الناس، وإنهم يعملون على تشكيل حركة الناس من منظور الدين، فهم متَّخذون ومسؤولون ومفتون... ثم هم : ضالون مضلون!

وهنا تظهر النسبية؛ فقد يكون هذا (الرأس) عالماً ببعض النصوص الشرعية ولكنه غير محيط بها كلها، وقد يكون حافظاً لها ولكنه غير فقيه في فهم معانيها، وقد يفقه معانيها الجزئية ولكنه غير عالم بمقاصد الشريعة الكلية، وقد يكون عالماً بمقاصدها ولكنه جاهل بأحوال الناس [1]، وقد يكون عالماً بأحوال الناس ولكنه لا يملك الأهلية لتنزيل الحكم على مناطه الصحيح، وقد يكون ماهراً في باب من أبواب العلم خاملاً في أبواب أخرى، وقد تُعكس هذه الأحوال، أو يكون فيه بعض هذا أو ذاك... وهكذا نرى أنه يمكن أن يكون عالماً من ناحية وجاهلاً ـ بل رأساً في الجهل ـ من نواحٍ أخرى، وبعبارة أخرى يمكن القول: إنه قد يوجد نصف رأس جهل أو ربع رأس جهل.. وهكذا.

والتدرج والنسبية واضحان أيضاً في تناقص عدد العلماء نسبة إلى عدد المستفتين، ولحاجة الناس إلى من يفتيهم فإنهم يكملون النقص بسؤال من هو أقل علماً، فيصبح هؤلاء رؤوساً، وهؤلاء (الرؤوس) لا بد أنهم مميزون عن عامة الناس بنوع من علم وإلا ما اتخذوهم رؤوساً، ثم تكثر حاجة الناس أكثر ويتناقص عدد العلماء أكثر ـ بالوفاة أو بالانصراف عن التعلم ـ فينزل الناس (بمعيار العالم) في اتجاه الجهل، فتصبح (الرؤوس الجاهلة الأولى) درجة رفيعة في العلم !... وهكذا حتى يكون العالم عند الناس رأساً في الجهل إذا نسبناه إلى العلم الحقيقي، أو بمعنى آخر: يكون ضوء الشمعة الصغيرة عند الناس بمثابة نور الشمس الساطع.

ومن هنا ندرك أنه ينبغي على كل ملقٍ (كاتب أو متحدث) ألا يتيه ويُعجب بما يأتيه من ثناء ومدح على ما كتب أو ألقى؛ بل عليه أن يعرف قدره وقدر إخوانه وقدر ما ينبغي أن تكون عليه إمكانات وقدرات من يتصدى لمثل هذه المهمة؛ فرواج ما كتبه أو ألقاه يعني أن ضوء الشمعة يسطع ليس إلا، وهو قد يعني من جهة أخرى أنه ما سطع إلا لأن حلكة الظلمة شديدة ومساحتها واسعة.. أقول هذا وأنا أول المتهمين لنفسي، لا تواضعاً ولكن ذكراً للحقيقة ليعلمها من يجهلها، ويتذكرها من غفل عنها.

فإذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك ـ فما الذي أقحمني في هذا المنزلق فأركبني هذا المرتقى؟

أقحمني أني رأيت مَنْ هو أجهل مني يتصدى ويتصدر ويغوص ويلوص في كل مسألة، غير عابئ بأثر الكلمة، وغير مقدر لما ينبغي أن يكون عليه من يتبوأ هذا المقام؛ فقناعتي الشخصية كانت ـ وما زالت ـ أن كثيراً مما يلقى ملفوظاً أو مكتوباً ـ خاصة في صفحات الجرائد والمجلات ـ لا يستحق ثمن المداد الذي طبع به، ولا الوقت الذي بذل في إخراجه ثم في سماعه أو قراءته، وأنه لم يأخذ قوته وقابليته إلا من كونه مادة مسجلة أو حروفاً مطبوعة، بل إني على قناعة بأن بعض المستمعين والقراء يستطيع إلقاء أو كتابة بعض المواد التي لا تقل (حسناً) عما تلقيه أسماء لامعة، إذا صقل هؤلاء المتلقون مواهبهم وامتلكوا الجرأة على التعالم والتفيهق! ووجدوا الفرصة والتشجيع من أولي الأمر الفكري والثقافي!

إذن: فما المطلوب من الملقي (أو العالم) والمتلقي (أو المريد)؟

المطلوب ـ في رأيي ـ من الملقي:

أن يتخلى عن غروره وثقته المفرطة بنفسه، ويعرف قدره، وأن يتخلق بأدب القرآن: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فهكذا عرفنا (العلماء) من سلفنا الصالح، لا يتورعون عن قول: (لا أعلم) ولا يجدون فيها

[1] قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «ولا ينبغي أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال: ... الخامسة: معرفة الناس»، انظر: إعلام الموقعين لابن القيم رحمه الله، ٤ / ١٥٢.

منقصة البتة، أما في أزمان الظلمات فلا توجد هذه العبارة في قاموس المسطِّرين والمتحدثين، وانظر إلى قول ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: «صح عن أبي الدرداء أن (لا أدري) نصف العلم»، وسلوك الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ: «قال الهيثم بن جميل: سمعت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فأجاب في اثنتين وثلاثين منها بـ (لا أدري) »[1]، ثم انظر إلى حال واقعنا العلمي والثقافي لتعلم الحقيقة، وهي أنه كلما ازداد علم العالم اتسعت دائرة (لا أعلم)، وكلما نقص علمه تآكلت دائرة (لا أعلم)؛ لأن الأول يعلم عمق بحر العلم وامتداده، والآخر يظنها البقعة التي يرى لا غير!

ومطلوب من الملقي أيضاً أن يعمل على رفع الوصاية الفكرية وإنهاء الحضانة الثقافية عن قرائه وتلامذته، إن لم يكن حرصاً منه على إيصالهم إلى البلوغ الفكري والعلمي وانتفاع الدعوة بهم، فإبراءاً لذمته وتخفيفاً للمسؤولية الملقاة على عاتقه بتحمل تبعات انسياقهم الأعمى خلفه.

أما المتلقي والمتعلم فمطلوب منه عدة أمور:

مطلوب منه أن يستخدم ما ميز الله به الإنسان عن غيره، أن يستخدم عقله في التفكير والتمييز والتمحيص والسؤال، والسعي الدؤوب نحو تنمية ملكاته وتنشيطها واستثمارها.

ومطلوب منه التوازن بين الإقبال على السلوك المستنبط من قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] من جهة، والفرار من سلوك أهل الضلال المذكور في قوله ـ تعالى ـ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] من جهة أخرى، فمقتضى العبودية لرب العالمين أن تقف محايداً من كلام البشر وأفهام البشر، وألا تقبل منهم أو ترفض إلا ببرهان أو بينة تصلهم بالنور النازل من السماء، أو بحجة العقل ورصيد الخبرة... هكذا تربى أصحاب رسول الله ﷺ، بل إنهم كانوا يناقشونه ﷺ (نقاش استفسار لا اعتراض) عندما يرون في كلامه أو أفعاله ما لا يتفق مع الأصول التي تعلموها منه؛ فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «قال رسول الله ﷺ: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً! قالوا: يا رسول الله! هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه»[2]، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «صلى بنا النبي ﷺ الظهر ركعتين، ثم سلم، ثم قام إلى خشبة في مقدم المسجد ووضع يده عليها، وفي القوم يومئذ أبو بكر وعمر فهابا أن يكلماه، وخرج سَرَعَانُ الناس، فقالوا : قصرت الصلاة، وفي القوم رجل كان النبي ﷺ يدعوه ذا اليدين، فقال: يا نبي الله! أنسيت أم قَصُرَتْ؟ فقال: لم أنس، ولم تقصر، قالوا: بل نسيت يا رسول الله! قال: صدق ذو اليدين، فقام فصلى ركعتين.. »[3]، وقصة تأبير النخل معروفة مشهورة.

والحياد تجاه كلام البشر و أفهامهم ليس فقط مقتضى العبودية لله ـ عز وجل ـ بل مقتضى العقل الراجح؛ فالعاقل لا يعرف الحق بالرجال، بل يعرف الحق فيعرف أهله، والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أَوْلى بها.

وعليه: فمطلوب ثالثاً من المتلقي أن يكون كالنحلة تدور على الأزهار لترتشف من كل زهرة رحيقها، وفي الوقت نفسه: تتجنب شوكها؛ ثم تخرج عسلاً فيه شفاء للناس، فينبغي أن يقف هذا المتلقي ـ غير مسبق النظرة ـ في نقطة الصفر الحيادية: لا يقبل من أحد بالكلية ـ غير المعصوم ﷺ ـ ولا يرفض من أحد بالكلية، إلا ما دل على قبوله أو رفضه برهان أو بيِّنة؛ فليس في عالم البشر خير محض ولا شر محض.

أخي القارئ.. تذكر دائمًا : أنك إذا كنت عاقلاً فأنت مكلف، وإذا كنت مكلفاً فأنت مسؤول.

الآن انتهيتَ، فهل اقتنعتَ ؟ أعد القراءة في ضوء أن كاتب المقال من الرؤوس الجهال !!.. فكِّر، ميِّز، قارن، ناقش.. لقد أبرأت ذمتي... الشكوى لله!

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي: ٨/٧٧.

(٢ ، ٣) متفق عليه.



رسالة إلى أغنياء المسلمين

يقول (توم موناهان) البليونير الأمريكي الشهير صاحب إمبراطورية دومينو بيتزا: إنَّه كان يقرأ كتاباً للمؤلف الشهير (لويس) عن معنى الدين وسيئات الكبرياء وحب الذات، وأدرك آنذاك أنَّه مهتم أكثر مما يجب بحاجاته المادية وبقشور الحياة، وأنَّ الكبرياء والسلبية خيَّمتا على حياته، فكان اهتمامه الأول يدور حول ممتلكاته ويخوته وسياراته وشققه وابنتيه.. وفجأة اتصل بمهندس معماري كان قد كلفه ببناء قصر له، وطلب منه التوقف عن العمل فوراً؛ لأنه قرر أن يصبح فقيراً، واختار خدمة الفقراء! ثم أوعز إلى مساعديه ببيع يخوته وطائراته الخاصة وجزيرة يملكها.

ووضع البليونير (موناهان) الأموال التي جمعها من بيع ثروته في مشاريع مختلفة تديرها الكنيسة الكاثوليكية، وسمَّى مؤسسته الجديدة: (آفي ماريا فاونديشن). وحتى الآن أسس أربع مدارس في (آن ربور) (ولاية ميتشجان الأمريكية)، تشرف عليها الراهبات، وإذاعة تبث برامج دينية، وخدمة إنترنت لتسهيل التعارف بين الكاثوليكيين الذكور والإناث، ومهجعاً للفتيات على مقربة من جامعة ميتشجان.. كما أسس جمعيات مهنية لرجال الأعمال الكاثوليك، وقدَّم الدعم المالي لمشروع إنشاء كلية في نيكاراجوا..!![1]

هذا البليونير مثال واحد من أمثلة كثيرة تدعم التنصير والإرساليات الكنسية، وصدق المولى ـ جلَّ وعلا ـ إذ قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

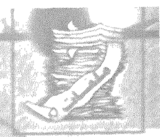
ولكن! أين أغنياء المسلمين الذين يملؤون السهل والبحر؟! أتُراهم يجهلون حاجات الدعوة الإسلامية في المشرق والمغرب، أم أن سيئات التجاهل وحب الذات قد غلبت عليهم؟!

إننا لا نطالبهم بالتخلي عن أموالهم وإيقافها كلها للدعوة الإسلامية، ولكننا نطالبهم بإخراج الحق الشرعي الواجب في دين الإسلام، ونذكِّرهم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦].

وها هي ذي الجهود التنصيرية بين أيديكم رأيتم بعضها في العدد الماضي، وترون بقيتها في هذا الملف، ونؤكد على أن الهدف ليس هو تضخيم العدو، ولكنها دعوة صادقة لجميع المسلمين ـ رجالاً ونساءاً، أغنياء وفقراء ـ، نقول لهم: قد ولَّى عهد النوم والكسل، وجاء وقت العمل والتضحية. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

---

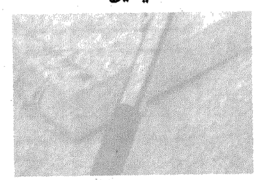
(١) انظر: مجلة المجلة، العدد: (١٠٦٧).



التنصير.. هل أصاب الهدف؟ (٢ ـ ٣)

الإسلام والنصرانية نظرة استراتيجية

د. محمد يحيى



عندما جاء الإسلام فإنه لم يهدم المسيحية ويناقضها وينقض كل ما جاءت به؛ لكنه لم يأت ليكملها أو ليؤكد على أوضاعها العقائدية الموجودة عندئذ، بل أتى ليصحح تلك العقائد تصحيحاً جوهرياً حاسماً، ويلفت النظر إلى تحريف كتابها المقدس في عمل لم يقتنع به أصحابها إلا في العصر الحديث وفي السنوات الأخيرة على يد فصيل من دارسيهم شككوا في تلك العقائد وفي ذلك الكتاب. ومن هنا كانت علاقة الإسلام بالنصرانية علاقة مركبة لا تنكر وجود عيسى ـ عليه السلام ـ ولا عذرية والدته ولا معجزاته أو المعجزات التي أجراها الله له، ولا تعاليم ولا قيماً، ولكنها تنكر تأليهه والغلو في تقديسه، وتنكر ما تسرب إلى ذلك الدين من عقائد وثنية مشركة واضحة ومعها مذاهب فلسفية غامضة.

فالعلاقة المركبة هذه تحتمل اللقاء والصراع وأحدهما أو كلاهما، وتاريخ العلاقة معروف، وإن كتب في معظمه في العصر الحديث من جانب من يتعاطفون مع النصرانية أو يكرهون الإسلام.

كان الصدام أو الالتقاء الأول في الجزيرة العربية نفسها وإن لم يكن صداماً بالمعنى المعروف، ثم تطور إلى الفتوحات الإسلامية في مواجهة الدولة البيزنطية المسيحية في الشرق، وبعدها في مواجهة دويلات غربية نصرانية الطابع في الأندلس وسائر أسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا. ومن الجانب الآخر أتت الحروب الصليبية التي ما زال بعض الناس وحتى ممن يحملون أسماءاً إسلامية يجتهدون في نفي طابعها الديني الواضح عداءاً للإسلام وكراهية له. وبعد زوال الهجمة التي كادت أن تمس قلب العالم الإسلامي نفسه جاءت الفتوح الإسلامية لشرق أوروبا وجنوبها وحتى وسطها على يد الدولة العثمانية؛ ولكنها سرعان ما أخلت الطريق ـ منذ القرن السابع عشر الميلادي وحتى الآن ـ للهجمة الصليبية الكبرى والثانية التي تسمَّت باسم الحركة الاستعمارية استيطانية وإمبريالية، ثم بالاستعمار الجديد، ثم بهيمنة العصر الأوروبي ـ الأمريكي وسيطرة الغرب والنظام العالمي الجديد (والقديم) وأخيراً العولمة.

وفي هذه الهجمة العاتية لم يكن السلاح العسكري وحده هو المستخدم، بل اكتملت بأسلحة الفكر والمذاهب والعقائد والفلسفات المختلفة، وبعضها يعلن أنه علماني لا ديني، وإن وجدت له جذور قوية في الفكر اليهودي ـ النصراني مع جذور في الأفكار والفلسفات الوثنية، وما زال العالم الإسلامي يجاهد ضد تلك الهجمة الكبرى التي تتراوح أجنحتها من حركات التبشير الصارخ والجارف إلى

اجتياح شامل من جانب الأفكار العلمانية وبينهما السيطرة السياسية والاقتصادية وغسيل المخ الإعلامي والطوفان اللاأخلاقي الإباحي.

وبصرف النظر عن تجربة التاريخ والعِبَر التي يمكن أن تستخلص منها؛ فإن الصورة الراهنة تعكس في النظرة الأولى مزيجاً غريباً من التطورات قد يتصوره بعضٌ تطوراً حاداً وتصعيداً لذلك المحتوى من اللقاء والصراع الذي قد يكون كامناً في العلاقة الجوهرية بين الإسلام والمسيحية؛ فمن ناحية تعلو أصوات ـ معظمها من الجانب الكنسي النصراني وتجد استجابة من الجانب الإسلامي الرسمي الموجه علمانياً ـ تدعو للحوار والتعاون والتقارب في صيغ وأشكال وكيفيات غامضة مبهمة المعالم. ومن الناحية الأخرى تعلو أصوات الصراع ـ وأيضاً في جله من الجانب النصراني ـ كما تُشهَد أحداث متتالية من العنف الموسوم بالطائفي في قطاع جغرافي عريض يمتد في إندونيسيا وحتى مصر، ومن الوسط الآسيوي والشرق الأوروبي حتى الوسط والشرق والغرب الإفريقي ماراً بالشرق الأوسط. بل ومن البلد الغربي الواحد نجد الاتجاهين نفسيهما متوافقين؛ فالسلطة ومعها الكنيسة تحذر من الإرهاب والتطرف الإسلامي المزعوم وتدعو إلى محاربته، والكنيسة ومعها السلطة ترفع لواء الحوار والتقارب والتعاون. لكن هذا المزيج السطحي من الكلام الإعلامي المعسول والاشتباك الطائفي أو الديني الدامي المثقل يخفي وراءه تطورات واتجاهات كبرى في علاقة وأوضاع الإسلام والنصرانية قلما يلتفت إليها الانتباه لا سيما وهي على المستوى الاستراتيجي.

إن النصرانية في مجملها من شرقية أرثوذكسية وغربية كاثوليكية ـ بروتستانتية وعلى تنوع المذاهب والكنائس داخل هذين الجناحين الكبيرين تمر الآن بتطورات وتحركات كبرى تغيب غالباً بل تأكيداً عن أذهان من يفتنون بدعوات الحوار البراقة أو من يصبون جل اهتمامهم على الحوادث الطائفية. ومجمل هذه التطورات هو نهضة كبرى أو بالأصح قوة متنامية للكنائس بأنواعها لا تصاحبها نهضة دينية بمعنى تنامي الإيمان والعقيدة والالتزام لدى شعوب تلك البلدان، وهذه مفارقة كبرى أخرى؛ فالكنائس الغربية مثلاً تكسب الاتباع المسجلين في البلاد التي تمارس التنصير فيها لكنها تخسر شعوب بلادها نفسها، وهي تزداد قوة ونفوذاً أو تأثيراً أو حضوراً في تلك البلاد المعرضة للتنصير لكنها تفقد قوتها لدى دوائر الفكر في بلادها نفسها وإن أخذ هذا الاتجاه يضعف تدريجياً مع الضعف العام الذي اعترى الفكر العلماني ولا سيما في روافده الفلسفية ومبادئه العامة، وبالمثل نجد أن الكنائس الأرثوذكسية الكبرى في روسيا وشرق أوروبا تصعد بعد سقوط الشيوعية ودولها إلى مرتبة القوة والسلطة وتحرك الأحداث والسياسات في تلك البلاد باتجاه التعصب الديني ـ القومي (وقد توحد الدين مع

التنصير في باكستان

سنة ١٩٩٢م كانت خصبة جداً للمنصرين في كراتشي؛ فقد تضاعف عدد المتنصرين خلال هذه السنة؛ ففي شهر ديسمبر ١٩٩٢م وحده اعتنق أكثر من ٥٠ مسلماً النصرانية في مدينة كراتشي، بينما عدد المتنصرين في المدينة خلال سنة ١٩٩٢م نحو ٦٠٠ شخص، ومن أسباب هذه الزيادة أن الجهود التبشيرية بدأت تؤتي الآن ثمارها بعد جهد طويل. إلا أن غالبية المتنصِّرين كانوا من الشيعة والإسماعيلية، ولكن هناك نسبة لا بأس بها من أهل السنة الذين تنصروا لأسباب مختلفة.

يقول أحد الأساقفة: حينما أذهب إلى باكستان لأدعو إلى المسيحية في أرجائها بكل حرية لا يصيبني أذى من الحكومة أو الشعب.

[عن مجلة الإصلاح، العدد: ٣٧٣] ـ البيان ـ

القومية في تلك البلاد في هدم واضح وصارخ لأهم مبادئ الفكر العلماني ولكن تلك قصة أخرى) ضد الإسلام والمسلمين من مواطنيهم في وسط آسيا وشرق وجنوب أوروبا، وليست أحداث البوسنة وكوسوفا وبلغاريا واليونان والقوقاز والأبخاز وأذربيجان والشيشان ببعيدة، وهي موصولة بالقمع العلماني الممارس ضد الإسلام بجوارها في تركيا وحتى تركمانستان وغرب الصين مروراً بالطاجيكستان والأوزبكستان. ومعها تنهض الكنائس الأرثوذكسية في مصر وإثيوبيا وإرتيريا، وتناهض الحكومات، وتفتعل الصدامات، وتصل إلى مستوى من القوة والنفوذ لم يعهد من قبل. ولكن تبقى تلك القوة غير مصحوبة بنهضة روحية إيمانية مماثلة على المستوى العقيدي، بل تشعلها روح من التعصب الديني قومي وسياسي الطابع أكثر من كونه وليد الإيمان الديني الروحي.

ويبدو هذا التطور الاستراتيجي معكوساً على الجانب الإسلامي؛ حيث الصحوة الإيمانية الإسلامية العارمة في وجه عقود من الكبت والقمع العلماني والتغريبي لا تصل أو لا يسمح لها أن تصل إلى مستوى الفعل الاجتماعي السياسي، ولا نقول النفوذ والتأثير على توجه المجتمعات والدول. والحركات الإسلامية وهي لا ترقى في تنظيمها وقواعدها المادية والبشرية إلى مستوى الكنائس بأي حال ـ تتعرض للضرب والقمع والاضطهاد بينما تلاحق مصادر الصحوة الفكرية وشخصياتها ونشاطاتها في إطار مجموعة السياسات التي أصبحت تعرف باسم استراتيجية تجفيف المنابع.

وهذا الانعكاس في التطور العام لدى كل من المسيحية والإسلام يولد وضعاً غريباً؛ فالإسلام القوي الناهض بإيمانه وروحه والتزام جماهيره يبدو ضعيفاً إزاء تحكم نخب وأقليات علمانية سياسية وفكرية في مقاليد الأمور في معظم أو أهم بلاد الإسلام؛ بينما المسيحية بأجنحتها وهي ضعيفة في جانب الالتزام الجماهيري والإيمان الشعبي في بلادها تبدو قوية للغاية، بل وجارفة من ناحية وصولها والتصاقها بالقوى والقوة السياسية والإعلامية بل والاقتصادية داخل بلادها وخارجها. وفي إطار هذا الوضع المعكوس أو المتناقض تجري عملية التنصير الكبرى، بل إننا نستطيع أن نفهم عملية التنصير الكبرى التي تقوم بها الكنائس الغربية بالأساس (ويقابلها عند الجانب الأرثوذكسي النصراني الشرقي عملية الحرب المعلنة ضد الإسلام والمسلمين بالسلاح) في ذلك الإطار بالتحديد. فهذه العملية الموجهة بشكل متزايد إلى المسلمين هي تعبير وانعكاس عن القوة المتزايدة للكنائس ومعها تزايد العدوانية والشراسة والرغبات التوسعية وهي كذلك محاولة واسعة للتعويض والتغطية في وجه الضعف والخواء العقيدي الداخلي. وهي بالطبع كذلك طليعة وأداة حركة التوسع والهيمنة الغربية الأوروبية الجامحة في ظل النظام العالمي الجديد والعولمة بعد أن أخذت هذه الحركة أو ذلك النظام طابع الهوية المسيحية ـ اليهودية عنواناً وشعاراً لها في ظل عودة جارفة إلى الأصول والجذور الفكرية ولَّدها إخفاق الفكر العلماني وأفوله في ينابيعه الفلسفية، وإن لم يكن ذلك في مظاهره وتجلياته الثقافية المختلفة.

وحركة التنصير الكبرى في هذا التصور أو لنسمِّها حركة التوسع العدواني والهجوم الذي يتخذ شكل التبشير عند بعض منهم، وشكل الصدام والعدوان العسكري عند بعض آخر، وما بينهما من أشكال الغزو والتغلغل والتشكيل الثقافي والإعلامي تعد المظهر الرئيس إن لم يكن الوحيد لتوجه المسيحية نحو الإسلام في هذه الفترة وفي المستقبل المنظور. وهي توجه استراتيجي كما يعلنون بصراحة، وهي كذلك حتى ولو لم يعلنوا؛ لأنها ـ كما قلنا أو تصورنا ـ تعبير وانعكاس بين توجهات وتطورات عامة في قلب النصرانية العامة فوق أنها ترجمة دقيقة لاحتياج مجتمعاتهم إلى هوية وقومية ورؤية جديدة تعوض إخفاق العلمانية بمذاهبها، وفوق أنها صدى أو تعبير عن موقف العداء والرفض ثم الصراع مع الإسلام الذي تبنته النصرانية تاريخياً.

وفي إطار هذا التوجه الاستراتيجي أو الهيكلي ـ إن

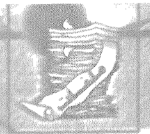
جاز استخدام ذلك المصطلح الشائع من لغة الاقتصاد - للنصرانية ينبغي النظر لمسألتي الحوار المزعوم والاشتباكات الحادة - وهما الملمحان الأظهر حقيقةً الآن على سطح العلاقة - باعتبارهما مندرجين في ذلك التوجه ونابعين منه؛ فالاشتباكات المتكررة هنا وهناك تعبير عن حدة العداء وتحرك دوافع الكراهة واستباق للغزو الفعلي في حالات كما حدث في تيمور الشرقية مثلاً مؤخراً. وهذه الاشتباكات هي مظاهر خارجية ساخنة وقد تكون منفلتة للحركة التوسعية النصرانية التي نرمز لها عادة باسم التنصير. أما دعوات الحوار المتكررة والتي تفرض بالقوة على بعض المؤسسات الإسلامية والشخصيات ذات الطابع الرسمي والواقعة تحت سيطرة النخب العلمانية في بلادها فهي مفهومة على أساس أنها خداع استراتيجي كما يقال في لغة العسكرية، أو استكشاف لأبعاد وأعماق ونوايا وحجم ونوع «العدو» الإسلامي، أو محاولة للفت الأنظار بعيداً عن التطورات الحقيقية والنوايا المضمرة، أو شل لأيدي المسلمين عن التحرك الفعلي باتجاه مواجهة الحركة التنصيرية والهجمة الغربية العامة وشغلهم بأمور تافهة وغامضة المعنى، وبالطبع فإن لعبة شعارات الحوار والتقارب وما أشبهها تروج لها النخب العلمانية صاحبة النفوذ؛ لأنها في نهاية المطاف عميلة للغرب أو متواطئة معه، ويهمها أن تقدم الإسلام على هيئة «قربان» لهذه العلاقة حتى تزداد حظوتها لدى الأسياد الغربيين بقدر خدماتهم بتطويع الإسلام وتدجينه ثم ضربه ليتسع المجال أمام الزحف الغربي.

وهكذا فإن الظواهر التي تطفو الآن على سطح العلاقة العامة بين الإسلام والنصرانية والتي يظن أنها عابرة أو شاذة (في حالة الاشتباكات الطائفية الدامية داخل بلاد المسلمين أو على خطوط التماس) أو يظن أنها تعبير عن عصر جديد من السلام الأبدي والتعاون والتقارب الأزلي (كما في حالة دعوات الحوار) هي في جوهرها وحقيقتها مجرد تعبير وترجمة لتوجه استراتيجي عام أصبح مسيطراً في هذه الفترة على المسيحية عموماً بشكل أصيل، ويقابله كما قلنا توجه مضاد أو انعكاس في الإسلام نحو الانكماش والتراجع والمواقع الدفاعية، وعدم نشر الدعوة تحت وطأة الهجمات والدعاوى العلمانية المختلفة، ويتزعمه مسلمون ينتسب بعضهم لمؤسسات إسلامية (للأسف) تدخل في عملية الحوار مع النصرانية الغربية بالذات التي تستخدم الحوار ستاراً تمويهياً لحركة التوسع التنصيري؛ فهل لهذا التعقد المتشابك والتوجهات الاستراتيجية المتضاربة والمختلفة جذرياً من يفهمه ويفكر ويعمل على ضبطه لصالح الإسلام؟ هذا هو السؤال الذي يحكم المرحلة، وهو سؤال أبعد بعض الناس على الجانب الإسلامي نفسه من الإجابة عليه بوقوعهم في دائرة تكتيكات الحوار والتراجع التي فرضها الغرب أو النصرانية على الإسلام.

■ قد ازداد عدد سكان بنجلاديش (١٢٠) مليون من (٧٠) مليون منذ استقلال البلاد، بينما ازداد عدد المسيحيين ليصل إلى ٣ ملايين من أصل (٢٥٠) ألف مسيحي في الوقت نفسه. هذا يعني أنه ازداد عدد السكان أقل من ضعفين، بينما ازداد عدد المسيحيين أكثر من عشرة أضعاف في ثلاثين عاماً مضت في بنجلاديش.

[مجلة مدينة الشهرية، السنة: ٣٦، العدد: ٢، محرم، وصفر ١٤٢١هـ، الموافق مايو ٢٠٠٠م]

■ ذكرت نشرة صوت الشهداء التنصيرية The voice of the martyrs أنهم يسعون لجمع الأموال لتوزيع كتاب (معاناة فانتصار) باللغة العربية على النصارى الذين يعانون تحت النظم الإسلامية، الهدف من توزيع الكتاب هو رفع وتقوية معنويات النصارى المضطهدين في المنطقة. [مجلة الصراط المستقيم، العدد ٦٦]. - البيان -



التنصير لم يكن غائباً (٢ـ٢)

قصة العلاقة بين الإسلام والنصرانية

إبراهيم بن محمد الحقيل

« من لم يعرف الماضي فلن يفهم الحاضر، ومن ثم يعجز عن التخطيط للمستقبل »

انطلاقاً من هذا المفهوم سرد لنا الكاتب ـ في الحلقة الماضية ـ طبيعة العلاقة بين الإسلام والنصرانية وما نجم عنها من أحداث منذ بعثة النبي ﷺ، تنم عن مدى ما يبذلونه من مكر ومال، وما تخفي صدورهم أكبر. وفي هذه الحلقة يتابع الكاتب قصة هذه العلاقة بتسلسلها التاريخي حتى عصرنا (عصر العولمة) لنرى بحق: هل أصاب التنصير الهدف؟ ـ البيان ـ

الاستعمار:

بدأ الاستعمار الأوروبي عام ١٤٥٠م تقريباً، ووصل قمته عام ١٩٠٠م؛ إذ قسمت الأقاليم المستقلة غير الأوروبية بين المستعمرين، وبعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م ـ ١٩١٨م) بدأت مرحلة المعاكسة، وتقلص الاستعمار بسبب ثورات الشعوب المستعمَرة التي رفضت الاستعمار البغيض.

مراحل الاستعمار:

يمكن القول: إن الاستعمار مرّ بمرحلتين:

المرحلة الأولى: الاستعمار الأوروبي القديم: وهي المرحلة التي تسمى بحركة الكشوف الجغرافية التي تم شطر منها في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان لهذه الكشوف الجغرافية هدفان:

الأول: تطويق العالم الإسلامي لإضعافه تمهيداً لضربه في الداخل؛ فقد أيقن النصارى أن ضرب العالم الإسلامي بجيوش جرارة غير مُجْدٍ، وأخذوا من الحروب الصليبية ـ التي دامت مائتي سنة ـ دروساً في ذلك.

الثاني: البحث عن طريق تجاري مع الهند لا يمر بديار المسلمين.

وقد استفاد النصارى من علوم المسلمين الجغرافية والملاحية عن طريق جواسيس الكشوف الجغرافية من اليهود الذين كانوا يتقنون اللغة العربية، وكثير منهم حل بين المسلمين متظاهراً بالإسلام، مما مكن لهم الحصول على خرائط عربية عن المحيط الهندي، ومعلومات عن التيارات البحرية والمواقع الجغرافية والرياح الموسمية فضلاً عن معلومات عن التجارة الشرقية. وكان من

أشهر هذه الرحلات الاستكشافية رحلة (فاسكو دي جاما) التي كانت صليبية المقصد تتخفى وراء العلم والاستكشاف؛ فقد قال عقب رحلته التي أعانه فيها من المسلمين الجغرافي أحمد بن ماجد: «الآن طوَّقنا رقبة الإسلام، ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق»[1].

لقد حملت الكشوف الجغرافية الروح الصليبية متمثلة في آراء البابا (نيقولا الخامس) الذي وضع خطة تنفذ مع الكشوف الجغرافية لضرب المسلمين الضربة الأخيرة؛ فقد أرسل عام ٨٥٩ هـ إلى ملك البرتغال مرسوماً بابوياً تضمن ما يعرف باسم: (خطة الهند) التي تقوم على إعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوروبا للقضاء على الإسلام بعد أن تحقق كشوف البرتغاليين أهدافها ويتصلوا بالملوك النصارى سواء في إفريقيا أو آسيا ليسهموا في تمويل الحملة الصليبية بالأموال والرجال والعتاد، ويتم تطويق العالم الإسلامي[2].

وتمثلت هذه الروح الصليبية في (هنري الملاح) أمير البرتغال، وفي القائد البرتغالي (البوكرك) الذي كتب في يومياته: «كان هدفنا الوصول إلى الأراضي المقدسة للمسلمين، واقتحام المسجد النبوي، وأخذ رفاة النبي محمد [ﷺ] رهينة لنساوم عليه العرب من أجل استرداد القدس، وكان هدفنا الثاني: احتلال جنوب مصر، من أجل تغيير مجرى نهر النيل كي يصب في البحر الأحمر، بدلاً من مروره على القاهرة في طريقه إلى البحر المتوسط مما يضمن لنا خنق القلب الذي يقود الحرب ضدنا»[3].

المرحلة الثانية: الاستعمار الأوروبي الحديث (الإمبريالزم): كانت الثورة الصناعية وما تلاها من نشوء الرأسمالية ورسوخها في المجتمعات الغربية من أهم أسباب هذا الاستعمار؛ إذ احتاج الغربيون إلى المواد الخام لتشغيل مصانعهم، وإلى الأسواق التي يصرفون فيها منتجاتهم، فكان العالم الإسلامي هدفاً من أهداف هذا الاستعمار الذي ليس إلا فصلاً من فصول الحملات الصليبية على العالم الإسلامي كما هو قول القائد الإنجليزي (اللورد اللنبي) بعد أن دخلت قواته المستعمرة فلسطين عام ١٣٣٧هـ؛ إذ قال كلمته المشهورة: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

وهذا الاستعمار الحديث الذي مهد له المنصِّرون والمستشرقون بدراساتهم وأبحاثهم يقوم على استغلال البلاد التي استعمروها وتطويعها لإرادته أكثر من استيطانها وحكمها. وكان الاحتلال والاستيطان فيه مرحلة أولى لتحقيق التطويع وزرع العملاء، ومن ثم إعطاء الاستقلال والرحيل بعد ضمان ما يلي:

١ - حكمها من الخارج عن طريق عملاء الاستعمار، أو اتفاقيات الحماية والوصاية ونحو ذلك.

٢ - الاستحواذ على ثرواتها ومقدراتها عن طريق تشغيل شركات المستعمر في أراضيها وربط عملتها بعملة الدولة التي استعمرتها، فضلاً عن القروض والمساعدات وإقامة المشاريع وتوقيع المعاهدات التي هي في صالح المستعمرين.

٣ - التبعية السياسية والثقافية للمستعمر.

آثار الاستعمار:

نتج عن الاستعمار بمرحلتيه آثار عظيمة لا زالت الأمة الإسلامية تعاني منها إلى اليوم، ويمكن تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: آثار دينية من ضعف الدعوة إلى الإسلام ونشره، وانتشار البدع والمنكرات، والجهل

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، د. جميل المصري، ١/٧٩ - ٨٢، وانظر: واقعنا المعاصر، ص ١٨٩.

(٢) أوروبا في مطلع العصر الحديث، ٦١، عن المصدر السابق، ١/٨٤.

(٣) انظر: حاضر العالم الإسلامي، ١/٨٤ - ٨٥.

بأصول الإسلام، وضعف الالتزام بأحكام الشريعة لدى كثير من المسلمين حتى صار الإسلام اسماً فقط عند كثير من أبناء الشعوب المستعمرة، وقد سلك المستعمرون في سبيل تحقيق ذلك طرقاً عدة منها:

١ – تقطيع العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة عقب إسقاط الخلافة العثمانية، وقد سعى النصارى بكل ما أوتوا من قوة ومكر للقضاء على الدولة العثمانية؛ لأنها ـ مع ما فيها من فساد وضعف ـ كانت الرباط الذي يربط أقصى العالم الإسلامي بأدناه؛ ولذا فإنها لما سقطت سقطت معها هيبة المسلمين، واستبيحت حرماتهم وامتهنت كرامتهم.

وكان مكر النصارى ومخططاتهم ضد الدولة العثمانية قديماً؛ ففي عام ٧٩٢ هـ تكوَّن حلف صليبي مقدس من الصرب والبوشناق والمجر وبلغاريا ونصارى ألبانيا لقتال العثمانيين وإزالة دولتهم[١]، وتكررت هذه التحالفات التي كانت تُخفِق مرة إثر مرة؛ لكنها أضعفت الدولة العثمانية.

٢ – تجفيف منابع العلم بأحكام الإسلام وشريعته، وإضعاف دور العلماء والدعاة باحتوائهم، وتصفية من تأبَّى على سياسة الاحتواء، حتى صار من حاشية جنود الاستعمار وجلساء قادته أناس ينتسبون لأهل العلم.

٣ – ممارسة التنصير، وتبديل ثقافة الأمة بثقافة أخرى ليست لها، وهذا يتضح من خلال خطاب الوزير الفرنسي (صالغندي) الذي ألقاه عام ١٨٤٦م أمام جمع من الأطباء العسكريين في الجزائر؛ ومن قوله: «مما لا شك فيه أن الحكومة الفرنسية تعترف لكم بجميل إخلاصكم في معاملتكم للجنود؛ غير أن لكم مهمة أخرى أكثر أهمية؛ أنتم مدعوون إلى القيام بها وهي مؤازرتكم بقسط كبير في العمل على إدخال حضارتنا في بيئة القبائل العربية والبربرية. إن تبشيركم سيكون ولا شك القادر على النجاح خلال السنوات المقبلة؛ ومن جهتنا سنقوم بكل مجهوداتنا لنوفر لكم كل الظروف وسط المواطنين للعمل على نشر التعليم الطبي الذي سيصبح نافعاً في الوقت نفسه للإنسانية ولتثبيت قوتنا في هذا البلد»[٢].

وبقراءة هذا الخطاب يظهر أمامنا ثلاثة أمور أساسية:

أ – الارتباط الوثيق بين التنصير والاستعمار، وأن للتنصير دوراً ثقافياً إمبريالياً.

ب – أشار الوزير إلى دور هؤلاء الأطباء في إدخال الحضارة الغربية في البنية العربية ولكن بإدخال الثقافة الاستعمارية وليس إيجابيات الحضارة الغربية؛ بدليل أن الاستعمار الفرنسي للجزائر الذي زاد على ثلاثة قرون وثلث القرن لم تجنِ منه الجزائر إلا تخلف أبنائها ونهب خيراتها واستيطان أراضيها وإذلال شعبها.

ج – أن السلطات الاستعمارية كانت تدعم كل الجهود التي تساعد في التأثير الثقافي[٣].

وحتى بعد رحيل المستعمرين عن ديار الإسلام ظل التأثير الثقافي مسلطاً على الديار التي استعمروها عن طريق الجامعات الغربية كالجامعات الأمريكية في كثير من الدول العربية، والمدارس الغربية كذلك، وفي مصر وحدها أكثر من تسع مؤسسات تعليمية بين جامعة

(١) الحروب الصليبية، لأحمد شلبي، ١٢٢.

(٢) المجلة التاريخية المغربية، ١ كانون، ١٩٧٤م، وانظر الإسلام والحضارة العربية، ١/٣٤٨، ٣٥٠ فقد ذكر محمد كرد علي أن أكثر أساتذة المدارس التي أنشئت في مصر على عهد نهضتها الأولى كانوا من الفرنسيين المستعربين، حتى قال أحد الإنجليز: إن المدنية المصرية الحديثة هي مدنية فرنسية صرفة. وذكر أن أعداداً كبيرة من المنصرين كانوا يمارسون التنصير خاصة في الشام ومنهم الإيطالي والفرنسي والأمريكي والروسي والأسباني والأسكتلندي وغيرهم.

(٣) الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، ٩٩، ١٠٠.

وكلية ومدرسة أمريكية وإنجليزية تمارس التنصير.

وكذلك عن طريق الأبناء العاقين لأمتهم المخلصين للغرب النصراني الذين درسوا في الغرب وتشربوا ثقافته، ثم سُلِّموا وزارات التربية والثقافة في البلاد الإسلامية، وأُعطوا المنابر الإعلامية ليقوموا بتشويه الثقافة الإسلامية، والدعاية لثقافة المستعمرين، والدعوة إلى الأخذ بها بخيرها وشرها، وحلوها ومرها... كما قال طه حسين، وكما قال تركي الحمد: لا يمكن أن تأخذ السيارة ولا تأخذ ثقافتها أي: ثقافة صانعها.

وعن طريق النوادي الماسونية أيضاً والجمعيات الغربية من نسائية وغيرها التي أنشئت في العالم الإسلامي ويصلها كل الدعم المادي والمعنوي من المستعمرين.

٤ – تغيير اللسان العربي الذي في بقائه وحفظه حفظ الإسلام؛ إذ هو شعاره وبيانه[1].

وقد رأينا فيما مضى كيف أن النصارى في الأندلس إبَّان تنصيرها منعوا التخاطب باللغة العربية، وألزموا المسلمين بهجرها والتخاطب بلغة المستعمر.

وهكذا حصل في الاستعمار الحديث؛ فالاستعمار الفرنسي في الجزائر ركَّز على تعليم الفرنسية ومنع الجزائريين من تعلم العربية، وكان على الطفل الجزائري أن يتعلم الفرنسية بوصفها لغة قومية؛ لأن الاستعمار كان يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر العربية المسلمة[2].

٥ – نشر الفاحشة في المسلمين وذلك بإخراج المرأة من بيتها، وإلقاء حجابها، وخلطها بالرجال في ميادين الدراسة والعمل، بل وإنشاء دور التمثيل والرقص والأزياء الفاضحة، والمجلات الهابطة، ومراكز إنتاج الأفلام والأغاني الخليعة، والإشادة بالماجنين والفسقة والسوقة من أولاد المسلمين ورفع شأنهم في وسائل الإعلام المختلفة.

وفي مقابل ذلك تضييق سبل المحافظة على العفة والطهارة بانتقاد وربما منع الزواج المبكر ومنع تعدد الزوجات، وإباحة الزنا قانونياً كما في تونس وتركيا، أو تضييق سبل الحلال وتوسيع سبل الحرام كما في كثير من الدول الإسلامية.

وقد قال قائد من قادة الصليبيين: «لن تهزموا المسلمين بكثرة الجيوش ولا بقوتها ولكن ستهزمهم جيوش النساء، وستهزمهم قوارير الخمر»[3].

٦ – إحياء النعرات القومية (العربية، الطورانية، البربرية...) بقصد إضعاف الانتماء إلى الإسلام، واستبداله بالانتماء إلى القطر أو الوطن أو القبيلة أو نحو ذلك.

يقول أحد المستشرقين: «إننا في كل بلد إسلامي دخلناه نبشنا الأرض لنحصل على تراث الحضارات القديمة قبل الإسلام، ولسنا نعتقد بهذا أن المسلم سيترك دينه، ولكن يكفينا منه تذبذب ولائه بين الإسلام وتلك الحضارات»[4].

القسم الثاني: آثار دنيوية: وهي كثيرة ومنها:

١ – تفريق الأمة الواحدة وضرب الحدود الاستعمارية بينها، ومن ثم التحريش بين الجار وجاره خدمة لمصالح المستعمرين، في إرغام الدول المستعمَرة على توقيع اتفاقات الأمن والحماية التي بموجبها تمتص الدول الكبرى ـ دول الاستعمار ـ خيرات هذه الدول الضعيفة التي تخاف جيرانها.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٣/٢٥٢ ـ ٢٥٥، واقتضاء الصراط المستقيم، ١/٤٦١ ـ ٤٦٤.

(٢) انظر: في الثورة والتعريب، د. محمد مضايف، ٥٠ – ٥١.

(٣) الهزيمة النفسية عند المسلمين، د. عبد الله الخاطر، ٤٥.

(٤) الولاء والبراء في الإسلام، د. محمد سعيد القحطاني، ٤٢٠.

٢ - اغتصاب الأراضي الإسلامية؛ فقد اغتصب الاستعمار الأندلس كاملة، وأجزاءاً كبيرة من البلقان وروسيا البيضاء وأرض الجمهوريات الإسلامية وجبل طارق والجولان وفلسطين وغيرها، وأخيراً تيمور الشرقية.

٣ - التخلف الاقتصادي في البلاد المستعمَرة، والاعتماد على وسائل الإنتاج البدائي كـ (الزراعة) والتدخل في العلاقات الاقتصادية، وإقامة الحواجز الاقتصادية كالاحتكارات والمضاربات ونحوها.

٤ - تكريس تبعية نظم البلدان المستعمرة الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية للدول الاستعمارية العظمى ونظمها.

٥ - تغريب المواطن عن مشاكل شعبه، وإيجاد نموذج من المثقفين العاجزين عن فهم هذه المشاكل فضلاً عن حلها وتسليمهم زمام القيادة، كما أسهم الاستعمار - ولا زال يسهم - في حدوث القلاقل والثورات في المجتمعات الآمنة المستقرة خاصة عند رفضها لما تقرره السلطات الاستعمارية، إضافة إلى شغل المثقفين والمفكرين عن هموم أمتهم بالدعوة إلى الذوبان في الأنظمة الاستعمارية.

٦ - تكريس ما دُعي بالنخبوية الطبقية مع الحرص على اختيار نماذج من أبناء الطبقات الشعبية إخفاءاً للدور الحقيقي لمؤسسات الاستعمار الثقافي والإعلامي الموجودة في العالم الإسلامي.

٧ - وجود مجتمعات خاصة (فصائل ثقافية أجنبية) ضمن المجتمع الإسلامي تهدد وحدة المجتمع ووجوده؛ فالإرساليات التنصيرية، والشبكات الماسونية، والمؤسسات والجمعيات الغربية تعمل في كثير من بلاد المسلمين دون رقيب أو حسيب عليها، بل تدعمها الأنظمة العلمانية في الوقت الذي تقمع فيه أي توجه إسلامي.

٨ - إقناع الشعوب الإسلامية بأن الخير في الاستعمار الثقافي؛ وذلك عن طريق الوقوف ضد تطوير التعليم العام والتعليم العالي، وتشجيع التعليم اللاوطني والمؤسسات التعليمية الأجنبية وإثبات كفاءتها وقدرتها بدءاً من ضخامة منشآتها، وتطور وسائلها التعليمية والتربوية، وانتهاءاً بإيجاد الفرص الوظيفية لخريجيها دون الجامعات المحلية، ولا يمكن مقارنة الجامعة الأمريكية في مصر أو بيروت بالجامعات المحلية.

٩ - الشعور بالدونية والإحباط، والاقتناع بتميز الرجل الأبيض عن سائر الشعوب الملونة، وهذا كرَّسه الاستعمار العسكري بما مارسه من إرهاب جسدي وتصفية لأبناء الشعوب المستعمرة، بل وممارسة أبشع صور القهر والإذلال النفسي والجسدي؛ ومثال ذلك ما فعله الاستعمار الهولندي في إندونيسيا حتى إن الجندي الهولندي إذا أراد أن يعلو ظهر جواده أشار إلى الأندونيسي فيركع أمامه فيدوس الهولندي بحذائه على ظهر الأندونيسي ليعلو جواده.

وقبل ذلك أُلْـزِمَ المتنصِّرون في الأندلس أن يسجدوا في الشوارع والطرقات إذا مر بهم الرهبان والقساوسة احتراماً لهم.

النظم العالمية والعولمة:

خرج الغربيون النصارى من بلاد المسلمين عقب استعمارهم لها بعد أن زرعوا عملاءهم، ومكنوا لأبنائهم، وضمنوا هيمنتهم في شتى المجالات، ولم يعد الشرق الإسلامي مصدر قلق لهم، وقضوا على خلافته، وفتتوا دولته وجزَّؤوه إلى دويلات صغيرة. كما نتج عن ذلك انتشار البغي والظلم؛ لأن القيادة والسيادة انتقلت من المسلمين - الذين يدينون بدين الحق والعدل مع الناس كلهم - إلى غيرهم سواء أكان هذا الغير أهل الكتاب - اليهود والنصارى - أم الملاحدة العلمانيين الماديين - الليبراليين والماركسيين وغيرهم من أصحاب النظريات المادية. ومن أجل إضفاء الشرعية على ممارسات الظلم

التي قام بها النصارى - المتدينون منهم والعلمانيون - في عصر سيادتهم وقوتهم فإنهم اخترعوا المجمعات الأممية، وأسسوا المؤسسات الدولية التي يمررون قراراتهم وتوصياتهم الجائرة عبر مجالسها واجتماعاتها. وجاءت فكرة هذه المؤسسات الدولية في نهاية الحرب العالمية الأولى حينما بات من الواضح انتصار الحلفاء على ألمانيا والدولة العثمانية؛ إذ كان النظام الدولي قبل الحرب قائماً على توازن القوى بين الدول الأوروبية الكبرى وكانت بريطانيا هي الطرف الأقوى في هذا النظام لحفظ التوازن، وبعد الحرب تبنى أصحاب الرأي وقادة الفكر في المجتمعات الأوروبية الدعوة إلى بناء نظام دولي جديد على أساس تكريس الهيمنة والسيادة الأوروبية على العالم، وتسخير عصبة الأمم لرعاية هذه السيادة وتنظيمها[١].

وبعد الحرب العالمية الثانية وهزيمة دول المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان) على يد قوات التحالف اجتمع قادة الحلفاء (أمريكا والاتحاد السوفييتي وبريطانيا) في قمة يالطا عام ١٩٤٥م لإعادة رسم الخريطة العالمية وتوزيع مناطق النفوذ بين المنتصرين في الحرب، ثم تحول شكل النظام الدولي إلى القطبية الثانية بعد تكوين حلف الأطلسي عام ١٩٤٩م وامتلاك الاتحاد السوفييتي القنبلة الذرية وتكوين حلف وارسو عام ١٩٥٥م[٢].

وتحيزت دول العالم الثالث إلى أحد المعسكرين - الاشتراكي الشرقي، أو الليبرالي الغربي - واندفعت إلى صراع محموم وتنافس رهيب على امتلاك الأسلحة الفتاكة والدخول في حروب شعواء لمصلحة أحد المعسكرين مما أدى إلى فساد العمران واستنزاف الأموال، وإفقار الدول التي سموها دول العالم الثالث.

وبعد أزمة الخليج وترنح الدب الشيوعي وتفكك الاتحاد السوفييتي تحولت السيادة ومن دون منافس إلى أمريكا الرأسمالية البروتستانتية المحكومة باللوبيات الصهيونية، وهذه الزعامة القطبية لأمريكا جعلت رئيسها بوش عقب أزمة الخليج يفصح عن الغرور الأمريكي والابتهاج بحكم العالم حينما رسم خطوط النظام العالمي الجديد الذي تديره بلاده أمام الكونجرس فكان من قوله: كانت الولايات المتحدة على مدى قرنين من الزمان هي مثل العالم الأعلى في الحرية والديمقراطية، وقد حملت أجيال متعددة راية النضال للحفاظ على الحرية وتعظيم المكاسب التي حققتها، واليوم وفي عالم يتحول بسرعة شديدة فإن زعامة الولايات المتحدة لا غنى عنها[٣]. وفي مناسبة أخرى قال في زهو وغرور: لقد أنقذنا أوروبا، وتغلبنا على الشلل، ووصلنا إلى القمر، وأضأنا العالم بثقافتنا، والآن ونحن على مشارف قرن جديد نسأل: لمن ينسب هذا العصر؟! إنني أؤكد أنه سيكون عصراً أمريكياً آخر[٤].

ما الذي يريدونه في عصر النظام العالمي الجديد (العولمة)؟!

لقد تكفَّل أهل الكفر بتفتيت العالم الإسلامي وفرض سيادتهم عليه، ونهب ثرواته، وتصدير نظمهم إليه، لكن القصعة المستباحة كانت مقسمة بين الشرق والغرب وبعد سقوط الشيوعية ضمن الغرب الاستئثار بها وحده، ولم يبق ما يزعج الغرب النصراني العلماني إلا تفوق العالم الإسلامي في النواحي الاجتماعية،

(١) انظر: النظام الدولي الجديد، ياسر أبو شبانة، ١٧، والإسلام والنظام العالمي الجديد لمولاي محمد علي، ترجمة أحمد جودة السحار، ١٢ - ١٣، والنظام العالمي الجديد ملامح ومخاطر، د. شفيق المصري، ٣٤.

(٢) انظر: تغيير العالم، سلسلة دار المعرفة، رقم ١١، ص ٢٤ - ٢٩، والنظام الدولي الجديد لأبي شبانة، ١٧.

(٣) أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد، د. حسن نافعة، ١٢٧، والنظام الدولي الجديد، ياسر أبو شبانة، ٣١.

(٤) النظام الدولي الجديد، ٣١، عن: ما الجديد في النظام الدولي، مجلة مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٨، ص ٣.

ومحافظته على نظام الأسرة، مما جعل قوى الشر تتواصى بالاختراق الثقافي وتجتمع على إفساد الأسرة المسلمة عبر مقررات المؤتمرات الدولية: مؤتمرات السكان والإيواء البشري والطفل والمرأة، وفرض المقررات الإلحادية على البلاد الإسلامية وربطها بالسياسة والاقتصاد والحصار لتأخذ صفة الإلزام بعد إخفاق التوصيات والنصائح، ولم تفلح المنظمات المشبوهة التي تسوّق لهذا الإلحاد والفساد، وفُضح القائمون عليها من عملاء خونة خانوا دينهم وأوطانهم.

هل يريدون تنصير العالم الإسلامي أم علمنته؟!

يبدو أنه لا فرق بين الأمرين؛ لأن الكنيسة تعلمنت، والعلمانية أحست بضرورة وجود الكنيسة؛ فالصراع زال، وحل محله الوفاق ليقوم كل بدوره تجاه أبناء النصرانية العلمانيين وتجاه غيرهم.

لقد ثار الغرب ثورة الحرية على الكنيسة وقيودها، وأعلن العلمانية فانتهى بذلك دور الكنيسة، وتحول الغربي إلى مادي حيواني يعب من شهواته ويشبع غرائزه ويعيش يومه ولا يفكر في غده ولا يؤمن بالحساب، ومنذ تلك الثورة ظلت الكنيسة تغازل العلمانية، وتخطب ودها بما يقدمه رجال الدين النصراني من تنازلات لإرضاء الماديين حتى خرقوا أنظمة الكهنوت، وخالفوا تعليمات أناجيلهم المحرفة، وأباحوا للناس ما أجمعت الشرائع والعقول والفطر السليمة على تحريمه من زواج الرجال بالرجال والنساء بالنساء وسائر أنواع الشذوذات، كما قالت مجموعة أبناء الرب[*]: إن الخوف من الزنا لم يعد له مكان، وإن عمليتي اللواط والسحاق مباحتان ما دامتا تتمان في جو من الحب، وقال ديفيد جاكس المتحدث باسم هذه المجموعة: «إن تقديم العون الجنسي واجب على كل فرد، وإن أفراد المجموعة من النساء مطالبات بتقديم كل ما يمكن أن يغري أعضاءً جدداً»[1]، وأنه لا بد من تغطية نفقات المجموعة من بيع الجنس إذا اقتضى الأمر!![2].

ولا أدل على علمنة الكنيسة من إعلان عدد من جماعات التنصير في أمريكا وهولندا وإيطاليا والسويد وألمانيا والدانمارك وأسبانيا وإنجلترا رفضهم للوصايا العشر التي جاءت في شريعة موسى، والتي تعد أهم دعائم النصرانية، واعتبر بعضهم أن هذه الوصايا انتهت وانتهى زمانها[3].

وفي المقابل ثبت لدى العلمانيين الغربيين حاجة الفرد إلى الكنيسة؛ لأنه مفطور على التعلق بالله سبحانه وتعالى؛ لا سيما بعد فُشُوِّ أمراض القلق والجنون والفصام وغيرها من الأمراض النفسية في الغرب، وقد أدى كثير منها إلى الانتحار، فباركت العلمانية تنازلات الكنيسة، ولم تمانع من وجودها بعد فقد سلطانها لإشباعٍ روحيٍ زائف.

عولمة التنصير:

مما سبق نفهم تآزر القوى العلمانية مع العصابات الكنسية في عملية التنصير الضخمة التي قد شحن الغرب إمكانياته لإنجاحها. وبات من الواضح تحول

(*) هي حركة تنصيرية نشأت عام ١٩٦٩م في أمريكا واسمها الرسمي (أبناء الرب وأسرة الحب) وتقوم على أساس التنصير عن طريق الجنس وتختار المنصرات الجميلات للقيام بهذه المهمة القذرة، وللأسف فإن لهذه الجمعية فروعاً في كثير من الدول الإسلامية.

(١) قارن هذه التنازلات في سبيل جذب الناس للكنيسة بما افتراه عدد من التنويريين على الإسلام من أنه يجيز الاختلاط والموسيقى والفن والتمثيل والرقص إذا كان ذلك في مصلحة الدعوة وسبباً لالتزام الشباب والشابات بالإسلام بدل أن يتجهوا للموسيقى والرقص والغناء الغربي الذي لا يجوز عندهم، وتنازلات أخرى فيما يتعلق بالولاء والبراء وإلغاء جهاد الطلب وأحكام أهل الذمة وغير ذلك كثير وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «لتتبعن سنن من كان قبلكم».

(٢، ٣) فضائح الكنائس، مصطفى فوزي غزال، ٩٢.

الغرب من التنصير الفردي إلى التنصير الجماعي لسببين رئيسين:

١ – أن التنصير الفردي بطيء جداً لا يتناسب وعصر السرعة، ولا يتناسب مع اتساع رقعة العمل الفسيحة أمام المنصرين الذين يمكنهم الدخول إلى أي مكان ما دامت قوى الغرب السياسية تنفرد بالقرارات وتدير المنظمات الدولية.

. ٢ – أن التنصير الفردي يؤدي إلى اقتلاع الفرد من بيئته ومجتمعه مما يجعله مشلول الإرادة، منبوذاً من قومه مما يكون سبباً في رجوعه، وإن بقي على نصرانيته يصبح عبئاً على الكنيسة التي نصّرته، ولن يستطيع التأثير فيمن حوله.

والتنصير الجماعي يعني نقل أمة من الناس ـ قبيلة أو قرية أو مدينة كاملة ـ من الإسلام إلى النصرانية لكيلا يحس أحد منهم بالغربة، والوسيلة لتحقيق ذلك هو استغلال الأزمات والكوارث، وربما افتعالها من قِبَل مَنْ بأيديهم القرار السياسي والعسكري والاقتصادي للتدخل في بلد ما وإيجاد أزمة تخنق شعبه، ومن ثم تقوم الهيئات والمنظمات التنصيرية بإكمال باقي المهمة بتنصير هذا الشعب الذي يعيش الأزمة، وهذا ما نص عليه مؤتمر كولورادو التنصيري؛ إذ جاء في إحدى فقراته: (لا بد من وجود أزمات معينة ومشكلات وعوامل إعداد وتهيئة تدفع الناس أفراداً وجماعات خارج حالة التوازن، وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية)[(١)].

وليس هذا يعني بالضرورة التنسيق الكامل بين الدوائر العلمانية صاحبة القرار في الغرب وبين المنظمات التنصيرية حتى لا يقال: إن هذا من إفرازات فكر المؤامرة ولكنه تقاطع المصالح؛ فالقوى السياسية والعسكرية والاقتصادية في الغرب تخنق شعوب العالم الثالث لإثبات القوة والغطرسة أو لنهب ثرواتها أو لتأديب من يرفض قوانينها الجائرة، والهيئات التنصيرية تستغل فرص التجويع والإفقار والحصار لتقوم بانشطتها التنصيرية، ومن سيمنعها من ذلك إذا كانت الدولة المحاصَرة نفسها لم تستطع فك الحصار عن نفسها أو اختراقه فضلاً عن منع المنصرين من مد يد العون والمساعدة لشعبها المجوَّع المحاصر؟!

ولن يتوقف النصارى عند هذا الحد؛ إذ صرحوا بلزوم التدخل في شؤون الدول التي فيها أقليات نصرانية بزعم حمايتها من اضطهاد المسلمين مع أن هذه الأقليات تحظى في بلاد المسلمين بما لا يحظى به المسلمون من الرعاية والتكريم بل والذلة لهم وتنفيذ مطالبهم وإظهار شعائر شركهم تحت قيادة الحكومات العلمانية، ومع ذلك لم يرتض الغرب المنتصر هذه السيرة ولن ترضيه حتى يجعل الأقليات النصرانية حاكمة على المسلمين أو تنفصل عن الدولة لتشكل دولة نصرانية كما حصل في تيمور الشرقية وكما يريدون حصوله في جنوب السودان.

وفي زمن العولمة لن يستطيع أحد منعهم من التدخل في شؤون الدول الداخلية؛ لأن القوة بأيديهم والمنظمات الدولية تأتمر بأمرهم، وتصدر قراراتها على ضوء توجهاتهم، ثم إذا منعتهم وصار قرارهم وتدخلهم فردياً فمن سيعاقبهم ويحاصرهم؟! وقد ضربت السودان وأفغانستان بقرار فردي لصرف الأنظار عن فضيحة جنسية؛ فهل عوقب الضارب؟ وهل حوصرت دولته؟!

حوارات الأديان خطوة تنصيرية:

كان غلاة الصوفية الأقدمون دعاة وحدة الوجود والاتحاد والحلول يرون صحة كل طريق يوصل إلى الله ـ تعالى ـ سواء أكان حقاً (الإسلام) أم باطلاً كاليهودية والنصرانية والوثنية وغيرها. وأجاز بعضهم التهود

(١) انظر: تنصير المسلمين لعبد الرزاق ديار بكر لي، ٢٤ ـ ٢٦.

والتنصر ورجحه بعضهم على دين الإسلام وقد كشفهم شيخ الإسلام ابن تيمية ونقض باطلهم(١).

وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري بعثت هذه الدعوة وتبنتها الماسونية، وأقنعت بها الأفغاني ومحمد عبده الذي أسهم في تأليف جمعية في بيروت باسم (جمعية التأليف والتقريب) هدفها التقريب بين الأديان الثلاثة(٢).

وفي السنوات الأخيرة تبنى الفرنسي روجيه جارودي إحياء دعوة (لويس ماسينون)(٣) المتمثلة في ربط الأديان التوحيدية الثلاثة بنفس الشبكة، وذلك من خلال وصلها بالإيمان الإبراهيمي على اعتبار أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أبو الأنبياء، وقد أفصح جارودي عن هذه الحقيقة بقوله: «لقد عرفت الإيمان الإبراهيمي عن طريق Kierkegaard واليوم أقوم بهذه المبادرة ـ الحوار الإبراهيمي ـ بالاشتراك مع أصدقائي اليهود والكاثوليك والبروتستانت؛ فإني أتابع المسير بقصد تجميع الإيمان الإبراهيمي، وما أجده اليوم في القرآن من أن إبراهيم هو أبو الأنبياء قد وجدته منذ عشرين عاماً»(٤) وقد عقد جارودي العديد من المؤتمرات وأنشأ معهداً لهذا الغرض في قرطبة الأندلسية وبيّن أن لهذا المعهد توجهات عالمية لنشر نتاج الثقافات الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلامية وتعاليمها من خلال علاقة الإنسان بالإله والطبيعة والفرد وهو مركز دراسات لوحدة هذه الأديان(٥).

وللأسف فإن جارودي خدع بعض السذج من المسلمين وجمع منهم التبرعات لإنشاء هذا المعهد المشبوه، وحصر إدارته في اليهود والنصارى زاعماً السعي لنشر ثقافة الأديان الثلاثة!!

وقبل عدة أشهر نشرت بعض الصحف الغربية أن مؤتمراً للتقريب بين الأديان سوف يعقد تحت مظلة الأمم المتحدة وسيدعى إليه بابا الفاتيكان وممثلو مختلف الكنائس النصرانية وحاخامات اليهود إضافة إلى رؤساء كبار العلماء والمجامع الفقهية والبحوث الإسلامية ورئيس الأزهر وأئمة المساجد الثلاثة المكي والنبوي والأقصى.

والقصد معروف من هذه الدعوات التي تريد إذابة الإسلام في مناهج الذين كفروا، وليست حواراً حقيقياً ـ كما يظن المخدوعون ـ يقوم على المناظرة وقرع الحجة بالحجة وإحقاق الحق وإبطال الباطل، وذلك واضح في تقرير البروفيسور النصراني (ديون كراوفورد) الذي كتب تقريراً مطولاً عن حوارات الأديان التي يتبناها النصارى وكان من ضمن ما كتب: «ينبغي أن تتحول العلاقة بين المسلمين والنصارى من علاقة المواجهة السابقة إلى علاقة حوار، على ألا يؤدي هذا الحوار إلى المساومة على النصوص الإنجيلية من أجل تنمية الحوار، وهذا ما لا يجوز؛ فالحوار لا ينبغي أن يكون بديلاً عن التبشير بالإنجيل، وعلى المسلمين أن يفهموا أن الحوار يستهدف كسبهم إلى صف النصارى، وينبغي على النصارى أن يخالطوا المسلمين ويصادقوهم، وأن يستغلوا ذلك في إزالة سوء الفهم الراسخ في أذهانهم تجاه الإنجيل والمسيح»(٦).

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ٤/٢٠٣ ـ ٢٠٨، ١٤/١٦٤ ـ ١٦٧و ٢٨/٥٢٣، والصفدية، ١/٩٨ ـ ١٠٠، ٢٦٨، والرد على المنطقيين، ٢٨٢، ٢٨٣، عن الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان للعلامة، د. بكر أبو زيد، ١٧ ـ ١٨.

(٢) انظر: المصدر السابق، ٢٠.

(٣) يعمل أستاذاً للعلوم التاريخية والسلالات في جامعة باريس ودعوته تلك في كتابه المعنون بـ (العرب). انظر: سلسلة تقارير المعلومات الصادر عن وزارة الأوقاف الكويتية، ١/٩٧، رقم التقرير، ١٤/٨٧.

(٤) مجلة (Cambio) في ٩/٢/١٩٨٧م، ص ١٩، عن سلسلة تقارير المعلومات، ١/٩٨.

(٥) انظر: سلسلة تقارير المعلومات، ١/١٥، تقرير رقم ٣٠/٨٧.

(٦) مجلة البحوث الإفريقية، ديسمبر ١٩٨٦م، عن الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب، د. كرم شلبي، ٣٢.

تنبيهات مهمة:

في ختام هذا العرض المختصر أنبه إلى أمور ثلاثة مهمة هي:

١ – أن الحرب بين المسلمين والنصارى ستستمر إلى نزول عيسى ـ عليه السلام ـ وقتله للدجال والخنزير، وكسر الصليب، والحكم بشريعة أخيه محمد ﷺ كما تواترت بذلك الأخبار في السُّنَّة النبوية[1]. وهيمنة النصارى العسكرية والسياسية والاقتصادية بل والثقافية لن تكون مطفئة لأحقاد النصارى على المسلمين حتى يردوهم عن دينهم كما هو قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] وفي الأحاديث الواردة في شأن الدجال قال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق ـ أو بدابق ـ فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ...»[2] وذكر فيه انتصار المسلمين وخروج الدجال وهم يقتسمون الغنائم مما يعني أن حوارات الأديان والسلام ونشر ثقافة المحبة، وانتهاء عصر الحروب... وغير ذلك من الادعاءات مجرد أمانٍ ينخدع بها من لا يحسنون التلقي عن الكتاب والسنة.

٢ – أن واجب المسلمين هو مدافعة الشر ومقاومة أهل البغي والظلم والكفر بكل ما أوتوا من قوة عملاً بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فالسلاح وبناء الجيوش قوة، والكلمة الطيبة التي تفضح بها مخططات الأعداء والمنافقين قوة، والإلحاح على الله ـ تعالى ـ بالدعاء على الأعداء قوة، والتمسك بالإسلام والدعوة إليه قوة. والضعف هو في التخلي عن أحكام الإسلام أو تمييعها لإرضاء الأعداء، أو تفصيل شريعة الإسلام على أهواء الناس ومطالبهم. ونحمد الله ـ تعالى ـ على أنه لم يكلفنا بالنتائج وإنما طلب منا العمل فحسب: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

٣ – أن الغلبة في النهاية لأهل الحق على أهل الباطل ولو زخرفوا باطلهم وزينوه وكانت وسيلته الفضائيات والإنترنت، ولو كان مدعوماً بالترسانات النووية والذرية والبيولوجية وغيرها؛ فإن جند الله ـ تعالى ـ أقوى؛ ومن جنده ـ سبحانه ـ الزلازل، والأمراض والكوارث والرعب: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

بيد أن الذي يستحق نصر الله ـ تعالى ـ وتأييده هم عباده الذين استجلبوا نصره بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده، والدعوة إلى الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح النفس والبيت والسعي في نشر الصلاح في الأمة كلها.

أسأل الله ـ تعالى ـ أن ينصر دينه وأن يدحر الكفر وأهله؛ إنه سميع مجيب.

---

(١) انظر في ذلك مثلاً: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة محمد ﷺ.

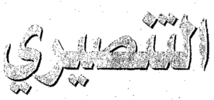
(٢) أخرجه مسلم في الفتن، باب فتح القسطنطينية، ونزول عيسى بن مريم (٢٨٩٧).

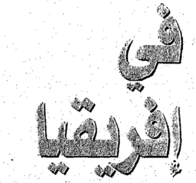


التنصير.. هل أصاب الهدف؟ (٢ـ٣)









أبو إسلام أحمد عبد الله (*)

لم تتعرف إفريقيا على عقيدة النصارى قبل السنوات الأخيرة التي شهدت نهاية الإمبراطورية الرومانية في شمال إفريقيا على يد المسلمين.

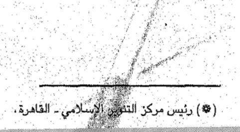
ومع أول عهد انتشار الإسلام في هذه المنطقة، لم يكن للنصارى غير مملكة قبطية في بلاد النوبة (شمال أم درمان بالسودان) كانت تسمى مملكة ميروي (Meroe) رفضت دعوة التوحيد، وظلت على شركها في ظل الدولة الإسلامية، حتى عام ١٤٠٥م نصرانية، عندما هاجمتها قبائل الفونج الوثنية فقضت عليها، لتعود إفريقيا مرة أخرى بين وثنية تجذرت بجهالاتها وبين عقيدة إسلامية تنتشر كنسمات الربيع التي يفوح عبقها مع موجات الهواء البارد لترطب من حرارة خط الاستواء في قلوب الأفارقة المهتدين، بدون إرساليات طبية أو بعثات تعليمية أو خطط تنصيرية أو احتلال أرض أو عبودية بشر، أو جيوش لا تعرف غير الظلم وسفك الدماء.

كانت إفريقيا بالنسبة للنصارى عندما هجموا عليها كقطعة لحم جافة تسابقت إليها الكلاب لتنهش منها ما يسد نهمها، لم تكن الغاية هي المسيح، ولا رب المسيح، ولا المسيح الرب (عندهم)، إنما كانت توسيع رقعة النفوذ في مواجهة الصراعات السياسية والعقدية التي سيطرت على كل أنحاء أوروبا، وممارسة حياة البلطجة وقطع الطرق والسرقة التي كانت تجتاح كل بلاد الغرب، إلى أن بدأت سياسة احتلال البلاد في إفريقيا وآسيا، ونهب ثرواتها واستعباد شعوبها، فيما يعرف بالحملات الاستكشافية أولاً، ثم الحملات الصليبية بعد ذلك.

وتحت ظل هذه الحملات تحركت الكنيسة الكاثوليكية من فرنسا ثم من بلجيكا والبرتغال وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا، كما تحركت الكنيسة البروتستانتية الإصلاحية من إنجلترا ثم فرنسا وسويسرا وألمانيا واسكندناوا وأمريكا، جاعلة لنفسها مقراً دولياً في منطقة جنوب إفريقيا.

ومن أشهر طوائف البروتستانتية الذين نشطوا في قارة إفريقيا عموماً هم الإنجيليكان، والميثودست، والبرزبيتاريان ثم اللوثرية وجمعيات الباتست Baptistes والأدفنتست Adventistes وبرج المراقبة Watch Tower المعروفة بجماعة شهود يَهْوَه وهي الجماعة الوحيدة التي حالت الكنائس البلجيكية وحكوماتها دون السماح لها بالدعوة في منطقة الكونغو حتى اليوم.

وقد أدت هذه التعددية اللامحدودة في مذاهب وملل واعتقادات النصارى التي هرعت إلى الأرض الجديدة، إلى إثارة الفتن والعصبية وإشعال الحروب الضارية بين القبائل الإفريقية على مستويين:



(*) رئيس مركز التنوير الإسلامي ـ القاهرة.

- ففي الداخل بين من ترك الوثنية إلى النصرانية أو اعتنق مذهباً نصرانياً يخالف مذهب الآخر، لا داخل القبيلة فحسب، إنما داخل الأسرة الواحدة وداخل العشيرة الواحدة، بين الأب وأبنائه، وبين الأشقاء، وبين الزوج وأصهاره.

- وفي الخارج: بين القبائل بعضها مع بعض لارتداد بعضها عن الوثنية، أو لاختلاف المذاهب والملل التي اعتنقوها مجدداً من النصرانية.

وهكذا سالت دماء المئات والألوف من أبناء إفريقيا بأيديهم ثمن هذه الفتنة، إلى أن لجأت كل الإرساليات النصرانية إلى أسلوب جديد، يحافظ على الطقوس والعبادات الوثنية التي تربط بين القبائل بعضها ببعض، والإبقاء عليها إلى جانب طقوس النصرانية وعباداتها، وإن اختلف ذلك عن أصولهم العقدية، وهو ما وصفوه بالنسبة للنصراني الزنجي الجديد بكلمتي «الموت الذاتي» أو «الاحتضار المعنوي» للدلالة على خطورة ذلك الانقلاب في حياة الرجل الإفريقي.

ولكن برغم الجهود الجبارة التي بُذِلَت، والأموال الطائلة التي أنفقت، وعشرات الأرواح التي أُزهقت بين المنصرين بسبب الأمراض التي كانت تنتشر في البلاد الإفريقية، فإن حصاد النصرانية كان شيئاً لا يذكر ولا يتناسب مع الجهود والأموال والتضحيات التي خسرتها الكنائس وإرسالياتها، حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

إذ مع الحرب العالمية الأولى على وجه الخصوص، ولأسباب سياسية وعسكرية واقتصادية متعددة، يمكن القول إن النصرانية بدأت تجني ثمار كل السنوات السابقة، وأن تعيد الحيوية إلى البذور التي تناثرت هنا وهناك وحافظت على بقايا طقوس تنتمي إلى عقيدة النصارى بشكل مباشر أو غير مباشر.

مع بداية القرن العشرين تنبهت الكنائس الغربية إلى أخطائها في أساليب الدعوة على سواحل إفريقيا، ففرضت على أعضاء البعثات والإرساليات اتباع خطط مرسومة تقضي بدراسة تلك البيئات دراسة شاملة، وتَفَهُّم نظمها الاجتماعية وعاداتها وتقاليدها ولغاتها.

كما فرضت على الأعضاء ضرورة الاختلاط بالسكان وقبول بعض طقوسهم الدينية الوثنية وتقديرها بما يرضي الوثنيين، بل ومحاولة إيجاد مساحة لذلك القبول في العقيدة النصرانية، وعدم العمل على محوها، إنما التغلغل فيها والاستفادة من أي بذور صالحة بها، وقبول بعض العادات الوثنية واعتبارها عادات نصرانية تحتفل بها الكنيسة.

كما تنبهت الكنيسة الغربية إلى ضرورة إعداد وتدريب وتعيين قسس من الإفريقيين، وإنشاء مدارس ومعاهد لهذا الهدف بدعم مباشر من بابا روما بيوس الحادي عشر، ثم بيوس الثاني عشر.

لكن كلمات هوبير ديشان[1] ما زالت تحفر حروفها في عقل الكنيسة الغربية يوم أن قال: «لكن كسب الإسلام لأقوام جديدة ما زال يندفع كالسيل يكتسح ما أمامه، وامتداده في المناطق العريضة نحو الشمال وإلى الشرق رائع حقاً، أما مطاياه إليها فكانت اللغات الواسعة الانتشار في التفاهم، وهي لغات قبائل أولوف وبيل وماندانج وهوزا والسواحلية.

ثم يقرر ديشان قائلاً: «وسوف تظل المواجهة بين الإسلام والنصرانية في إفريقيا، وسوف تظل أيضاً مصائر هذه القارة متوقفة على إجابة السؤال: ترى أيهما ينتصر؟ الإسلام الشرقي أو المسيحية الغربية»[2].

الإرساليات الأولى على سواحل إفريقيا:

في العام ١٤٩١م أعلن أول ملك من ملوك إفريقيا اعتناقه للعقيدة النصرانية وهو ملك الكونغو، الذي مات

---

(١) هوبير ديشان: حاكم المستعمرات الفرنسية في إفريقيا (سابقاً) وأستاذ بمعهد الأجناس البشرية ومعهد الدراسات السياسية بجامعة باريس.

(٢) هوبير ديشان: ترجمة أحمد صادق حمدي، راجعه الدكتور محمد عبد الله دراز: الديانات في إفريقيا السوداء، إشراف إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم بمصر، سلسلة ١٠٠٠ كتاب، دار الكتاب المصري، القاهرة ١٨٩٥٧، ص ١٥٦.

بعد تنصُّره مباشرة، وخلفه على العرش ابنه، فعمّدته إحدى الإرساليات التنصيرية باسم «ألفونسو» وزوّجته واحدة من بناتها، فلما أنجب «ألفونسو» ولداً منحه منصب أسقف عام الكونغو، وأصدر قراراً بتغيير اسم العاصمة من بانزا كونغوا Mbanza Congo إلى اسم ساو سلفادور إحدى المناطق الشمالية بأنجولا الآن، وأعد مجموعة من أهالي البلاد للدعوة إلى دين النصرانية ومنحهم رتبة القساوسة.

في العام ١٦١٠م أسس البرتغاليون أسقفية نصرانية في مدينة لواندا Loanda على ساحل أنجولا الشمالي، لكنها لم تحرز أدنى نجاح في أداء مهمتها فاغلقت أبوابها على من فيها لعدة سنوات، ثم بيعت بعد ذلك.

في العام ١٦٣٠م اعتنق زعيم مومباسا Mombaz (ممبسه) على الساحل الشرقي لكينيا عقيدة النصرانية، لكنه سرعان ما رجع عنها واعتنق دين الإسلام.

في العام ١٦٥١م أعلن مونوموتابا Mono-motapa ملك موزمبيق تركه للوثنية واعتناقه للنصرانية، استجابة لدعوة إرساليتين إنجيليتين كانتا قد استقرتا في حوض نهر زامبيزي، إحداهما يسوعية والأخرى دومينيكانية، أغدقا عليه الأموال، وسارا معه في استخدام الأرواح التي كان يعتقد بها في وثنيته.

وفي العام ١٦٦٥م أتت هجمة تنصيرية بروتستانتية من هولندا إلى سواحل جنوب إفريقيا، فقامت بتدمير جميع المؤسسات والكنائس والإرساليات التي كان قد أسسها البرتغاليون من قبل، ثم وضعوا أيديهم على منطقة رأس الرجاء الصالح؛ حيث نزل على أرضها أول قسيس بروتستانتي، لا ينافسه قسيس آخر من أي ملّة نصرانية أخرى.

وهكذا، منذ بداية القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن السابع عشر النصراني وبداية القرن الثامن عشر، بقيت الدعوة السائدة بين وثنيات إفريقيا الجنوبية، هي دعوة الإسلام، لإخراج الناس من ظلمات الجهل والجاهلية وعبادة الأمطار والأنهار والجن والأحجار إلى عبادة الواحد القهار، وبقي الوجود النصراني محصوراً ومحاصراً في بقع محدودة للغاية.

ويعلن هوبير ديشان مؤلف كتاب الديانات في إفريقيا السوداء[1] قائلاً: «لكن تلك الجهود كلها، قضى عليها اضطراب الأحوال السياسية، والثورات، والجيوش التي كان يستعين بها تجار الرقيق، وارتداد الكثيرين إلى عقائدهم الوثنية القديمة، ولم يبق من كل ذلك إلا علامة الصليب التي اندمجت في المراسيم الوثنية».

مائة عام بلا حصاد:

مع بداية القرن الثامن عشر دخل الأسبان ميدان التنصير، بعد ما سمي بثورة الإصلاح في فرنسا عام ١٧٦٩م ثم في أوروبا كلها، ورحلت عدة بعثات تنصيرية كقوافل طبية وتجارية إلى عدة مناطق، ولاقت إقبالاً كبيراً من بعض الملوك الوثنيين، وبقايا من النصارى والمتنصرين.

فقد وجه الملك الادا Allada ملك داهومي (بنين) الدعوة إلى إحدى هذه البعثات، لتنشيط حركة التجارة في بلاده؛ فلما استوضح غرض البعثة وهي التنصير طردها من بلاده وأوقف كل نشاط مع الهيئات الأوروبية.

فلجأت بعثة تنصيرية فرنسية إلى أسلوب آخر، وهو دعوة الملوك أو أبنائهم لزيارة فرنسا، فدعت أنيابا Aniaba ابن أمير ساحل العاج، لزيارة الكنيسة الفرنسية الكبرى، بمدينة سايل، حيث أعلن الابن نصرانيته وخضع للتعميد الذي قام به القس الشهير بوسيويه Bossuet، فكان لذلك الحدث رد فعل كبير لدى السلطة الكنسية الفرنسية، التي استضافته في قصر الملك لويس الرابع عشر، حيث أعلن الابن اتخاذ الملك أباً روحياً له، فلما عاد أنيابا إلى بلاده ساحل العاج، أعلن ارتداده عن النصرانية والعودة إلى الوثنية دين آبائه.

ومثلما فعل نصارى البرتغال وهولندا وفرنسا،

---

(١) هوبير ديشان: مصدر سابق، ص ١٩٠.

حاولت الكنيسة الألمانية أن تحقق شيئاً في مواجهة المد الإسلامي بإفريقيا، فاختارت العمل بين قبائل تعرف بالهوتنتوت ولكنها لم تحقق أي نجاح.

ويقول هوبير ديشان: «حتى نهاية القرن الثامن عشر كان تعداد النصارى - في كل أرجاء إفريقيا - عشرين ألفاً من البيض، وبضع مئات من العبيد، ومع بداية القرن التاسع عشر لم يكن للنصرانية قدم ثابتة في مكان ما في إفريقيا السوداء، إذا استثنينا نقطاً ضئيلة على الساحل»[1].

ثم يستشهد ديشان على صدق استنتاجه هذا بما كتبه المنصر الإنجليزي وليم شو W.show عام ١٨٢٣م من مكتب إرساليته بمستعمرة رأس الرجاء الصالح قائلاً: «إنه لا يوجد أي بعثة تنصيرية فيما بين المكان الذي أعيش فيه وبين أبعد نقطة في شمال البحر الأحمر»[2].

التركيز الصليبي على الجنوب الإفريقي:

مع بداية القرن التاسع عشر توغلت حركة الكشف الأوروبية في قلب إفريقيا، وكثرت البعوث والإرساليات الدينية التنصيرية، ثم تبعتهما حركات الاحتلال الأجنبي الذي فتح الطرق المسدودة أمام التنصير، فكان هذا القرن حقاً هو العصر الذهبي للتنصير في إفريقيا، ولم يبدأ القرن العشرون إلا وكان للنصرانية تواجدها المحسوس والملموس والمرئي بشتى مذاهبها ومللها وكنائسها.

كان النشاط أكثر تركيزاً في إفريقيا الجنوبية؛ إذ بدأ برحلات الهجرة التي قام بها مئات من الهولنديين البروتستانت البيض، فاستوطنوا الأرض وتوغلوا فيها، لكن دون أن تتوفر أي دلائل على أن فكرة تنصير الزنوج مطروحة في عقولهم؛ إذ كان الهدف في هذه الفترة هو الهروب من أوروبا المتصارعة الفقيرة المتخلفة إلى حيث السيطرة على قبائل الزنوج واحتلال أراضيهم وثرواتها.

ولم تتوفر أي إشارة في الوثائق المتوفرة لدينا تدل على أن هناك إرسالية تنصيرية بالمفهوم الديني قد مارست الدعوة بين الأفارقة الجنوبيين قبل عام ١٨٤١م، عندما بدأ ذلك في مستعمرة الرأس المنصران الإسكوتلانديان روبرت موفات R.Moffat ودافيد ليفنجستون D. Livingstone وهما طبيبان اهتما برحلات الاستكشاف داخل مجاهل إفريقيا، لخدمة عملهما بالتنصير.

أسس الطبيبان مركزاً للتنصير بين قبائل بتشوانا، ومارسا مهنة الطب البدائي بين الناس، فاستخفوا بهذا المركز ولم يعيروا وجوده ودعوته اهتماماً أكثر من اهتمامهم بالذهاب إليه لمعالجة جروحهم وأمراض العيون المنتشرة بين أطفالهم، إلى أن أغارت إحدى القبائل المجاورة على سكان بتشوانا، فشارك موفات وصديقه في صد هذه الغارة وتنظيم صفوف المدافعين وتوجيههم مما كان سبباً في انتصارهم، خاصة أن الطبيبين كانا يؤكدان في كل أمر يصدرانه، بأنه آت

ميزانيات وأوقاف

- دخل الكنيسة في شمال أمريكا وأوروبا في عام ١٩٩٧م بلغ (٢٠٠) بليون دولار.
- مجلس كنيسة إنجلترا يبلغ دخله السنوي (٢٥٧) مليون جنيه إسترليني، أما الأوقاف المخصصة له فتبلغ (٢٣٨١) مليون جنيه إسترليني.
- خصصت المنظمات البروتستانية في الولايات المتحدة الأمريكية (١٧٢٨) مليون دولار سنوياً للتنصير في الخارج، وذلك لنشر عقائدهم المحرفة في (١٢٢) دولة، من بينها عشرات الدول الإسلامية. - البيان -

(١) هوبير ديشان: مصدر سابق، ص ١٥٧.

(٢) Groves, C.P., The Planting of christianity in Africa, London, 1952. P.196.

باسم «المسيح الرب» الذي حمى قبيلتهم وهزم بقوته الروحية أعداءهم.

واستطاع موفات أن يستغل هذا الحدث الضخم في تاريخ القبيلة، من خلال التحامه المباشر بكبارها، حتى أعلنوا اعتناق النصرانية.

في بتشوانا، تزوج دافيد من ابنة موفات، واستطاع عن طريق زوجته العروس، أن يغزو قلب سيشيله Sechele أحد ملوك بتشوانا، ويملك هو زمام أمره، فعرض عليه النصرانية، ووعده بتزويجه واحدة مثل زوجته، فطلق سيشيله كل زوجاته وحظاياه، أملاً في الزوجة التي لم تأت؛ إذ طلب منه دافيد أن يتنازل أولاً عن دعوى قدرته الإلهية في إسقاط الأمطار؛ لأن هذا يتعارض مع قدرة «المسيح الرب» فاستجاب الرجل، لكن الله يشاء أن تشهد هذه القبيلة أربع سنوات عجاف لم ينزل خلالها مطر حتى أصابها الجفاف التام، مما اضطر دافيد إلى ترك هذا الموقع والذهاب شمالاً حيث استكشف الحياة في حوض نهر زامبيزي الذي يبدأ من الساحل الشرقي لإفريقيا وموزمبيق ويمتد إلى قلب زامبيا، وبدأ هناك دعوته مرة أخرى، ثم اعتاد التنقل والترحال في أدغال إفريقية الجنوبية على ضفاف حوض النهر، على مدى ثلاثين عاماً متواصلة، ترك خلالها آثاراً واضحة في نفوس المئات من أبناء القبائل الإفريقية، رافضاً أن يعود إلى أوروبا ثانية، حتى جاءه الموت فجر أول مايو سنة ١٨٧٣ قرب منطقة بنجويلو Banguelo على الساحل الغربي لإفريقيا وأنجولا فدخل عليه أتباعه الزنوج الذين نجح في تنصيرهم، وتعبيراً عن حبهم له شقوا بطنه بسكين، ثم نزعوا قلبه من صدره، ودفنوه في أرضهم، ثم نقلوا جثته إلى مكان دفن الموتى.

وفي خط متواز تدفقت عدة بعثات أخرى في مناطق الكاب والناتال والترنسفال حتى مستعمرة روديسيا، فنزلت طائفة النصارى المنهجيين (الميثودست) Methodistes، وأسسوا كلية لوفديل Lovedale لتخريج المنصرين والمعلمين، كما أسس فرانسوا كولار F. Coillard مركزاً للدعوة في روديسيا الشمالية بين قبائل باروتسي.

أما الإنجيليكان Angeliccans فقد ركزوا جهودهم في المدن وفي الغابات، واتخذوا أساساً في استراتيجيتهم للدعوة ألا يخالفوا أو ينفوا أي نظام قائم لدى القبائل في سلوكياتهم وعاداتهم وتقاليدهم إلى حد أن أعلن واحد منهم يدعى كولينسو Colenso إباحة تعدد الزوجات في قبيلة كافريه Cafres فعنّفته كنيسته وحرمته من العمل بالتنصير لفترة زمنية.

وفي حين اتجهت البعثات الأمريكية إلى قبائل الزولو، اتجه الألمان الإصلاحيون إلى الجنوب الغربي لإفريقيا، وذهبت البعثات البرتغالية لممارسة نشاطها التنصيري في أنجولا وموزمبيق في الشمال الغربي.

وفي إحصاء غير موثق نشرته إحدى الإرساليات الأمريكية عن انتشار الكرازة (الدعوة) النصرانية في اتحاد جنوب إفريقيا عام ١٩٥٣م جاء على الوجه الآتي:

- الميثودست ٢,١٠٠,٠٠٠ نسمة.
- الإنجيليكان ٨٠٠,٠٠٠ نسمة.
- الكاثوليك ٦٥٠,٠٠٠ نسمة يتركز أغلبهم في رديسيا الشمالية.
- البروتستانت الهولنديون ٦٠٠,٠٠٠ نسمة تميزوا بالنعرة العنصرية، وجعلوا من الكنائس التي أنشؤوها ما هو خاص بالبيض وما هو خاص بالزنوج والملونين.

التنصير في شرق إفريقيا:

يضم شرق إفريقيا عدة ممالك شهيرة، استأثر الجهد التنصيري من بينها بمنطقة تنجانيقا (تنزانيا حالياً) وكينيا وأوغندا ورواندا وشطراً من جنوب السودان.

وقد استطاع المسلمون أن يحققوا مكاسب ضخمة في هذه الممالك كلها خاصة بعد أن كانت الهجمات البرتغالية الأولى قد طردت المسلمين منها، ثم استردها المسلمون ثانية ونشطت دعوتهم وتثبتت أصولهم في السنوات الأولى من بداية القرن التاسع عشر.

واستطاعت إنجلترا أن تحط بقواتها في زنجبار عام ١٨٤٠م بعد أن أخضعت مصر للنفوذ الأوروبي، وكان نفوذ مصر يمتد جنوباً حتى أوغندا، ثم توسع المحتلون في احتلال الأراضي وقهر ملوك القبائل وسرقة أراضيهم

وحيواناتهم مما أفسح الطريق أمام بعض البعثات للعبور إلى كينيا، واستطاع أحد المبشرين الألمان يدعى كرابف Krapf بأن يؤسس أول مركز للتنصير في مدينة ممبسة، وقام هذا المركز بترجمة كتابهم المقدس إلى اللغة السواحلية، مما فتح أمامهم آفاقاً رحبة ومستحدثة للدعوة النصرانية، فأسس مركزاً آخر بمدينة بوجامايو Bogamayo على الساحل المواجه لجزيرة زنجبار، بالتعاون مع منصر آخر يدعى ربمان -Reb mann.

فلما اكتشف أحد القبطان المسلمين ـ ويدعى سليم ـ في العام ١٨٤٢م منطقة البحيرات العظمى، وتمكن لأول مرة من اختراق عقبة السودان النباتية مما جعل النيل منفذاً مفتوحاً إلى سكان البحيرات الاستوائية، هرعت قوات الاحتلال إلى المنطقة وبسطوا سلطانهم عليها، وما لبث أن أرسل جريجوري السادس بابا روما في العام ١٨٤٦م بعثة تنصيرية ضخمة، أنشأت ما أطلق عليه: نيابة إفريقيا الوسطى الرسولية، يبدأ نشاطها من قلب القاهرة ويمتد إلى جنوب أوغندا، ثم أرسلت أول بعثة كاثوليكية معتمدة إلى جنوب السودان لاختراق قلب إفريقيا بقيادة الأب ريلو Rullo. فكان ذلك بمثابة الاختراق الأول لجدار الدعوة الإسلامية في منطقتي شرق إفريقيا، وإفريقيا الاستوائية.

وبرغم هذا الجهد النشط في حماية السلطات المحتلة، فإن دعوة النصرانية ظلت محصورة في المناطق الساحلية دون القدرة على اختراق المناطق الداخلية التي كانت تنتشر فيها دعوة الإسلام.

بل ويؤكد ز. هيل وتونوالو في كتاب لهما صدر عام ١٩٧٤م، أن طوائف تنصيرية متعددة قد توقف نشاطها تماماً مثل الفرنسيسكان، وأُغلقت مراكز تنصيرية مثل مركز تنصير (كاكا) عام ١٨٦٢م(١).

وفي العام ١٨٨٠م تقريباً استطاعت مجموعة من قوافل التنصير النفاذ إلى داخل القارة مرة أخرى، فتمكن المنصرون الألمان على وجه التحديد من بناء عدة مراكز وكنائس في تنجانيقا (تنزانيا) وتمكن المنصرون الإنجليز من بناء عدة مراكز وكنائس في كينيا.

أما في أوغندا فكان النجاح حليفاً للكنيسة البروتستنتية التي نجحت في استمالة متيسا Mtesa ملك البلاد الذي كان متردداً في اعتناق الإسلام، لكنه لما رأى توافد البعثات الكاثوليكية إلى بلاده أيضاً، واقترب

الإيراد الدوري

ـ من المنظمات التنصيرية المشهورة: منظمة (S.O.S) (انقذوا حياتنا)، وهي متخصصة في إنشاء قرى الأطفال حول العالم، تأسست منذ (٤١) سنة، وأنشأت حتى الآن (٣٧١) قرية.

متوسط مساحة القرية الواحدة: مليون متر مربع (١كم × ١كم)، تحتوي على كافة الخدمات التعليمية والصحية والتربوية والاجتماعية.

قُسِّم الأطفال في القرية إلى أسر، كل أسرة مكونة من عشرة أطفال، ترعاهم منذ نعومة أظفارهم أمٌ منصِّرة اختيرت لتربيتهم وتنشئتهم تنشئة نصرانية.

ميزانية هذه المنظمة سنوياً: (خمسة مليارات دولار)!!

قل لي بربك لو أنَّ موازنات المؤسسات الخيرية الإسلامية في أنحاء المعمورة جمعت لسنوات عدة، أتظنها تصل إلى ما وصلت إليه موازنة هذه المؤسسة؟!

ولكن هل تعلم كيف يتم تحصيل هذا المبلغ؟!

يدفع هذا المبلغ ستة ملايين موظف على شكل استقطاع شهري ثابت من الراتب، أربعة ملايين موظف منهم في ألمانيا.

ومن العجائب أن امرأة نمساوية تدفع لهذه المنظمة (١٠٠ دولار) شهرياً منذ (٤١) سنة بلا انقطاع!!

وامرأة أخرى ألمانية تسكن في أمريكا دفعت للمنظمة على شكل استقطاع شهري مبلغاً قدره ثلاثة ملايين دولار!

ـ البيان ـ

(١) أ. ل. شاتلين، ترجمة محب الدين الخطيب وآخر: الغارة على العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩٣١م، ص ١٥ ـ ١٧.

من الصراع الحاد الذي تبودل بين الكنيستين لكسبه، واستشعر تخلف دعاة المسلمين عن مساندته في ظل السلطات المحتلة، فآثر ألا يعتنق ديناً، مفضلاً الموت على وثنيته، وخلفه على الملك ابنه موانجا Mouanga الذي وقع تحت تهديد البعثات التنصرية لإعلان نصرانيته، فأعلن تحديه لهذه التهديدات وأمر بقتل كل نصراني في ديوان مملكته، وأصدر قراراته بقتل كل من يعتنق ديناً غير الوثنية التي مات عليها والده، فالتزمت البعثات النصرانية الصمت وأوقفت كل نشاط لها داخل البلاد، في حين أعلن بعض من المسلمين تمردهم على قرارات: القتل أو الوثنية التي أصدرها موانجا، فاضطر إلى الهروب خارج البلاد، لكن أحداً من المسلمين لم يتقدم للإمساك بزمام حكام المملكة، فتآمر النصارى مع موانجا ووقفوا معه في مواجهة المسلمين وأعادوه إلى عرشه الذي لم يسع إليه أحد من المسلمين، وسمح للبعثات النصرانية أن تمارس نشاطها في البلاد بحرية، فانضم شطر منها إلى الكاثوليكية وشطر آخر للبروتستانتية، تولد بينهما صراع مذهبي بين القبائل، خاصة في قبائل باجاندا التي اختارت مذهب البروتستانتية.

غرب إفريقيا:

تضم منطقة غرب إفريقيا خاصة الساحلية منها والتي أصابتها الدعوة النصرانية: الكونغو، والجابون، والكاميرون، ونيجيريا، ومنطقة الميناء التابعة لجمهورية داهومي (بنين حالياً) وساحل العاج وليبيريا، وسيراليون وكل قطاعات غينيا والسنغال.

وقد بدأت البعثات التنصيرية دورها الفعال في هذه المناطق مع بداية القرن التاسع عشر، حيث نزلت أول البعثات البروتستانتية إلى منطقة ليبريا وكانت تبشر بالمذهب الميثودستي، وتكونت هذه البعثة من خليط من المنصرين البيض وعدد من القساوسة الزنوج الذين يجيدون الإنجليزية.

أما البعثة الثانية فقد نزلت في سيراليون، وكانت تابعة لجمعية التنصير الكنسي، وبلغت من النشاط مستوى كبيراً جعل من سيراليون مركزاً لكل البعثات التنصيرية التي تعمل في غرب إفريقيا.

وأتت البعثة الثالثة من مدينة بال السويسرية، ونزلت في ساحل الذهب؛ حيث ركزت دعوتها بين قبائل فانتي Fanti وحققت نجاحاً كبيراً بينها، عوضها الخسائر الكبيرة التي تكبدها أندريا رايس Andreas Riis رئيس البعثة، في محاولاته المخفقة المتكررة بين قبائل أشانتي التابعة لساحل العاج، والتي وصلت في عنادها ورفضها لأي وجود نصراني، إلى حد أن احتجزت قسِّين رهينة حتى جلاء البعثة عن أراضي الأشانتي وتحقق لها ما أرادت.

فلما أتت قوات الاحتلال الفرنسي وسيطرت على أملاك الأشانتي وأراضيهم حوالي عام ١٨١٥م، كانت بعثة الميثودست هي أسبق البعثات التنصيرية إلى هذه البلاد، حيث تم إعداد عدد من القسس الزنوج من أبناء القبيلة لممارسة الدعوة بينهم، كما أسست كنيسة محلية مستقلة خاصة بالمتنصرين الزنوج تابعة لطائفة البريسبيتريان النصرانية.

في العام ١٨٤٤م استطاع اثنان من المنصرين، أحدهما أبيض ويدعى تونزند Townsend والآخر زنجي ويدعى كروثر Growlther استطاعا أن ينشئا فرعاً لجمعية التنصير الكنسي في أبيوكوتا Abeo Kouta بنيجيريا بين أفراد قبيلة اليوروبا التي ينتمي إليها المنصر الزنجي.

ونجح كروثر كثيراً في نشر الدعوة النصرانية في نيجيريا لمعرفته بلغة القبائل في المنطقة ولهجاتها، حتى منحته المنظمة عام ١٨٥٤م منصب مطران نيجيريا، إلى أن مات عام ١٨٩١م.

ومن خلال إعداد منصرين من أبناء القبائل، ومنحهم الأموال والمناصب والوظائف والوجاهة الاجتماعية، حقق النصارى مكاسب ضخمة في شتى أرجاء نيجيريا، مهدت لكل البعثات الأخرى أن تمارس دعوتها في أرض جيدة الحرث وخصبة التربة ومهيأة لكل بذرة يمكن أن تؤتي حصاداً بأقل جهد ومال؛ إذ عملت إلى جانب البعثات البروتستانتية بكل مذاهبها ثلاث هيئات كاثوليكية هي:

آباء روح القدس، وليون، والآباء البيض.

وكان للهيئة الأولى نشاطها السابق ومراكزها النشطة في السنغال منذ القرن الثاني عشر، وهي ذاتها التي بذلت جهوداً ضخمة في غينيا السفلى.

أما جمعية ليون التي أسسها القس الثري بريزيلك Bresillac عام ١٨٥٦م، فكان أول نشاط تنصيري لها في غرب إفريقيا عام ١٨٥٩م بمدينة فريتون على ساحل سيراليون، لكنه لم يبق على أرض هذه المدينة أكثر من ثلاثة أشهر، حيث أصابته الحمى الصفراء ومات ليخلفه القس بلانك Planque الذي حدد هدفه على مدى نصف قرن من الزمان على ساحل غينيا، فأغدق عليها باستدعاء البعثات التنصيرية من كل المذاهب والملل النصرانية، ولم يغادر هذه المنطقة يوماً بإطلاق.

فلما تمكنت البعثات والمراكز التنصيرية وتثبتت قواعدها في المنطقة الساحلية، بدأت تنطلق نحو العمق الإفريقي حيث كانت السيطرة كاملة للوجود الإسلامي الذي لم يكن له وجود ملموس في السواحل الإفريقية.

تأسست عام ١٨٦٨م جمعية الآباء البيض للسيدة العذراء على يد القس الفرنسي لافيجري Lavigerie الذي ابتعثته الكنيسة الجزائرية؛ حيث كان يشغل منصب أسقف عام الكنيسة الجزائرية، فأرسل عام ١٨٧٥م ثلاثة منصرين إلى تمبكتو في قلب مالي جنوب الجزائر، غير أن قبائل الطوارق تصدوا لهم وقتلوهم.

وإلى رواندا بوروندي Rouanda Puroundi وشرقي الكونغو البلجيكية (حينذاك) امتدت جهود البعثات الفرنسية للآباء البيض، أما بقية الكونغو البلجيكية فكانت من نصيب البعثات البروتستانتية الآتية من انجلترا وأمريكا.

وفي المنطقة التي سميت بالكونغو الفرنسية، كان لجماعة آباء الروح القدس النصيب الأكبر فيها، حيث عمل هناك القس أوجوار Augouard الذي اشتهر باسم مطران أكلة لحوم البشر.

وفي هذه المنطقة تشير بعض الصفحات القديمة في تاريخ الكنيسة الغربية في إفريقيا أن الحماس الذي كان لدى البعثات والأفراد الآتية من طاحونة الحرب المشتعلة في أوروبا وارتدت ثوب الكنيسة وتعلقت بالصليب، بلغ ذلك الحماس بأحدهم أن لجأ في محاربة الإيمان ـ الذي ينتشر في هذه البلاد ـ بأحقية الرجل في الزواج بأكثر من امرأة، أنه كان يتزوج هو الفتيات زواجاً صورياً، حتى لا يتزوجن من رجال سبق زواجهم، ثم يعيد تزويج هؤلاء الفتيات مرة ثانية إلى أتباعه الكاثوليك الذين يؤمنون مثله بحرمة تعدد الأزواج.

ولعل أشهر المنصرين الفرنسيين الإنجيليين في منطقة الجابون كان الدكتور شفايتزر Schweitzer الذي كرمته ملكة إنجلترا ونال جائزة نوبل للسلام عام ١٩٥٤م لقاء جهوده التنصيرية في شرق إفريقيا ووقف المد الإسلامي هناك.

أما في الكاميرون فقد تسابقت البعثات الكاثوليكية والبروتستانتية القادمة من ألمانيا، فسيطرت الأولى على جنوب البلاد وتركت للأخرى مناطق صراع مذهبي وقبلي، بينما تمكنت بعض البعثات البروتستانتية الإنجليزية والكاثوليكية الإيطالية أن تصل بنشاطها إلى سكان أعالي النيل في السودان.

■ يقول جوسكين نفارو والز (أحد المتحدثين باسم الفاتيكان):

إن إفريقيا ـ شأنها شأن أمريكا اللاتينية ـ هي خزان للكاثوليكية في المستقبل.. إن كل ما تستطيع أن تفعله أن تنظر إلى الأرقام؛ ففي ١٩٠١م ـ في بداية هذا القرن ـ كان في كل إفريقيا ١,١ مليون كاثوليكي فقط، أي بمعدل ١٪ من سكان القارة، أما اليوم فإننا نزيد عدد الكاثوليك في كل سنة مليوني نسمة، وهناك ٦٥ مليون كاثوليكي في القارة، أو ١٦٪ من مجموع عدد سكانها، ونحن نتوقع أن يزيد عددهم قبل نهاية هذا القرن إلى ١٠٠ مليون.

[حقائق ووثائق ـ دراسة ميدانية عن الحركات التنصيرية ـ د. عبد الودود شلبي، ص ١٥] ـ البيان ـ

بعثات التنصير النسوية:

أدت البعثات النسوية دوراً كبيراً في خدمة الكنائس والمنظمات والجمعيات التنصيرية في إفريقيا منذ وقت مبكر للغاية، وتذكر الوثائق المتاحة أن من أشهر الإرساليات النسوية التي نشطت في هذه المنطقة كانت إرسالية الراهبات البيضاوات. وكلمة البيض أو البيضاوات تشير مباشرة إلى أن هذه البعثات بروتستانتية عنصرية.

ثم إرسالية سيدة الرسل، وإرسالية الراهبات الزرقاوات (كاثوليك في مواجهة البروتستانت البيض)، وإرسالية راهبات الروح القدس.

أما القوة المحركة التي أثارت كل همم الكنائس النصرانية الغربية للعمل النسوي في إفريقيا، فكانت لفتاة فرنسية ريفية تدعى جافوهي Javouhey لم تكمل عامها الثامن والعشرين عندما أسست عام ١٨٠٦م جمعية سان جوزيف الكلوني للدعوة النصرانية بين أبناء قريتها والقرى المجاورة.

وفي العام ١٨١٩م أبحرت بدعم من الكنيسة الأم على رأس أول إرسالية نسائية إلى منطقة السنغال، فانشأت عدة مشاريع يدوية، ومستوصفات علاجية، وفصولاً تعليمية كنسية، استطاعت من خلالها أن تخترق جدار السلطات الإقليمية الحاكمة التي مهدت لها السبل لممارسة نشاطها، وكانت هي بدورها لا تألو جهداً لتمهيد كل السبل أمام الإرساليات النسائية التي تدفقت إلى إفريقيا، خاصة في منطقة السنغال وغينيا وساحل العاج، حتى أطلق عليها لويس فيليب ملك فرنسا حينذاك، لقب الرجل العظيم.

كلمة أخيرة:

وبعد هذه الإطلالة السريعة على تاريخ التنصير في إفريقيا نجد أن من موضوعية الطرح أن نستعيد السؤال الذي طرحه منذ نصف قرن من الزمان هوبير ديشان أحد حكام المستعمرات (المستعمرات مصطلح خاطئ وصوابه قوات الاحتلال) وهو: ترى أيهما ينتصر: الإسلام الشرقي، أو المسيحية الغربية؟

فالقضية بحق يشهد عليها الواقع، ويشير هذا الواقع عشرات المسائل والخطط التي يمكن أن يستدعيها خاطر المسلم الغيور على دينه، خاصة إذا ما تأكدنا أن ما كتبه أ. ل. شاتليه، ما زال متجسداً أمام عيوننا، حينما كتب يقول على لسان أحد القسس العاملين في إفريقيا: «إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في إفريقيا، لأن انتشار الإنجيل لا يجد معارضاً، لا من جهل السكان، ولا من وثنيتهم، ولا من مناضلة أمة من الأمم، غير أمة العرب، فليس خصمنا غير الشيخ الذي يملك نفوذاً أكثر مما هو للفرسان المحاربين»(١).

وهذا هو ما كرره بصياغة أكثر يأساً القس جاير ديز أحد كبار قساوسة أوروبا، أمام مؤتمر أدنبره الشهير، حينما قال عن دعاة الإسلام معبراً عن سخطه: «كيف يمكن التعامل مع هذه الأشياء؟ لقد وجدنا في رحلتنا الأخيرة عبر إفريقيا القبائل على نهر شاري، وجداول الكونغو وما بين الدرجات العاشرة والخامسة من خط العرض الشمالي، كلها تدين بالإسلام أما تلك الزوايا التي تنتشر في القرى والسهول والأدغال بشكلها غير الحضاري والمضاد للعصرية تماماً، فإنها رأس النبع للمد الإسلامي في أنحاء إفريقيا، الذي يحتاج من الكنائس أن تتوحد في مواجهتها وتوجيه ضربة قاسية لها(٢).

ثم يستطرد قائلاً: «إن شمال نيجيريا يجب أن يكون النقطة الأكثر أهمية، مع إنشاء مركز كبير لمختلف الكنائس في أقصى الغرب، ومحاولة الدخول إلى مناطق المسلمين، أما أوغندا فإن كانت توجد بها كنائس فهي أشبه بجزر في بحر الإسلام، لا تستفيد من الوجود القوي لحكوماتنا الأوروبية في المنطقة، خاصة في شرق إفريقيا، حيث يجب أن نحتل كل قوة وكل مركز

---

(١) R.Hill & Toniolo, The opening of the Nile Basin, 1842 - 1881, London 1974, V.I.

(٢) و. ت. هـ جاير دنر، ترجمة محمود الشاذلي: الوثيقة. الإسلام الخطر، المختار الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٣٠ ـ ٣٦.

استراتيجي للمسلمين لنخضعه للمراقبة، وهذا يتطلب التعاون الوثيق في الساحل الشرقي الذي طالما اشتقنا إليه في بلادنا[1].

الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى إفريقيا[2]:

- إن حجم الوسائل والتقنيات الحديثة المستخدمة في التنصير أصبح من الضخامة إلى حد ضرورة عمل دراسات متخصصة لمعرفة هذه الوسائل والتقنيات، ونوع الرسالة التي تقدمها، ومضمون هذه الرسالة والمساحة الجغرافية التي تغطيها ومدى تأثيرها، وهنا نشير فقط إلى أحد الوسائل المعاصرة وهو البث الإذاعي، من خلال عشرات المحطات المنتشرة في إفريقيا وخارجها، نذكر منها:

- إذاعة حول العالم Transworld Radio - Twr (تأسست عام ١٩٥٤م) تملك محطات للبث واستديوهات لإنتاج وإعداد البرامج الدينية في أكثر من خمسين دولة في العالم، أما إرسالها فيوجه على الموجات المتوسطة والقصيرة بأكثر من خمس وثلاثين لغة من بينها العربية.

- إذاعة راديو الفاتيكان Radio Vatcan (تأسست عام ١٩٣١م) تملك أكبر وأقوى أجهزة بث أرضية على مستوى العالم، وتقدم خدماتها بأكثر من سبع وأربعين لغة ولهجة من بينها العربية.

- محطة KGEL التنصيرية:

توجه بثها من كاليفورنيا بامريكا، باكثر من ثلاثين لغة.

- راديو صوت الإنجيل Radio Vooice of the Gospel - RVOG:

يبث إرساله من أديس أبابا بثلاث عشرة لغة على الموجتين المتوسطة والقصيرة إلى غرب وجنوب إفريقيا.

- المحطة الدينية النصرانية: ELWA:

تبث برامجها من ليبيريا على مدى ٤٠ ساعة يومياً.

- المحطة الكنسية بأنجولا:

تبث برامجها بست لهجات محلية.

- محطة الكنيسة البرتغالية في موزمبيق:

تبث برامج بكل اللهجات المحلية إلى جانب اللغة البرتغالية.

■ شهداء التنصير: يصل عدد المنصرين الذين يتم التعرض لهم بصورة أو بأخرى نحو ٢٣٠٠٠٠ شخص عبر العالم سنوياً.

■ أحلام التنصير: يعتقد الكُتاب النصارى أن ٨,٥٧٪ من سكان الأرض سيكونون قد دخلوا حظيرة المسيح بمجيء سنة ٢١٠٠م أما في السنة ٤ بليون ميلادية فسيكون ٩٩,٩٠٪ من سكان الأرض مسيحيين.

■ نتائج التنصير: طبقاً للمصادر التنصيرية فقد انضم إلى حظيرة النصرانية خلال العقود السبعة الأولى من هذا القرن وحده ١١٥,٩ مليون شخص عبر العالم.

■ تخطيط التنصير: ولأجل تسهيل العمل التنصيري فقد قسمت الإرساليات المسيحية مسلمي العالم كله بدقة إلى ٣٠٠٠ مجموعة، عرقية وتتقاسم مختلف المنظمات التنصيرية العمل داخل هذه المجموعات؛ بحيث لا يوجد تضارب أو تناطح لاقتسام مناطق النفوذ؛ على عكس ما كان عليه الأمر في أوائل العهد الاستعماري.

[عن مجلة الإصلاح الأعداد: ٣٦٩ - ٣٨١]

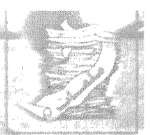
■ تم تدريب أكثر من ١٠٠٠ سوداني على تنمية قدراتهم اللغوية في مجال التنصير، والهدف من المشروع تسهيل الوصول إلى جميع طبقات وطوائف الشعب، حيث إن هناك ١١٧ لغة في السودان.

[نشرة Pulse التنصيرية سنة ١٩٩٦م]

- البيان -

(١) و. ت. هـ جاير دنر، ترجمة محمود الشاذلي: الوثيقة. الإسلام الخطر، المختار الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٣٠ - ٣٦.

(٢) كرم شلبي: الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب، مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٩١م (المقدمة).



التنصير.. هل أصاب الهدف؟ (٢ ـ ٣)

المواجهة الفاصلة بين الإسلام والنصرانية في إندونيسيا

د. توفيق محمد علوان

كنا قد تناولنا في مقال سابق(*) الأسباب التي دعت إلى ذلك التفوق النسبي ونجاح التنصير في إندونيسيا، وبيَّنَّا أن الأسباب التي أدت إلى هذه النائبة هي أسباب عديدة ومتشابكة، وتشمل كافة جوانب الحياة العملية والاقتصادية السياسية وغيرها من جوانب الحياة، وحددنا الأسباب الجغرافية والأسباب التاريخية والأسباب الثقافية والأسباب السياسية وناقشناها. ونواصل في هذا المقال تناول بقية الأسباب التي من وجهة نظرنا وعبر مشاهداتنا الواقعية تعتبر من أكبر الأسباب التي أدت إلى هذه النازلة الكبرى التي نزلت بالإسلام والمسلمين في إندونيسيا المسلمة وهي:

أولاً: الأسباب الاقتصادية.

ثانياً: الأسباب الاجتماعية.

ثالثاً: الأسباب العقائدية.

رابعاً: الأسباب الإعلامية.

فهذه الأسباب مجتمعة مع الأسباب السابقة قد تضافرت على الإسلام هنالك، وأدت إلى كل ما أنت راء أمامك من تحلل وتمزق وانهيار بلغ ذروته في سلخ تيمور الشرقية نهائياً من الجسد الإسلامي، ولكن الطامة الكبرى لا تكمن ها هنا، بل إنها تكمن في أنه إذا انفرط هذا العقد فلسوف تتتابع حباته سراعاً إلى الزوايا السحيقة والضياع التام، وكم هنالك من تيمور بعد تيمور لا يدري العالم شيئاً عنها، وهي كثيرة وعديدة في إندونيسيا تتربص بها العيون الصليبية تمدها من ورائها المعاول الباترة جغرافياً وسياسياً وتنصيرياً ودولياً لوضع كلمة الختام على سفر هذه المأساة التي نسيها الجميع في غمار النكبات المتلاحقة على أطراف العالم الإسلامي.

أولاً: الأسباب الاقتصادية:

إن جميع المؤسسات الاقتصادية المتحكمة في الاقتصاد الإندونيسي تقع بغير استثناء في قبضة النصارى والصينيين الذين يجثمون بنيرهم الثقيل على أعناق المسلمين، ويأكلون أكلهم ويشربون شربهم، ويعتصرون دماءهم. وقد تصاب بصدمة هائلة ومفاجأة كبرى عندما يتبين لك أن هذه البنايات الشاهقة والتي تبشر بنهضة عالية وضعت إندونيسيا في حقبة معينة بين النمور الاقتصادية التسعة التي هددت الاقتصاد الأوروبي والأمريكي، إن هذه النهضة بلحمها وشحمها قد حصد ثمارها وجنى جناها النصارى وحدهم، بينما تحكموا دون رحمة أو هوادة في أرزاق الملايين الكثيرة التي بقيت تتضور جوعاً وتقاسي أشد حالات الحرمان والإذلال اليومي بحثاً عمَّا يقيم حياة الكفاف. هذه

(*) مقال تيمور الشرقية والذئاب الص[illegible]ة، العدد: (١٤٤).

الجموع المنهكة التي ثارت في نهاية الأمر ثورة عاتية شعواء حرقت في لهيبها كل ما يمت إلى النصارى بصلة: بيوتهم، ومؤسساتهم، وشركاتهم، وبنوكهم، وقبل ذلك أنفسهم وأسرهم. (قبيل سقوط سوهارتو عام ١٩٩٨م)، الأمر الذي بدا ظاهراً للعيان أنه ناجم عن الشعور الجسيم بالإحباط والهوان من التحكم الذي لا يرحم من النصارى، وخاصة ذوي الأصل الصيني منهم. وكم كانت ملاحظة جديرة بالتأمل والتحليل أنه في أثناء الهياج الكامل للناس وحرق كل ما تقع عليه أيديهم ومن أراد إنقاذ نفسه أو مؤسسته أو أمواله أو بيته من الهجمات العارمة، فليس عليه إلا أن يكتب بخط كبير ظاهر: «أنا مسلم» أو «الله أكبر»، وغنيٌّ عن البيان الدلالة الحاسمة لذلك، ألا وهي أن المسلم الجائع والذي أخذ ينهب كل ما تقع عليه يده إنما يدرك دون غموض من هم الذين امتصوا دماءه، وأحرقوا فؤاده[1].

إن النصارى يسيطرون على النصيب الأعظم من كل أنواع التجارة بمساعدة الدولة، وعلى سبيل المثال، فإن الحكومة إبان النهضة الاقتصادية العامة في جنوب شرق آسيا في السنوات العشر الأخيرة قد صرحت في أكتوبر عام ١٩٨٨م، بقانون تنظيم البنوك الأجنبية والخاصة (Pakta 1988)، ومنذ ذلك التاريخ وحتى ديسمبر عام ١٩٩٥م تم تأسيس ١٦٥ بنك خاص، ولهذه البنوك ٣٤٥٨ منفذ بنكي غالبيتها الساحقة بأيدي النصارى (إن لم تكن جميعها). كما تم التصريح لعدد ٤١ بنكاً أجنبياً بعدد منافذ ومكاتب يبلغ ٨٣ (كلها للنصارى الأجانب). إن البنوك الخاصة التي تتحكم في اقتصاد البلاد مثل: البنك المركزي لآسيا، بنك بالي، BDNI,BLL، بنك دانامون، بنك دوتا، بنك نيجا، بانين بنك. أو البنوك الأجنبية مثل: بنك أمريكا، بنك هونج كونج، بنك طوكيو، بنك بنكوك، بنك تشيس مانهاتن، وغيرها، كلها تقريباً بأيدي غير مسلمة. إن الشركات المالية الاقتصادية قد بلغت ٢٥٢ شركة في عام ١٩٩٥م باستثناء شركات رأسمالية الدولة. أما شركات التأمين فقد بلغت حتى أغسطس عام ١٩٩٦م عدد ١٧٣ شركة للتأمين وإعادة التأمين، كما أن الشركات المدعمة لها ١١٥ شركة.

هذه الأعداد الهائلة والتي تتحكم في مليارات الدولارات تحكماً كاملاً غالبيةُ أتباعها من بنوك وشركات وتامينات هم من النصارى (بعض التقارير تؤكد أنهم جميعاً من النصارى والصينيين) فهذا كله من الأسباب الرئيسة للأزمة الاقتصادية من جانب، وأزمة الإسلام في مواجهة التنصير من جانب آخر[2].

ولا يغربن عن بالك أن النصارى الذين بلغوا هذا القدر من الثراء والغنى لن يضنوا على إخوانهم المنصرين القادمين من أقصى الأرض بالأموال الطائلة عوناً لهم على أداء الدور الذي جاؤوا من أجله. كل هذا والمسلمون يدورون دون رحمة تحت النير النصراني الثقيل، بينما يكدحون مواصلين الليل بالنهار بحثاً عن حفنات الأرز الكفاف.

ثانياً: الأسباب الاجتماعية:

هناك أسباب اجتماعية تفسر ظاهرة التنصير المستشرية، ألا وهي حرص الأبواق الحكومية، وبصورة ملحة على ضرورة تنظيم النسل، ولا شك أن الكثيرين من المسلمين، نظراً للظروف الاقتصادية القاهرة، مضافاً إليها الإلحاح الإعلامي، سرعان ما تستجيب لهذه الدعايات، مما أدى إلى التناقص المستمر في نسل المسلمين عبر العقود الأخيرة. بينما النصارى في أماكن تجمعاتهم لا يلقون بالاً لهذه الدعايات؛ ذلك أنهم يلتزمون بصورة صارمة بالتعاليم الكنسية البروتستانتية والكاثوليكية التي تحرضهم على الزيادة في النسل بكل وسيلة ممكنة؛ مما دعا بعض المحللين إلى اعتبار هذا الخلل الجسيم في التوازن السكاني (حيث كانت النسبة ١٠٠٪ للمسلمين منذ نصف قرن فقط)، إنما يرجع إلى هذه الأسباب، لا إلى النجاح في عمليات التنصير.

---

(١) (كاتب هذه السطور عايش هذه الأيام؛ وحيث كنت أعمل أستاذاً بالجامعة فقد قام البوليس بتحذيري من النزول إلى الشارع من منزلي حتى لأداء الصلاة في المسجد القريب الذي تعودت الصلاة فيه، ومع ذلك فإن الجموع الهائمة في كل مكان كانت ترفض الاقتراب من بيتي؛ لأنه «بيت عالم» ويقصدون بالعالم: (رجل الدين الإسلامي).

(٢) ملاحظة: التقارير والأرقام المذكورة كلها من مصادر حكومية معلنة.

ثالثاً: الأسباب العقائدية:

عقيدة الدولة الإندونيسية علمانية، أي أنها لا تلقي بالاً إلى الديانات عند تخطيط وتوزيع الخدمات أو الامتيازات، ولقد أدى هذا المذهب الأعمى إلى إيقاع أشد الظلم بالمسلمين؛ حيث تم فتح الأبواب والفرص دون تمييز بين الأغلبية الساحقة من المسلمين، وبين الأقلية التي لا تكاد تذكر من النصارى على رغم القاعدة المعتمدة في جميع أنحاء العالم والتي بموجبها تخضع الأقليات لرأي الأغلبية وإن لم تعتنقه، وإلا لزم العكس وهو غير معقول، إلا في حالة الأغلبيات المسلمة والأقليات النصرانية كما هو الحال في إندونيسيا؛ حيث يتوجب على الأغلبية المسلمة أن تعطل كافة أعمالها احتفالاً بالأعياد النصرانية الكثيرة، وعلى الأغلبية المسلمة أن تنصت بإمعان إلى البرامج المتتالية والتي لا تنقطع فيها الدعوة إلى الديانة النصرانية والتنصير المعلن الصريح الذي يذاع دون مداراة في التلفزيون الإندونيسي. وعلى الغالبية المسلمة أن تنصت بإعجاب إلى البطولات الخارقة لدعاة التنصير في التلفزيون الإندونيسي، مثال الأم تيريزا التي واصل التلفزيون الإندونيسي في حالة من الإبهار والاستعراض الكامل عرض تفاصيل حياتها التنصيرية على أعين الجمهور المسلم وأسماعه لساعات طوال، وكنت واحداً من المنكوبين بهذه البرامج؛ حيث رأيت التضخيم الذي لا يعقل في بعض الأحيان لأعمال هزيلة تافهة يمكن دون جهد مشاهدة أضعاف أضعافها من صغار الدعاة من الشباب الإسلامي، كذا تصوير الترف الذي تمارسه المنصرات على أنه شظف وجهاد ونبذ للحياة الدنيا، فضلاً عن الكذب والخداع وتقليب الحقائق والأمور، دع عنك الدعاية طوال هذا جميعه إلى أدلة كون الحق المبين في الديانة النصرانية، هذا الذي على الغالبية المسلمة في إندونيسية المسلمة أن تعيه وأن تسمعه، وخاصة في يوم الأحد؛ حيث إن يوم الجمعة يوم عمل لا يهدأ؛ بينما الأحد هو الإجازة الرسمية في أنحاء البلاد التي يقطنها مائتا مليون من المسلمين الذين ما زالوا بعدُ يحتفظون بشعائرهم يوم الجمعة وعلى رأسها شعيرة صلاة الجمعة.

رابعاً: الأسباب الإعلامية:

الإعلام الإندونيسي - خاصة التلفزيون - يركز بصورة أساسية على البرامج النصرانية التنصيرية الصريحة خاصة في أيام الأجازات والعطلات الرسمية، كذلك في أوقات الذروة الهامة من البث التلفزيوني.

وإنني - ومع أني مسلم - مضطر إلى الإنصات لساعات طويلة مشاهداً الكنائس من داخلها، وسماع المواعظ الطويلة وكأني أحد النصارى هذا على الأقل مرة أسبوعياً. وكما ذكرنا فإن يوم الأحد هو يوم الإجازة الرسمية في البلاد، بيد أن مائتي مليون من المسلمين ملزمون بالخضوع لهذه الخطة الشنعاء التي تخضع فيها الأغلبية على صورة مؤلمة لرأي الأقلية التي لا تكاد تذكر، بل الخضوع للأذقان لعقيدتها وديانتها. والأدهى من ذلك أن الكثير من المؤسسات تعتمد يوم السبت مضافاً إلى الأحد يوم عطلة أسبوعية مجاملة لعيون اليهود الذين لا وجود لهم أصلاً. إن يوم الجمعة هو اليوم الوحيد الذي لا خلاف على العمل فيه بغاية الجد والإخلاص ودون توقف إلا من أراد أن يصلي الجمعة فإنه يحصل على فترة انقطاع تساوي قدر الصلاة على أن يعود إلى العمل فور الانتهاء منه. بل إنني لاحظت أنه كلما كان الموظف أكثر التزاماً - أو حتى أراد أن يبدو هكذا أمام رؤسائه - فإنه يحرص غاية الحرص على الانتظام يوم الجمعة. إن العمل يوم الجمعة بالذات هو الدليل الذي لا تشوبه شائبة على ولاء الموظف والتزامه بالنظام العام في الدولة، وهو الجواز الذي عبره يحصل على رضى الرؤساء، ولما كان عملي في جامعة إسلامية تدرس العلوم الشرعية، ولما كان هذا هو النظام المتبع فيها، فلا تسل عن غيرها من المؤسسات الحكومية الأخرى غير المعنية بشؤون الإسلام، بل لا تسل عن المؤسسات الخاصة التي يترأسها عادة الصينيون والنصارى والتي لا ترعى فيه لمشاعر المسلم أدنى اهتمام.

إني لأعجب من هذا النظام وممن يقرره: من الذي يعطل الأعمال يوم الأحد؟ ولماذا يطبق بهذه الصرامة؟ ولماذا كان لا بد على المسلمين بأجمعهم أن يعطلوا أعمالهم حتى تذهب القلة النصرانية إلى كنائسها هانئين؟ ألم يكن كافياً أن يسمح لهم مثلاً بالذهاب إلى

الكنائس يوم الأحد في الوقت المخصص لعبادتهم، بينما يجازون مع المسلمين يوم الجمعة؟ وهل يعقل أن يعطل تسعمائة مسلم من كل ألف أعمالهم كل أسبوع من أجل ذهاب مائة إلى أداء طقوسهم الدينية؟ إن يوم الجمعة هو اليوم المعلوم على مستوى العالم الإسلامي ومهما كانت العقيدة التي تتبناها الدولة فيه. ودون النظر إلى مدى وجوبه شرعاً أم لا، بيد أن هذه الظاهرة هي الظاهرة اللافتة للنظر، والتي تشير دون لبس أو خفاء إلى حالة التحكم النصراني في شؤون الحياة السياسية والعقائدية في إندونيسيا المسلمة.

وكل يوم أحد يجلس المسلمون في البيوت لكي يستمعوا إما إلى برامج فاحشة جداً، أو إلى مواعظ نصرانية منوعة في كل أسبوع من كنيسة جديدة، أو خطبة ووعظ نصراني، أو فيلم عقائدي نصراني، أو سيرة أحد رجال نشر المسيحية المشهورين.

إن المسلمين يُحرَمون من أعمالهم يوم الأحد لمشاهدة التنصير على كافة القنوات، وهؤلاء المنصرون والمنصرات في أيديهم الأناجيل يقرؤونها، ولا ندري على من يقرؤونها؟ أعلى رعاياهم من النصارى أم على المغلوبين على أمرهم من المسلمين؟

ولماذا يجب على جميع المسلمين أن ينصتوا طوعاً أو كرهاً وأن يلتزموا؟

وبالطبع فإن وسائل الإعلام تعرض المواعظ الإسلامية أيضاً والبرامج الإسلامية؛ غير أن أوقاتها تكون ـ على الغالب ـ غير مناسبة، وكلها تقريباً بعد صلاة الفجر في التلفزيون، وهو وقت كما هو معلوم مشحون بالاستعداد للمدارس أو الاستعداد للخروج للوظيفة أو العمل، علماً بأن اليوم في إندونيسيا يبدأ فعلياً عند صلاة الفجر أي أن السوق وشراء الحاجيات المنزلية اليومية والسلع الغذائية وغير ذلك يتم عند الفجر أو قبله بقليل؛ بحيث لا يمكن أن يُرى في السوق أحد في العاشرة صباحاً مثلاً.

والمقصود أن الأوقات التي يعرض التلفزيون فيها برامجه الإسلامية هي أوقات أضعف بما لا يقارن بالتوقيت الذي يعرض فيه البرامج النصرانية، وأين وقت الفجر من وقت الإجازة الأسبوعية بكاملها.

ومما سبق يتبين أن التنصير إنما يتم بأموال المسلمين النازفة في أجهزة الإعلام، ولقد رأيت ساعة كاملة يوم الإجازة الرسمية ومن بعد صلاة العصر ـ الاختيار الدقيق لأفضل الأوقات ـ لبطولات الأم تيريزا مصورة في كل مكان نصَّرت فيه، مع عرض النتائج الباهرة لآثار تنصيرها والجموع التي تسير من ورائها إلى النصرانية، ذلك الشرف الذي لم يحظ به أحد من كبار دعاة الإسلام الذين قضوا أعمارهم فداء للدعوة ومنهم في بلاد المسلمين المختلفة، ومنهم من قضاها في بلاد بعيدة سائحاً في سبيل الله ـ تعالى ـ، بل ومنهم من كان في إندونيسيا نفسها السنوات الطوال يعلِّم ويعظ ويدعو، ولعل في الصورة التي بيناها لك يتبين ما وراءها، وقس على ذلك بالطبع الصحافة وغيرها من وسائل الإعلام.

إن التنصير ها هنا لا يتم في زاوية نائية بعيدة، إنه يبث على وسائل الإعلام ظُهراً وفي رابعة النهار وعلى كل القنوات، وفي جميع الأوقات.

هذا بالطبع عدا أعياد النصارى؛ حيث تتفرغ نشرات الأخبار المرئية والمسموعة والمكتوبة لعرض الاحتفالات وتصوير الكنائس والجموع النصرانية في جميع أنحاء العالم في الاحتفالات الهائلة في أوروبا وأمريكا والفاتيكان وغيرها في تقارير تفصيلية ومطولة جداً ومنقولة بتمامها من البلاد التي تمت بها.

إن هذه الدعوة القهرية لهي واحدة من أعظم الأسباب، لا أقول في نجاح التنصير، ولكن لدورها المعنوي الهائل الذي لا ينكر في إشعال مس الجنون في عقول النصارى.

بركان النار في الجزر الإندونيسية:

بدأت وكالات الأنباء العالمية تنشر بصورة شبه يومية أخباراً عن اشتباكات بين المسلمين والمسيحيين في بقاع شتى من أنحاء إندونيسيا، هذه السياسة التي صارت الآن في عداد المسلَّمات المقررة عند بدء أي مخطط دولي لتمزيق أية بقعة إسلامية على وجه الأرض؛ فهي المقدمة للتدخل الدولي في الصومال عن طريق نشر أنباء الحرب والمجاعات، وهي الطريق للتدخل السابق في تيمور لفصلها، وغير ذلك مما هو معلوم من البدايات الإعلامية للاقتحام والتدخل الدولي السافر في الشؤون

الداخلية للدول الإسلامية دون غيرهم من طوائف العالم أجمع. والآن تبدأ من جديد المقدمة المجوجة والمكررة نفسها لبدايات التدخل الدولي المزمع للمرة الثانية في إندونيسيا، الأمر الذي بات المسلمون منه على أشد حالات الفزع والترقب والارتياب من خطط ونوايا الأمم المتحدة. ويضاف إلى تلك الصورة المأساوية الحالة المزرية التي تتعامل بها الحكومة الإندونيسية مع الأحداث الجسام التي تمثل الحياة أو الموت بالنسبة لإندونيسيا ووحدتها وحاضرها ومستقبلها، حيث يشلها الرعب القاتل من الغرب عامة ومن الولايات المتحدة الأمريكية خاصة، والذي تتراخى تحت وطأته أمام خطر داهم محدق بصورة ماثلة لا خفاء فيها، فقد بدأت «إيريان جايا» في عقد مؤتمر تحت إشراف الحكومة، وهي المحافظة التي سلمتها الأمم المتحدة في عام ١٩٦٣م إلى إندونيسيا معتبرة إياها محافظة إندونيسية خالصة بعد معارك طاحنة بين الحكومة الإندونيسية وبين المتمردين من النصارى في عام ١٩٦١م مع اشتراط إجراء استفتاء عام لسكان الجزيرة وهو ما تم تحت إشراف الأمم المتحدة في أغسطس عام ١٩٦٩م، وصارت بناء عليه «إيريان جايا» هي المحافظة السادسة والعشرين من إندونيسيا. ولكن الدول الأوروبية بقيت تقدم الدعم العسكري والمالي للمتمردين، وتولت أستراليا كبر الفتنة غير عابئة بقرارات أو مواثيق. وفي المؤتمر الذي عقد في ٢٩ مايو ٢٠٠٠م في «إيريان جايا» قرر المؤتمرون الانفصال عن إندونيسيا أسوة بتيمور، ووجهوا نداءاً إلى الأمم المتحدة بسحب قرارها رقم ٢٥٠٤ (١٩٦٩م) في حالة خداع معلن للرئيس عبد الرحمن وحيد بعد أن تناقلت الأنباء على أنه دعم المؤتمر بناءاً على وعود من قادة الانفصاليين بأن يكون مؤتمراً حقيقياً خالياً من أية تدخلات أجنبية. والواضح أن عبد الرحمن وحيد الذي فوجئ بالذي حدث قد مضى في التنازل على صورة مستفزة؛ بحيث سمح لأول مرة في تاريخ هذه المنطقة للانفصاليين برفع أعلامهم عالية جنباً إلى جنب مع الأعلام الإندونيسية، مما أثار ثائرة مجلس النواب الإندونيسي الذي أعلن رئيسه أكبر تانجونج أن الشعب الإندونيسي لن يتسامح في شبر واحد من الأراضي الإندونيسية، وأن الجميع مستعدون للموت دون ذلك.

ثم كانت أحداث بوسو وجزر الملوك في سولاويسي الوسطى؛ حيث قامت المجموعات الصليبية بتحريض من الرهبان في الكنائس بالهجوم على المسلمين مما أدى إلى مقتل مائتين منهم، ولكن الجديد في السيناريو هو الصورة البشعة التي يصر العالم المتحضر على تقرير أنها أسلوب ناجع في إرهاب المسلمين وإثارة الذعر في قلوبهم، ألا وهي التمزيق الوحشي للأجساد والتعذيب البشع للأحياء منهم. ونحن لا ندري كيف اقتنع الغرب بأن هذه المناظر البشعة يمكن أن تحدث آثارها في إندونيسيا التي تقطنها أكبر أغلبية مسلمة على وجه الأرض؟ إن هذه المناظر المقززة الكالحة لم يعد لها من فائدة إلا إثبات السعار المحموم الذي يتلمظ في أتونه الحارق الرهبان الذين فعلوا من الأفاعيل ما لم يجرؤ الكفار الشيوعيون في الستينيات على فعله، وإذا صحت هذه الأنباء عن هذه الوقائع الوحشية من الجثث التي عرضتها وكالات الأنباء فإن تداعياتها سوف تعود على النصارى أنفسهم في إندونيسيا بأوخم العواقب. ومهما تناولت الأمم المتحدة قضيتهم وأعدت المخططات السرية أو المعلنة لها، فإن إندونيسيا ليست البوسنة أو كوسوفا أو الشيشان، وإن النصارى بها ليسوا أغلبية حتى يقطعوا الأجساد ويحرقوا القرى، كما أن الشعوب لا تفهم كثيراً في لهجات ومخططات وألاعيب الأمم المتحدة.

إن المسلمين البسطاء الذين يطالعون هذه الصور والأخبار - وبغاية البساطة ودون كثير فلسفة أو تحليل - سوف يحرقون قرى النصارى الذين يمثلون الأقليات في الغالبية العظمى من الجزر الإندونيسية، وسوف يمزقونهم كذلك بحسب الدروس الإعلامية المرسلة إليهم من العالم المتحضر بالليل والنهار من أجل الثأر لإخوانهم. كما أن الضعف المزري في سلوكيات وتصرفات حكومة عبد الرحمن وحيد لن يؤدي إلى تنصير إندونيسيا أو انفصال «إيريان جايا»، بل سيؤدي إلى حرب أهلية منفلتة لا تحكمها إلا معايير

تقطيع الأشلاء وتمزيق الجثث وحرق البيوت والقرى والاغتصاب، والقيم المجيدة التي ميزت عصر الشرعية الدولية، والدروس البليغة التي علمتها وكالات الأنباء للمسلمين في كيفية التعامل مع الخصوم وتحت دعوى النصرانية والإنجيلية، وسترتكب الأمم المتحدة والعالم الحر الجريمة الكبرى التي لن تؤدي إلى تنصير إندونيسيا كما ظل الرهبان والبابوات يحلمون به لمدة ثلاثة قرون من الزمان، وإنما ستؤدي إلى سحق النصارى عن بكرة أبيهم.

والأغرب من كل هذا أن البابا الذي لزم الصمت المطبق المميت عندما اغتصبت النساء المسلمات بعشرات الآلاف على مرمى حجر من بيته في أوروبا، وأعلنت شاهرة جاهرة على جميع القنوات الفضائية، نراه اليوم يرفع عقيرته من أجل إنقاذ النصارى في إندونيسيا توطئة بالطبع للتدخل العسكري الدولي في شؤونها الداخلية، وهي اللعبة التي استمرأتها الهيئات الدولية لَمَّا لم تقف في وجهها أمة مسلمة تدفع عن شرفها وتفضل الموت الكريم على الحياة المستذلة المهينة. والأغرب منه أن بعض المسلمين الذين ما زالوا يوجهون النداءات للبابا المتسامح المسالم بتعليم النصارى التعاليم السمحة للإنجيل، وهو الذي حرضهم باسم الإنجيل على أن يقوموا بالحرق والاغتصاب وتمزيق الأجساد، وهو الذي أزَّهم أزّاً وألهب مشاعرهم وعلمهم أشد التعاليم توحشاً وهمجية.

إن على المسلمين اليوم سواء في إندونيسيا أو في غيرها أن يدركوا أن خطر الرهبان الصليبية الوالغة في دمائهم على الإسلام أشد وطأة وأكثر ضراوة من غلاة الملاحدة الشيوعيين إبان أحقاب العربدة الكافرة في ديار المسلمين، وعليهم أن يعلموا أن الخلاص لن يكون عبر إرسال النداءات للأمم المتحدة أو مجلس الأمن الذي ليس من بين وظائفه تحقيق أي أمن لأي مسلم على وجه الأرض. ولا يغرنك القرارات التي صدرت بأن إيريان جايا جزء لا يتجزأ من إندونيسيا، فلسوف تنعقد الأمم المتحدة وتلغيها إن رأت إمكانية تدمير إندونيسيا. ولكن على الجميع أن يذكروا هجمة الغرب القريبة في لبنان عندما ظنوا أن النسبة السكانية المسيحية فيه يمكن أن تؤدي إلى انتزاع السيادة لهم والحكم بالعبودية على المسلمين، وقامت المجزرة الكبرى في لبنان حتى أتت على الأخضر واليابس، ثم لم تثمر إلا الآلام المضنية والجراح الغائرة العميقة، وعادت الأمور سيرتها الأولى.

وإن ما يجري الآن في إندونيسيا من ألاعيب لا مسؤولة وعبث مدمر بالنار يفعله الرهبان الذين يحملون أشد الوجوه سماحة ووداعة، وأشد القلوب سواداً وضغناً وحقداً، يتعجلون تنصير إندونيسيا عن طريق الدم والحرق والنار لن يحرقوا إلا أيديهم، وسيلقنون أهالي إندونيسيا شرائع الغرب المتحضر في البوسنة ثم كوسوفا ثم الشيشان على مرأى العالم وسمعه، وستطبق هذه الشرائع كذلك دون الرجوع لأحد على نصارى إندونيسيا ولن يستطيع مجلس الأمن أن يفصل إندونيسيا عن إندونيسيا، ولا إندونيسيا عن جاوة ولا سومطره ولا غيرها من الجزر الهائلة التي تشمل عشرات الملايين من المسلمين الجاهزين معنوياً ودينياً للدفاع عن إسلامهم حتى الموت.

إن إندونيسيا ليست البوسنة، كما أن النصارى فيها ليسوا هم الصرب. وإذا ظن العالم أنه بالسهولة التي تم بها قطع تيمور الشرقية سيتم ذلك في سولاوسي أو وادي الملوك أو إيريان جايا فهو واهم. ولن يفيد ضعف الحكومة الإندونيسية الحالي في التعجيل بالهدف النصراني المعلن، بل سيؤدي إلى أوخم العواقب إذا تداعت الأمور ونفد صبر الشعب الإندونيسي على فصول المهزلة التي تدور شاخصة أمام ناظريه بإسقاطه لهذه الحكومة العاجزة الهزيلة، ومن ثم ينفتح الباب المتضرم على مصراعيه لصنوف من التطرف والاندفاع والتهور الذي لا تُشبع نيرانه الجامحة إلا مفاخر الحروب المتحضرة التي لقنها الغرب للمسلمين، فهي مفخرة جديدة وإنجاز عظيم من سلسلة الإنجازات الكبرى التي أتحفت الشرعية الدولية والأمم المتحدة عالمنا البائس المبتلى بها، وانتظروا فإنا منتظرون..!

مناطق سقطت في قبضة التنصير:

أولاً: نوساتنجارا الشرقية:

- العاصمة: كوبانج.
- المساحة: ٤٧٨٧٦ كيلو متر مربع.
- تتكون من ١١١ جزيرة أكبرها تيمور.
- بها أقل مستوى لسقوط الأمطار في جميع أنحاء إندونيسيا.
- بها حيوانات ما قبل التاريخ (زواحف عملاقة).
- عدد السكان: ٣,٥٧٧,٤٧٢ نسمة.
- الكثافة السكانية: ٧٥ فرداً لكل كيلو متر مربع.
- توزيع أصحاب الديانات:
- المسلمون: ٩,١٢٪.
- بروتستانت: ٣٣,١٦٪.
- كاثوليك: ٥٢,٨٩٪.
- هندوس: ٠,١٩٪. - بوذيون: ٠,٠٤٪.

ثانياً: إيريان جايا:

- المساحة: ٤٢١٩٨١ كيلو متر مربع.
- عدد السكان: ١,٩٤٢,٦٢٧ .
- العاصمة: جايا بورا .
- غنية بإنتاج البترول والنحاس.
- تشمل نصف جزيرة إيريان (جينية) وهي ثاني أكبر جزر العالم.
- تتميز بمنحدرات جبلية تنحدر تدريجياً، ومناطق شاسعة من المسطحات المائية.
- الكثافة السكانية: ٥ أشخاص لكل كيلو متر مربع.
- توزيع أتباع الديانات:
- مسلمون: ١٥٪.
- بروتستانت: ٦٣٪.
- كاثوليك: ٢٠٪.
- هندوس: ١,٪ . - بوذيون: ٨,٪.
- تتميز بثقافتها الشعبية التقليدية والتي تميز المجموعات العرقية المختلفة.

ثالثاً: تيمور الشرقية:

- العاصمة ديلي.
- المساحة: ١٤٨٧٤ كيلو متر مربع.
- غنية بالأخشاب المميزة: الخشب الأحمر، خشب الحديد، خشب الرقائق وغيرها.
- عدد السكان: ٨٣٩٧١٩ .
- الكثافة السكانية: ٥٦ فرداً لكل كيلو متر مربع.
- توزيع أتباع الديانات:
- مسلمون: ١,٧٪.
- بروتستانت: ٢,٦٪.
- هندوس: ٣,٪.
- بوذيون: ١,٪.
- كاثوليك: ٩١,٤٪.
- كانت مسرحاً للحرب العالمية الثانية وبها كثير من الآثار الخاصة بالحرب.

ثانياً: مناطق في معارك فاصلة وانحسار مستمر للكثافة الإسلامية في صالح الكثافة النصرانية:

أولاً: سومطرة الشمالية:

- العاصمة: ميدان.
- المساحة: ٧٠٧٨٧ كيلو متر مربع.
- الأنهار: ١٢٠ نهر.
- غنية بالثروات النباتية والحيوانية.
- عدد السكان: ١١,١١٤,٦٦٧ حسب آخر إحصاء عام ١٩٩٥م.
- الكثافة السكانية: ١٥٧ فرد لكل كيلو متر مربع.
- توزيع أتباع الديانات:
- مسلمون: ٦٣,٢٢٪ .
- بروتستانت: ٢٧,٩٦٪.
- كاثوليك: ٤,٦٪.
- هندوس: ٤١,٪. - بوذيون: ٣,٦٨ ٪.

ثانياً: سولاويسي الشمالية:

- العاصمة: مانادو.
- المساحة: ١٩٠٢٣ كيلو متر مربع.
- عدد السكان: ٢,٦٤٩٠٩٣ .
- الكثافة السكانية: ١٣٩ فرد لكل كيلو متر مربع.
- توزيع أصحاب الديانات:
- مسلمون: ٤٤,١٪ .
- بروتستانت: ٤٩,١٪.
- كاثوليك: ٢,٩٪ .

ـ هندوس: ٥٨,٠٪. ـ بوذيون: ٢,٠٪.

– من أغنى المناطق بالثروة السمكية للمياه العذبة (مساحة ٢٦٧٨ هتكار).

– تحظى على اهتمام بالغ بها في كتب الإعلان عن إندونيسيا خاصة ارتفاع دخل الفرد والصادرات والواردات بالدولار الأمريكي.

– غنية بالذهب والنحاس والحديد والكبريت.

وأود من القارئ الكريم أن يعي جيداً ما في الأرقام من دلالات، وخاصة ما يتعلق بالمساحات التي تحتلها كل طائفة من أرض إندونيسيا، وعدد المسلمين مجتمعين إلى عدد الديانات الأخرى مجتمعين، وكثافة السكان في كل كيلو متر مربع، فإنها ناطقة بالمعاني الكبار التي قصدناها من هذا المقال، والتي سنبدأ في تحليلها ومناقشتها لاستجلاء الحقائق المجردة العارية، وكشف النقاب عن الأخطار الداهمة التي تهدد هذا الجزء العزيز من العالم الإسلامي، وذلك في مقال قادم إن شاء الله تعالى.

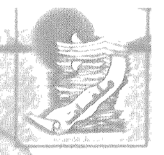
هذه هي شهادة الأرقام التي لا تكذب ولا تزيغ، هذه هي المناطق النائية المجهولة الَّتي لم يسمع لها العالم ذكراً قبل اليوم. ومن يدري؟! ربما هبت عاصفة دولية مفاجئة من أجل تحرير (نوستنجارا الحرة) من تجاوزات وممارسات الجيش الإندونيسي، هذه المحافظة الإندونيسية التي لا يدري بها أحد حتى في العالم الإسلامي، ولكن العالم الصليبي يعرفها جيداً ويتلمظ لافتراسها كما فعل بتيمور الشرقية من قبل، هم الذين ما زالوا ينصِّرون هنالك منذ ثلاثة قرون توطئة لليوم الموعود الذي تتدخل فيه الشرعية الدولية ولجان حقوق الإنسان والمقررات العالمية والقوات الدولية من أجل إنقاذها من المسلمين على غرار ما تم في كل القضايا المماثلة سواء في الماضي أو في الحاضر. ثم من يدري؟! ربما خرج من بين أطفال المسلمين المطرودين اليوم من يعي ويفهم جيداً حقيقة الإعصار المدمر الذي يكتسح كل شيء أمامه، فيعيد الأمور المختلة المائلة إلى نصابها، ويقيم الحق مكان الباطل وينقذ الأطراف الغالية من الجسد الإسلامي المثخن بالجراح، من يدري؟ ربما يكون الانتصار الآتي أقرب من عيوننا، والفرج أدنى من المسافة بين أقلامنا وصحائفنا، يوم تتبدل أمور ظن الجميع أنها استعصت على السنن فلا تتبدل ولا تتغير، ظنوا أنها سبقت وأعجزت فلا تطالها سنة الله ـ تعالى ـ الصارمة الماضية دون هوادة على مشارف الدهور الغابرة في الأولين والآخرين.

■ إن الهدف الرامي إلى تنصير إندونيسيا يلقى تأييد بلاد قوية مثل الولايات المتحدة الأمريكية التي لا تتردد في إمداد الحركة التنصيرية بالمال في كل مناسبة، وهذه الحركة (الحركة التنصيرية) تلقى تأييد الأجهزة الأمريكية مثل وكالة المخابرات المركزية، كما تلقى تأييد أجهزة أخرى موزعة في أنحاء العالم وخصوصاً في البلاد الإسلامية، تحت غطاء المبشرين والتجار وخبراء التعدين...إلخ.

يجب علينا ـ نحن المسيحيين ـ أن نضمن أن تكون سياسة الحكومة موجهة نحو الغرب دائماً وخصوصاً نحو الولايات المتحدة الأمريكية، وعليكم أن تدركوا أن حزب غولكار (حزب سوهارتو) وحكومته موجهان نحو أمريكان وهذا هو السبب في توجيهنا لكل المسيحيين بالانضمام إلى حزب غولكار والعمل على فوزه في كل الانتخابات، وعلى كل المسيحيين أن يعرفوا أن حزب غولكار هو حزب المسيحيين، وهو الحزب المسؤول عن نجاح المسيحيين إلى هذا الحد في إندونيسيا.

ويجب أن نتأكد دائماً من أن الصحف الإندونيسية والإذاعة والتليفزيون تكتب وتذيع الأحداث بصورة تخلق انطباعاً سيئاً حول الإسلام والمسلمين ولزرع الفتنة في صفوفهم لدفعهم إلى الاقتتال فيما بينهم: (شتتوهم ومزقوهم ثم سيطروا عليهم واحكموهم) هذه هي شعاراتنا وتكتيكنا لإخضاع المسلمين في إندونيسيا، ويجب أن نستغل الصحف وغيرها من وسائل الإعلام الخاضعة لنا لنشر الدعاية الكفيلة بتمزيق وحدة المسلمين في إندونيسيا.

[من وثيقة مجلس الكنائس الإندونيسي في مؤتمره بجاكرتا عام ١٩٧٩م ـ عن مجلة الإصلاح، العدد: ٣٨٠] ـ البيان ـ



التنصير.. هل أصاب الهدف؟ (٢ ـ ٣)

التنصير في إفريقيا

السنغال أنموذجاً

سيدي غالي لو

نبذة عن السنغال:

السنغال إحدى الدول الواقعة في غرب القارة الإفريقية، تحدها شرقاً جمهورية مالي، وغرباً المحيط الأطلسي، وشمالاً الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وجنوباً الغينيتان (غينيا بيساو وغينيا كناكري).

تقدر مساحة السنغال بـ ١٩٦,٢٠٠ كلم٢، وعاصمتها دكار، ويبلغ تعداد سكانها ثمانية ملايين ونصف مليون نسمة(*)، وأهم القبائل التي يتشكل منها سكان السنغال هي: الفولانية، والولوفية، والسيرير، والجولا، والسونينكي، والماندينغ، وتنقسم البلاد إدارياً إلى عشرة أقاليم، ومن أهمها: دكار، وتياس، وجوربيل، وفاتك، وكولخ، ولوغا، وسين لوي، وتامباكوندا.

وكانت السنغال مستعمرة فرنسية لمدة ثلاثة قرون، ثم حصلت على استقلالها من فرنسا سنة ١٩٦٠م، وتحتفل بيومها الوطني في الرابع من إبريل. وبعد حصولها على الاستقلال مباشرة ألّفت مع جارتها «مالي» ما كان يعرف باسم «اتحاد مالي» غير أن ذلك الاتحاد كان قصير الأمد؛ حيث تفكك في ١٠/٨/١٩٦٠م.

والسنغال من الدول المؤسسة لكل من منظمة الفرنكوفونية ومنظمة الوحدة الإفريقية، كما أنها عضو في هيئة الأمم المتحدة وحركة عدم الانحياز ومنظمة المؤتمر الإسلامي. ونظراً لموقعها الجغرافي المتميز ودورها القيادي البارز في إفريقيا؛ فإن الغرب يطلق عليها اسم «بوابة إفريقيا». وكانت هذه البوابة ولا تزال مدخلاً رئيساً للتنصير في منطقة غرب إفريقيا».

بداية التنصير في السنغال:

التنصير حركة دينية سياسية استعمارية ظهرت إثر انهزامات الصليبيين، وتهدف إلى نشر الديانة النصرانية بين الأمم والشعوب وبخاصة المسلمين لإحكام السيطرة عليهم.

وكانت الحملات التنصيرية مركزة في بدايتها على مناطق النفوذ الإسلامي في الشرق، ثم امتدت إلى مختلف أقطار العالم. أما منطقة غرب إفريقيا بوجه عام والسنغال بوجه خاص فقد دخلتها الحملات التنصيرية في القرن الخامس عشر الميلادي إبّان الاكتشافات البرتغالية، فهو الوقت الذي وصل فيه المنصرون الكاثوليك إلى سواحل إفريقيا الغربية وبدؤوا يحتكون بسكان المنطقة من المسلمين والوثنيين.

(*) ٩٥٪ مسلمون، ٢٪ وثنيون، ٣٪ مسيحيون.

ففي عام ١٤٩٣م أصدر البابا الإسكندر السادس إذناً عاماً للبرتغاليين لاكتشاف مناطق غرب إفريقيا وممارسة التنصير فيها، واستمرت بعد ذلك جماعات المنصرين تتوارد إلى المنطقة إلى أن أرسلت الكنيسة الرومانية في الثلث الأول من القرن السابع عشر الميلادي جماعة رهبان كامبوجيين من نورمانديا للتنصير في السنغال على التحديد. ثم تطور التنصير في السنغال إلى حد تنصيب «ديوانت DUVANET» رئيساً للأساقفة بالسنغال سنة ١٧٦٣م وكان قد ركز النشاط التنصيري على سين لوي وغوري. وفي سنة ١٨٢٢م نزلت المنصرة «جاوويه JAVOUEH» مدينة سين لوي، ومن جهود هذه المبشرة أنها أعادت تنظيم مدينة سين لوي، وأقامت مدارس كاثوليكية في كل من سين لوي وغوري، كما أسست جمعية: «أخوات سينت جوزيف» وعادت إلى فرنسا بصحبة ثمانية من الشبان السنغاليين ليتلقوا تكوينهم الديني في فرنسا.

وكانت البعثات التنصيرية إلى السنغال تابعة للكنيسة الكاثوليكية، أما الكنيسة البروتستانتية فقد وصلت بعثاتها إلى السنغال من بريطانيا وألمانيا بعد الاستقلال، ولا زال أتباعها في السنغال أقلية مقارنة بأتباع الكنيسة الكاثوليكية.

وقد ظهر من خلال هذا الاستعراض السريع ارتباط التنصير بالاستعمار الأوروبي؛ ذلك أن الأوروبيين قد خبروا من تجاربهم المريرة أنَّ محاولات السيطرة الاستعمارية لا تنجح إلا بالقضاء على المقومات الروحية والمعنوية للأمم المستهدفة. ولا أدل على ذلك من أن أعضاء بعثات التنصير هم خليط من الدول الاستعمارية، كما أن أقدم الكنائس في السنغال قد بنيت في عهد الاستعمار الفرنسي وفي المدن التي ترسخت فيها قدم الاستعمار مثل سين لوي وغوري ودكار وبارنيه. وهذا هو ما يؤكده المنصرون أنفسهم. فيقول المنصر «إيليكيا أمبوكولو» في كتابه: «من المنصرين إلى المكتشفين»: «من الصعب التحدث عن الاكتشاف مع نسيان أخيه التنصير»[1]. ويقول القسيس الدكتور صمويل زويمر في الخطبة التي ألقاها أمام مؤتمر القدس التبشيري سنة ١٩٣٥م: «وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية»[2]. وأكد الرئيس السنغالي ـ المسيحي ـ السابق «سينغور» أن «هدفنا ليس تنصير المسلمين بقدر ما هو تلويث عقيدتهم الإسلامية».

المنظمات والمؤسسات التي ترعى التنصير في السنغال:

توجد عشرات المنظمات المزعومة بأنها خيرية ترعى التنصير في السنغال، ومن هذه المنظمات:

١ - شبيبة العمال الكاثوليك، وتعمل في السنغال منذ سنة ١٩٣٩م.

٢ - هيئة الإغاثة العالمية الكاثوليكية، وتعمل في السنغال منذ سنة ١٩٤٧م.

٣ - مجلس الكنيسيات لمجالس الإله (عالمية) دخلت السنغال سنة ١٩٧٢م.

٤ - منظمة الإغاثة الكاثوليكية الأمريكية، وقد دخلت السنغال سنة ١٩٧٣م.

٥ - دابليو إف دي (W.F.D) ـ ألمانية ـ دخلت السنغال سنة ١٩٧٥م.

٦ - أرض الرجال «TERR DES HOMMES» (فرنسية سويسرية) دخلت السنغال سنة ١٩٧٩م.

٧ - البعثة الإنجيلية النرويجية (نرويجية) دخلت السنغال سنة ١٩٨٣م.

٨ - وورلد فيزيو إنترناشيونال (عالمية) دخلت السنغال سنة ١٩٨٤م.

٩ - الاتحاد المسيحي للشبان (عالمية) دخلت السنغال سنة ١٩٨٤م.

---

(١) من المنصرين إلى المكتشفين، إليكيا أمبوكولو، ص ٤٦.

(٢) قوى الشر المتحالفة، محمد محمد الدهان، ص ١١٤.

١٠ - البعثة الإنجيلية (أمريكية) دخلت السنغال سنة ١٩٨٥م.

١١ - الكنيسة الإنجليزية اللوثرية (بريطانية) دخلت السنغال سنة ١٩٨٤م.

١٢ - البعثة المعمدانية (أمريكية) دخلت السنغال سنة ١٩٨٤م.

١٣ - ليون كليب إنترناشيونال LIONS CLUB INTERNATIONAL (عالمية).

١٤ - مؤسسة إليزبيت جوف (باسم زوجة الرئيس السابق)، وهي تقوم مقام وزارة الشؤون الاجتماعية في السنغال.

إلى غير ذلك من المنظمات العاملة في الساحة السنغالية لخدمة التنصير والمدعومة من الدول الغربية بميزانيات ضخمة وعدد كبير من الموظفين.

الوسائل والأساليب:

تعتمد حركة التنصير على عدة وسائل وأساليب لتحقيق أهدافها، ومن أهمها:

١ - بناء الكنائس:

ويرتبط تاريخ الكنيسة في السنغال بالاحتلال الأجنبي للبلاد؛ حيث كانت الكنيسة ضمن أسلحة المستعمر. وعلى الرغم من عدم توافر إحصاءات دقيقة لدينا عن عدد الكنائس التي بنيت في السنغال حتى الآن فإن الدلائل تدل على كثرتها. ومن الملفت للنظر أن النصارى في السنغال لا يراعون في بناء كنائسهم حاجة المسيحيين إليها، بل يقيمون بعض الكنائس في مناطق لا وجود لهم فيها سعياً منهم لإظهار الوجود المسيحي في بلد تقل نسبتهم الحقيقية فيه عن ٤٪.

وقد تم بناء أول كنيسة في السنغال في غوري سنة ١٤٨٢م، وفي سنة ١٨٢١م تم تشييد كنيسة في مدينة سين لوي، وفي سنة ١٨٤٦م بدؤوا ببناء صومعة في دكار. ومن أقدم الكنائس في السنغال كنائس غوري وسين لوي ودكار وغازوبيل وفاتك وجنغولور وجروب وكولخ وزيغنشور ومورولاند وتياس وجوال.

٢ - إنشاء مراكز تكوينية:

لقد اهتم المنصرون بإنشاء مراكز تكوينية متقدمة لتخريج القساوسة والرهبان في السنغال، ففي سنة ١٨٥٠م فتحوا مركزاً لتكوين القساوسة الأفارقة في «غزوبيل»، وفي سنة ١٨٥٧م تم إنشاء مركز آخر لتكوين القساوسة على مستوى غرب إفريقيا في مدينة سبيقوتان التي تبعد عن مدينة دكار بحوالي ٤٠ كيلو متراً، كما تم فتح مركز «أخوات سنيت جوزيف» في سين لوي لتنصير البنات.

٣ - إقامة مؤسسات تعليمية:

لقد أدرك المنصرون خطورة التعليم، فاتخذوا منه أسلوباً لسلخ المسلمين عن عقيدتهم وطبعهم بالطابع النصراني. وقد أنشؤوا في السنغال مؤسسات تعليمية نصرانية من حضانات وروضات للأطفال ومدارس ومعاهد عليا. وتتمثل الخطورة الكامنة وراء هذه المؤسسات في أن الغالبية العظمى من الذين يتلقون بها العلم هم من أبناء المسلمين، يتخرجون منها وقد حملوا أسوأ فكرة عن دينهم ووطنهم، إنك تسأل أي تلميذ تخرج من هذه المؤسسات عن بدهيات الإسلام وأركانه، وعن سيرة رسول الله ﷺ، وحياة الصحابة - رضي الله عنهم - وعلماء الإسلام وأبطاله؛ فتجده لا يعرف عن ذلك شيئاً، وإذا سألته عن أدق المعلومات عن أوروبا أو أمريكا أجابك على الفور!

وهكذا نجحت هذه المؤسسات في تنشئة أجيال وإيجاد شخصيات مسلمة ممسوخة لا يربطها بالإسلام إلا أسماؤها؛ فترى محمداً يحمل فكر «جان أو بول»، وفاطمة لا تميزها عن «مادلين»، وتكون الظروف مواتية لأن تتبوأ هذه الشخصيات مكان الصدارة ومراكز النفوذ والحكم، فتكون بطبيعة الحال أداة طيعة لأعداء الإسلام. وقد وصل عداؤهم للإسلام إلى طرد أية بنت مسلمة ترتدي الحجاب في مدارسهم.

٤ - الخدمات الاجتماعية:

لقد استغل المنصرون الثالوث البغيض - الجهل والفقر والمرض - والكوارث الإنسانية للقيام بالتنصير تحت ستار

الخدمة الإنسانية، فأقاموا على طول السنغال وعرضها مستوصفات ومستشفيات، وملاجئ للأيتام ودوراً للُقطاء ومراكز للرعاية الاجتماعية. كما أنشؤوا عدة جمعيات شبابية ونسوية تُوظف لأغراض تنصيرية. وتقوم المنظمات التنصيرية بتوظيف آلاف من الشباب وتدريبهم في شتى المجالات ودعم مشروعاتهم الاستثمارية.

٥ - وسائل الإعلام:

يتمتع المسيحيون بنفوذ كبير في وسائل الإعلام في السنغال، ويشرفون على عدة برامج تنصيرية عبر التلفزيون والإذاعة الوطنية والإذاعات الحرة. كما أن وسائل الإعلام المقروءة من جرائد ومجلات تخدم أهداف التنصير، ويقومون بترجمة حلقات التنصير إلى اللغات المحلية، وبعض هذه الوسائل الإعلامية تقوم بهذه الأعمال دون وعي.

٦ - القنوات الدبلوماسية:

تتستر حركة التنصير وراء القنوات الدبلوماسية لتحقيق أهدافها. ومن المعلوم أن للفاتيكان بعثات بابوية بدرجة السفارات في معظم دول العالم، وهذه البعثات لا همَّ لها سوى الإشراف على المؤسسات التنصيرية وتنشيط حركة التنصير في العالم. ويوجد مقر بعثة الفاتيكان في قلب العاصمة السنغالية دكار بالقرب من الكاتدرائية الكبرى، أضف إلى ذلك أن معظم سفارات الدول الغربية في العاصمة السنغالية دكار لها ملحقات - تسمى بأنها ثقافية - تقوم بنشاطات تنصيرية خطيرة، مثل المركز الثقافي الفرنسي، والمركز الثقافي البريطاني، والمركز الاجتماعي الياباني.

ومما يندى له الجبين أنه لا يوجد حالياً في سفارات الدول العربية والإسلامية في دكار ملحقات ثقافية أو دينية تهتم بشؤون الإسلام والمسلمين.

نتائج التنصير في السنغال (نجاح أو إخفاق)؟:

تختلف نتائج التنصير وآثاره من منطقة لأخرى وفقاً للخطة المرسومة للحركة التنصيرية في كل منطقة؛ ذلك أن المنصرين يهدفون من وراء عملهم إلى تحقيق النتائج الآتية:

١ - نقل المسلمين من الإسلام وحملهم على اعتناق المسيحية.

٢ - إفساد المسلمين عقائدياً وخلقياً وزعزعة القيم الإسلامية في نفوسهم.

٣ - تحقيق الربح المادي والمكسب السياسي.

أما الهدف الأول، وهو نقل المسلمين من الإسلام إلى المسيحية، فقد أخفق المنصرون إخفاقاً ذريعاً في تحقيقه، فنادراً ما يسجل في السنغال أن مسلماً قد تنصر وارتد عن الإسلام، اللهم إلا بعض الحالات التي تحدث من قِبَل أشخاص مستخفين بالدين يفعلون ذلك لتحقيق غايات شخصية.

النشاط التنصيري في إفريقيا

- ١,٦٠٠ مستشفى، ٥,١١٢ مستوصف، ١,٠٥٠ صيدلية، ١٢٠ ملجأ للمرضى، و ٩٨٠ دار لإيواء الأيتام والعجزة والأرامل.
- عدد الكتب التنصيرية المطبوعة بلغات مختلفة ٨٨,٦١٠ عنوان، ونشر منها مئات الملايين!
- عدد المجلات الكنسية الأسبوعية فقط أكثر من ٢٤,٩٠٠ مجلة متنوعة، يوزع منها ملايين النسخ!
- عدد النشرات التنصيرية ٧٠٠,٠٠٠ نشرة، يوزع منها عشرات الملايين.
- إعلام التنصير: عدد المحطات الإذاعية والتلفازية ٢,٣٤٠ محطة، تعمل ليل نهار لنشر تعاليم الإنجيل وخدمة التنصير في مناطق التجمعات والأقليات المسلمة على وجه الخصوص!
- معاهد التنصير: عدد معاهد التنصير في العالم أكثر من ١٢٠,٠٠٠ معهد، كما تشرف الكنيسة في إفريقيا على نحو ١١,٠٠٠ روضة أطفال تلقنهم فيها التنصير. [عن تقرير للندوة العالمية للشباب الإسلامي] - البيان -

وبالعكس فإن كثيراً من المسيحيين في السنغال يعتنقون الإسلام حتى أولئك الذين كانوا محل آمال الكنيسة، مثل سكرتيرة الكاردينال تياندوم التي كانت مقربة جداً إليه لما منّ الله عليها من مواهب عقلية وفكرية، فأدى بها استعمال هذه المواهب إلى اعتناق الإسلام بفضل الله وتوفيقه. كما أن كفة الإسلام قد رجحت على كفة المسيحية من حيث القدرة على جذب الوثنيين واستقطابهم. ولذا فإن أتباع الكنيسة في السنغال إما مسيحيون وراثة، أو وثنيون اعتنقوا المسيحية فيما بعد، أما أن يكون فيهم مسلمون متنصرون فلا تكاد تجد من بينهم إلا قليلاً. كما أن غالبية النصارى في السنغال من قبائل الجولا والمانكانج والسيرير وهي القبائل الأشد تشبثاً بالوثنية.

وإنما نجحت حركة التنصير في السنغال في تحقيق الهدف الثاني المتمثل في إفساد عقيدة المسلمين وزعزعة القيم الإسلامية في نفوسهم، وذلك ما أوصى به القسيس صموئيل زويمر في مؤتمر القدس التنصيري عام ١٩٣٥م؛ حيث قال: «المهمة التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليس هي إدخال المسلمين في المسيحية؛ فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، ومن ثَمَّ لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، إنكم أعددتم شباباً في ديار الإسلام لا يعرفون الصلة بالله ولا يريدون أن يعرفوها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية. وبذلك جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار لا يهتم للعظائم ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء»(١).

وبالتحالف مع قوى الاستعمار تحقق لهم فعلاً ما أرادوا من طبع المجتمع السنغالي بالطابع العلماني وإبعاد الإسلام عن مجال الحياة كل الحياة: السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية.

أما المكاسب المادية والسياسية التي حققها المنصرون في السنغال فحدث عنها ولا حرج؛ فقد أقاموا على طول البلاد وعرضها شبكة واسعة من المؤسسات التعليمية والمراكز الصحية والاجتماعية والمشروعات الاقتصادية التي تدر لهم ملايين الفرنكات متسترين تحت شعار خدمة المجتمع.

ولنضرب مثالاً لذلك بمدينة تياس: ففي هذه المدينة يوجد حي كامل هو أشبه بمدينة مسيحية، ويضم الكنيسة الكبرى في تياس، ودور العلم من الحضانة إلى الثانوية صممت على أحدث طراز، كما فيه مستشفى «سينت جان دي جيه» الذي يفوق المستشفى الإقليمي الحكومي بتياس في بنائه وتجهيزاته، كما يضم عدداً من المراكز الاجتماعية، وعدداً من الأندية الشبابية والنسوية، وأقساماً داخلية للتلامذة الذين يلتحقون بالمدارس الكاثوليكية وغير الكاثوليكية بتياس، كما يوجد فيه المقر الإقليمي لمنظمة «كاريتاس» ـ هيئة الإغاثة العالمية الكاثوليكية ـ التي تقوم بدور بارز في دعم برامج التنصير وتمويل المشروعات الاستثمارية للشباب والنساء.

دور الجمعيات المحلية في مواجهة التنصير:

على الرغم مما جندته حركة التنصير من طاقات مادية وبشرية وما تمتلكه من وسائل متنوعة لمحاربة الإسلام في القارة الخضراء فإنها لم تجد الطريق أمامها مفروشة بالورود، بل واجهت عمليات جهاد كبيرة ومقاومة عنيفة من مسلمي القارة، ولا سيما أن أبناء القارة قد أدركوا منذ الوهلة الأولى أن حركة التنصير متحالفة مع حركة الاستعمار التي جاءت لاحتلال أراضيهم وتدمير عقيدتهم وحضارتهم. ومن ثم شهدت

(١) قوى الشر المتحالفة، محمد محمد الدهان، ص ١٤٤، ١٤٥.

معظم مناطق إفريقيا ملاحم بطولية حقق المسلمون فيها انتصارات باهرة على حركة التنصير وجيوش الاستعمار.

وقد ظلت السنغال منذ القرن السابع عشر الميلادي بؤرة لصراع عقدي محتدم بين الإسلام من جهة والمسيحية والاستعمار من جهة ثانية. وقد مرت المقاومة الإسلامية ضد التنصير والاستعمار في السنغال حتى الآن بثلاث مراحل:

أ - مرحلة المواجهة العسكرية (الجهاد):

وتبدأ من القرن السابع عشر حتى العقد السادس من القرن التاسع عشر الميلادي، ومن أبرز النماذج الإسلامية لهذه المرحلة الداعية المجاهد: الحاج عمر الفوتي تال (١٧٩٥ - ١٨٦٤م) الذي انقاد وراءه باسم الجهاد عدد كبير من المسلمين، وامتد نفوذه من حوض نهر السنغال إلى جبال فوتا جالون في غينيا كناكري إلى ضفاف نهر النيجر و «ماسينا» في مالي. والإمام: سليمان بال مؤسس دولة «ألمام» ويعني الأئمة نسبة إلى الأئمة الذين كانوا قوادها، ومنهم الإمام عبد القادر حامد كان المتوفى سنة ١٧٦٩م.

ومباجاخوبا الذي كان له نفوذ كبير في حوض غامبيا، ومحمد الأمين درامي الذي كان يتمتع بنفوذ كبير في حوضي «باكو» و «بافولابي».

ب - مرحلة الدعوة بالكلمة (الحرب الباردة):

وتبدأ من القرن التاسع عشر الميلادي حتى منتصف القرن العشرين. وقد تميزت هذه المرحلة بالحفاظ على الإسلام حياة روحية وثقافية وتعزيز وجوده في البلاد، ومن رواد هذه الحقبة الشيخ الحاج مالك سي المتوفى سنة ١٩٢٢م، والشيخ الحاج عبد الله انياس المتوفى سنة ١٩٢٢م، والشيخ أحمد بامبا المتوفى سنة ١٩٢٧م[(١)].

وإنما عزف المسلمون عن المواجهة العسكرية في هذه الفترة تكيفاً مع الظروف بعد استعراض نتائج الجهاد في المرحلة السابقة، وبعد الاقتناع بان الاستمرار في المواجهة العسكرية يعرض الوجود الإسلامي للخطر.

توزيع الأناجيل

هل تعلم أن مجموع الأناجيل التي تم توزيعها مجاناً خلال عام ١٩٨٧م فقط بلغ ١١٢,٠٠٠,٠٠٠ نسخة!

وهل تصدق أن الإنجيل في إفريقيا فقط ترجم إلى ٦٥٢ لغة ولهجة إفريقية! ولم تترجم معاني القرآن الكريم حتى بداية عام ١٩٩١م إلا لسبع لغات إفريقية!؟ كما سُجل الإنجيل بطريقة مناسبة للأميين على «كاسيت» بلغات عالمية تصل إلى ٥٤٤٥ لغة ولهجة لتوزيعها على عشرات الملايين في مختلف بلدان العالم.

[عن تقرير للندوة العالمية للشباب الإسلامي] - البيان -

بناء الكنائس

- ٣٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار رصدتها الكنيسة في إفريقيا تحت شعار رعاية حقوق الإنسان الفقير، وبخاصة في المناطق ذات الأغلبية المسلمة، ليس حباً في المسلمين طبعاً أو عطفاً على بؤسائهم في مناطق المعاناة.

- في ساحل العاج: - على سبيل المثال - تبلغ نسبة النصارى ١٢٪ من جملة السكان، ومع ذلك تُشيَّد فيها كاتدرائية (كنيسة ضخمة جداً) تتسع لـ (٣٥٠,٠٠٠) شخص، مع أن غالبية السكان يعيشون تحت خط الفقر!!

- وفي مالي المسلمة المأساة بلغت ذروتها: فهناك كنيسة لكل (٥٠٠) شخص، مقابل طبيب واحد لكل (٨٢,٠٠٠) شخص!

[عن تقرير للندوة العالمية للشباب الإسلامي] - البيان -

(١) هؤلاء الشيوخ من شيوخ التصوف، وعندهم ألوان من البدع المنكرة، ولكنهم يحمدون على مواجهتهم للنصارى، وحرصهم على تثبيت الناس على الإسلام. - البيان -

وقد تمكن شيوخ الإسلام خلال هذه المرحلة من إقامة عدد كبير من خلاوي تحفيظ القرآن الكريم وبناء مساجد وزوايا، كما تمكنوا من جلب كثير من الناس إلى اعتناق الدين الإسلامي.

وإزاء هذا الزحف من العمل الإسلامي غير المسلح لجأ المستعمر المتحالف مع التنصير إلى أسلوب خبيث تمثل في اتهام الدعاة المسلمين بتحريض الناس على العصيان وتعبئتهم للجهاد المسلح ضد الاستعمار، ومن ثم تم نفي بعضهم خارج السنغال ووضع بعضهم الآخر تحت الإقامة الجبرية ومضايقة الآخرين. وصدق الله إذ يقول: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

[الممتحنة: ٢].

غير أن سياسة العصا الغليظة هذه لم تنجح في وقف المد الإسلامي وصرف زعماء الإسلام عن الدعوة، بل زادت من حماستهم ومن سرعة انتشار الإسلام مما اضطر أعداء الإسلام إلى استبدال هذه السياسة بالإغراء والمهادنة وعقد الصلح والتفاهم مع زعماء الإسلام إلى جانب إعداد عينات محلية وتسخيرها لتحقق مآربهم.

ج - مرحلة الصحوة وقيام المؤسسات:

وتبدأ من بداية النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي إلى الوقت الراهن. وقد تميزت هذه المرحلة بـ :

١ - عودة أفواج طلاب العلم من الجامعات الإسلامية والعربية.

٢ - تأسيس جمعيات إسلامية.

٣ - انتشار المدارس الإسلامية والعربية.

٤ - قيام عدة محاولات لإيجاد حركة إسلامية شاملة.

٥ - فتح مكاتب لهيئات إسلامية عالمية.

وإنما تميز العمل الإسلامي خلال هذه المرحلة بالمميزات للأسباب الآتية:

١ - تأثر الطلاب العائدين من الدول العربية بالحركات الإسلامية المعاصرة وخاصة في مصر والجزائر.

٢ - رغبة خريجي الجامعات والمعاهد العربية في التفاعل مع المجتمع عن طريق التعليم.

٣ - تنصل الحكومة مؤخراً عن دمج المثقفين بالعربية في الوظائف الحكومية مما دفع كثيراً منهم إلى فتح مدارس حرة.

٤ - حصول الدولة على الاستقلال سنة ١٩٦٠م، وتخفيف القيود الصارمة التي كانت السلطات الاستعمارية قد وضعتها لمحاربة التعليم الإسلامي والعربي والحيلولة دون تأسيس جمعيات إسلامية.

وبناء على تلك المعطيات ذخرت السنغال بعد فترة وجيزة من حصولها على الاستقلال بعدد كبير من الجمعيات والمراكز الإسلامية التي عززت وجود الإسلام في السنغال. غير أن تعدد هذه الجمعيات قد أدى ـ مع الأسف الشديد ـ إلى التشرذم والتفرق بدلاً من التعاضد والتنسيق لمواجهة العدو المشترك.

وخلاصة القول: أن دور الجمعيات الإسلامية في درء أخطار التنصير في السنغال كان ولا يزال ضعيفاً لعدة أسباب أهمها:

١ - ضعف التنسيق بين هذه الجمعيات في ظل تضافر الجهود بين المؤسسات التنصيرية.

٢ - عدم تركيزها على الأولويات واشتغالها بالمفضول دون الفاضل.

٣ - افتقار العناصر القيادية لكثير من الجمعيات إلى ثقافة إسلامية مؤصلة وكفاءة إدارية.

٤ - كون بعض الجمعيات أسماء بلا مسميات ولا وجود لها في الساحة، وإنما تُستغل لتحقيق مصالح شخصية بحتة.

٥ - ضعف الإمكانات المادية للجمعيات الإسلامية مقارنة بالإمكانات الكبيرة للمؤسسات التنصيرية.

٦ - تمتُّع المؤسسات التنصيرية بامتيازات كبيرة لاحتمائها وراء الهيئات الدولية والقنوات الدبلوماسية والرسمية بخلاف الجمعيات الإسلامية.

٧ - غياب زعامة إسلامية موحدة للإشراف على شؤون الإسلام والمسلمين في السنغال.

موقف الدولة من التنصير:

نستطيع أن نؤكد أن حركة التنصير ما كانت لتحقق مختلف الإنجازات التي حققتها في السنغال لولا الدعم اللامحدود والامتيازات الكبيرة التي تتمتع بها كافة مؤسساتها من قبَل الدولة والقوى العالمية، كما أن السياسة «العلمانية» المطبقة في البلاد إنما تخدم مصالح الأقلية المسيحية على حساب الغالبية المسلمة؛ ذلك أن المستعمر الفرنسي الذي عبّد الطريق لسياسة الدولة قبل منحها الاستقلال كان قد وضع في الحسبان تقوية عقيدة المستعمر ـ المسيحية ـ واحتواء الإسلام، ولا زالت مقولة الحاكم الفرنسي «وليام بونتي» في عام ١٩١٠م: «علينا أن نتجنب كل ما يعزز نشر دين لا يؤمن معتنقوه بمبادئنا» هي المطبقة من قبَل بني جلدتنا اليوم.

وبالإضافة إلى هذا فإن النظام السياسي المتبع في الدولة يخدم الكنيسة في جميع المجالات:

- فالتعليم لا صلة له بالإسلام.
- والشؤون الاجتماعية تُستغل لدعم المراكز التنصيرية.
- والإجازة الأسبوعية يوم الأحد وهو يوم القداس للمسيحيين.
- أما التاريخ المعتبر فهو التاريخ الميلادي.
- والصليب الأحمر مكان الهلال الأحمر.
- جميع الأعياد نصرانية، ما عدا عيد الاستقلال ٤ إبريل، وعيد العمال فاتح مايو، وعيدين إسلاميين، ويومين آخرين يحتفل بهما بعض المسلمين.
- جميع المدارس المسيحية معترف بها ومدعومة من طرف الدولة، ولا توجد مدرسة إسلامية واحدة معترف بها إلا إذا التزمت بتطبيق النظام العلماني في التعليم.
- الاعتراف بالجمعيات النقابية والحركات الكشفية والشبابية ذات الاتجاه المسيحي دون سواها.

اعرف المنظمات التنصيرية

- مؤتمر المعمدانيين الجنوبيين.
- مجلس للإرساليات الأجنبية.
- عنوانه:

.P.O.Box6767 Richmnod, Va 23230

- الرئيس: د. آر. كي. باركر Dr. R.K.Parkess.
- أسست عام ١٨٤٥م.
- منظمة بروتستانتية معمدانية تهتم بالتنصير، نشر وبناء الكنائس، الإغاثة، الإذاعات المرئية والمسموعة، التعليم الديني، طباعة النشرات والكتب وتوزيعها وكل النشاطات التي تقوم بها الإرساليات.
- ميزانية المنظمة السنوية للتنصير في الخارج: ١٦٩,٢٧٥,٠٥٢ دولار أمريكي.
- عدد المنصرين الأمريكان المتفرغين في الخارج عن طريق المنظمة: ٣٨٣٩ شخص.
- عدد الموظفين في داخل الولايات المتحدة: ٤٨١ شخص.
- عدد المنصرين الأمريكان المتفرغين لمدة أقل من ٤ سنوات: ٧٥٥٠ شخص.
- عدد الدول التي تعمل بها المنظمة: ١٢٢ منظمة.
- أهم الدول الإسلامية التي تعمل فيها: (مصر، المغرب، كينيا، نيجيريا، تنزانيا، اليمن).

إحصائيات السكان في إفريقيا ١٩٩٥م (من وجهة نظر نصرانية):

الكاثوليك: ١٢٢,١٠٨,٠٠٠ نسمة.

البروتستانت: ١٠٩,٧٢٦,٠٠٠ نسمة.

الأرثوذكس: ٢٩,٦٤٥,٠٠٠ نسمة.

نصارى آخرون: ٨٦,٦٩٧,٠٠٠ نسمة.

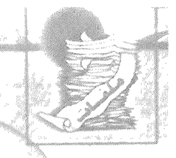
المسلمون: ٣٠٠,٣١٧,٠٠٠ نسمة.

أديان محلية تقليدية: ٧٢,٧٧٧,٠٠٠ نسمة.

مجموع السكان: ٧٢٨,٠٧٤,٠٠٠ نسمة.

[نقلاً عن كتاب: لمحات عن التنصير، د. السميط]

ـ البيان ـ



التنصير.. هل أصاب الهدف؟ (٢ ـ ٢)

مواجهة التنصير

فيصل بن علي البعداني

لا تهدف هذه المقالة إلى وضع خطة لمواجهة التنصير؛ فذلك أمر أضخم من أن تحويه مقالة، كما أن وضع خطة يتطلب إدراكاً للمخاطر الحقيقية للتنصير على المسلمين، والبيئات الخصبة دعوياً أمام دعاة الإسلام، ويستدعي إلماماً بسبل التنصير ووسائله المختلفة التي تكاد أن تتناول جوانب الحياة المختلفة، ويقتضي معرفةً جيدة بقدرات الدعاة وإمكاناتهم التي يمكن أن يوجهوها للمواجهة، وهو أمر يفوق إمكانات الفرد بكثير.

أضف إلى ذلك أن بين المنصرين اختلافات جذرية لا بد من مراعاتها أثناء وضع خطة للمواجهة، وتلك الاختلافات إما في المعتقدات والمبادئ، وإما في الطاقات والقدرات، وإما في الرغبة في الوصول إلى الحق والأخذ به، وإما في المكر والدهاء ومدى الوضوح في إبانة الأهداف واستخدام وسائل تنصيرية مباشرة.

زد على ذلك اختلاف تجذر النصرانية من بلد إلى آخر، واختلاف أحوال النصارى كثرة وقلة، نفوذاً وسلطة، غنىً وفقراً، حباً وبغضاً...إلى غير ذلك من الأمور التي تجعل من غير المناسب وضع خطة موحدة لمجابهة التنصير في كل البلدان، وأن الأليق هو أن يتجه دعاة كل بلد إلى وضع خطة لمجابهة التنصير تراعي عناصر القوة والضعف التي يملكها كل من المنصرين والدعاة على حد سواء، وحجم الخطر التنصيري الذي يواجه الدعوة ويعوق مسيرتها في ذلك البلد؛ فذلك أقرب إلى الحكمة والواقعية وأبعد عن المثالية والعيش في أبراج عاجية.

وانطلاقاً من ذلك فإن هذه المقالة تهدف إلى ذكر وقفات تذكّر بقاعدة، وتؤكد على ضابط، وتنبه على جانب، وتحذر من عائق، وتبرز قضية، وتدعو إلى الموضوعية والواقعية في الطرح والتناول.

وقفات حول المواجهة:

١- العون من الله؛ فلنتأهل لنيله:

عون الله للفرد أو المؤسسة الدعوية هو شرط النصر وبوابته في أي مواجهة؛ فمن انتصر فالله الناصر له، ومن وُفّق فالله الموفق له، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وفي المقابل فمن لم يسدده الله فلا مسدد له، ومن فقد عون الله كانت عاقبته الهزيمة ومصيره الخذلان.

كما قال الشاعر :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى

فأول ما يجني عليه اجتهاده

وقد قال الله - تعالى - مقرراً لهذا الأمر: ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ﴾ [الملك: ٢٠].

وقد تيقن ذلك العاملون الصادقون، فتعلقت قلوبهم بمن يدبر الأمر سبحانه وتعالى، وبرئوا من حولهم وقوتهم، واستحقروا أعمالهم وجهودهم مهما كانت في نظر الآخرين عظيمة، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية الذي - على ضخامة ما قدم للأمة في مجالات كثيرة - كان كثيراً ما يقول: «ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فيّ شيء»[1]. واتجهوا إلى السعي إلى نيل عون الله وتوفيقه الذي له أسباب معنوية ومادية، من حصلها حازه، ومن فقدها حرمه، والتي من أبرزها :

أ - دعاء الله - سبحانه - والتضرع بين يديه، كما قال - تعالى -: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] وفي حال النبي ﷺ يوم بدر وإلحاحه على ربه في تضرعه حتى سقط رداؤه عن منكبيه - مع أنه موعود بنصر الله تعالى - أسوة لمن أراد الاقتداء.

ب - التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، كما قال - تعالى - : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ [الطلاق: ٣].

وحين اجتمع المشركون بعد أحد لحرب المؤمنين، وقال المؤمنون قلباً وقالباً: حسبنا الله ونعم الوكيل، كانوا كما قال الله عنهم: ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

ج - التوبة والإقلاع عن الذنوب والمعاصي، كما قال - تعالى -: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، وفي الأثر عن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة»[2].

د - الصبر والإكثار من الصلاة كما قال - تعالى -: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال - سبحانه -: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾.

[البقرة: ٤٥].

هـ - تقوى الله وطاعته والحذر من معصيته، كما قال - عز وجل - : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢]، وقال - سبحانه -: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾.

[الطلاق: ٢].

و - بذل الوسع والأخذ بأسباب النصر المادية بقدر الاستطاعة امتثالاً لقوله - عز وجل -: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فمتى أراد الدعاة تحصيل هذا السلاح الذي لا يمكن أن يمتلكه المنصرون فعليهم بذل الجهد واستفراغ الوسع في تحصيل هذه الأسباب حتى يكونوا أهلاً لنيل رحمة الله وعونه لهم في مواجهتهم لدعاة الشرك وأرباب الضلالة.

٢ - الانضباط الشرعي شرط النصر:

يعد الدخول في مواجهة التنصير أحد المزالق الخطرة التي يخشى فيها من التفلت من الضوابط الشرعية سواء كان ذلك في جانب عرض الإسلام

---

(١) مدارج السالكين، ١/٥٢٠.

(٢) انظر: الجواب الكافي، لابن القيم: ٨١.

والحديث عن عقيدته وشريعته، أو في التعامل مع المنصرين الذين يستخدمون أساليب ملتوية وغير أخلاقية في عرض عقائدهم والحديث عن جوانب الإسلام المختلفة، منطلقين في ذلك من قول القديس بولس: (أنا أكون بكل الأشكال والمظاهر من أجل كل الناس)(1).

وذلك مما يمكن أن يحدث ردة فعل لدى بعض دعاة الإسلام فيجعلهم إما يقدمون تنازلات أثناء عرض الإسلام من أجل ترغيب النصارى به، وإما يتورطون بعدم الدقة في الحديث عن جوانب النصرانية المختلفة، وإما يعتمدون أثناء دعوتهم على سبل ووسائل غير مشروعة.

وشيء من هذا العمل كما لا يخفى يتنافى مع ثوابت الإسلام ومبادئه؛ إذ الغاية فيه مهما كانت نبيلة لا تسوِّغ الوسيلة المنحرفة، والله - سبحانه - لا يُتقرَّب إليه بمعصيته، ولا تُنال بركته وتسديده وتوفيقه بمخالفة أمره.

والمطلوب في هذا السبيل هو: تأكد الدعاة من هيمنة النص الصحيح على خططهم وبرامجهم، ومن صحة الوسائل التي يستخدمونها في مجابهتهم للتنصير شرعاً، ومن مراعاتهم للمصالح والمفاسد المعتبرة شرعاً في أنشطتهم التي يقيمونها، انطلاقاً من قول الله - تعالى -: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

على أن الواقع - ولله الحمد - يثبت بأن من أعظم الأمور الدافعة لكثير من غير المسلمين للدخول في الإسلام ثبات مبادئه وقيمه وعدم تلونها بحسب رغبات المدعوين، والالتزام الأخلاقي لدى دعاته وعدم اعتمادهم لسبل ووسائل غير مشروعة، سواء في الترغيب في الإسلام من جهة، أو في التحذير من عقائد النصرانية المحرفة والأصول الوثنية التي داخلتها من جهة أخرى.

٣ - لا لردات الفعل في المواجهة:

المتأمل في جهود كثير من الدعاة الموجهة لمقاومة التنصير يجد أن أغلبها ردود أفعال حدثت نتيجة قيام المنصرين بأعمال استفزت بعض الدعاة - أفراداً ومؤسسات - فأوجد ذلك لديهم دافعاً لمواجهة تلك الأعمال التي أثارتهم.

وخطورة هذا الأمر تكمن في جانبين:

الأول: دلالته على أن أكثر الدعاة - واقعياً - حتى اليوم لم يدركوا أن العملية التنصيرية تحولت من عمل اجتهادي لفرد أو مجموعة إلى عمل مؤسسي ذي كفاءة إدارية عالية: تخطيطاً وتنفيذاً، تنظيماً ورقابة، ويمتلك إمكانات مالية وبشرية ضخمة.

ومن دعوة مباشرة إلى الدخول في النصرانية واعتناق مبادئها إلى جهد جاد يتناول كافة جوانب الحياة المختلفة التي يمكن أن تؤثر في الناس بصورة مباشرة أو غير مباشرة: سياسية واقتصادية، اجتماعية وصحية، ثقافية وإعلامية، رياضية وفنية.

ومن دعوة تركز على شريحة معينة في المجتمع إلى عمل يستهدف كافة شرائح المجتمع: رجالاً ونساءاً، كباراً وصغاراً، مثقفين وأميين، أغنياء وفقراء، وجهاء وعاديين.

ومن دعوة تهدف فقط إلى اعتناق الناس النصرانية إلى دعوة من أهدافها خدمة الاستعباد الغربي، والحيلولة دون انتشار الأديان الأخرى، وجعل أتباعها يخرجون من أديانهم ويعيشون بلا دين منغمسين في مستنقع الشهوات واللهو والرذيلة.

الثاني: دلالته على أن بإمكان المنصرين توجيه الدعاة الوجهة التي يريدون عن طريق القيام بأعمال تستفزهم بصورة فجة ليستهلكوا طاقاتهم ويستنفدوا قواهم بالرد عليها، وفي المقابل يقوم المنصرون بأعمال أخرى لا إثارة فيها تحقق مآربهم بعيداً عن أعين الدعاة ومقاومتهم.

---

(١) انظر: ١٣ خطوة لتنصير المسلمين، أبو إسلام أحمد عبد الله، ص ١٤.

والحل الأمثل لتجاوز هذه المعضلة يكمن في تحويل جهود الدعاة في مقاومة التنصير إلى جهد مؤسسي منظم يستشعر الخطر ويدرك ضخامته، ويدرس الواقع دراسة جيدة يتعرف من خلالها على عناصر القوة والضعف لدى الفريقين، وعلى ضوء ذلك يتم تحديد رؤية المواجهة ورسالتها، والأدوار التي تقوم بها، وأهداف كل دور، والوسائل المحققة لتلك الأهداف، والمدد الزمنية التي ستتحقق فيها الأهداف في ضوء الإمكانات المتاحة: بشرية، ومادية.

كما لا بد من وضع آلية للتقييم والمراجعة يتم من خلالها التأكد من السير في الاتجاه المراد، ومن تحقيق الوسائل المنفذة للأهداف المرجوة، ولا بد من امتلاك مرونة كافية تمكن الدعاة من تعديل الخطة متى حدث في الواقع ما يستدعي تعديلاً لبعض الأهداف أو إعادة لترتيب أولويات المرحلة، ومتى لوحظ بُطْءٌ في السير أو انحراف عن الاتجاه المراد.

وباختصار: فإننا بحاجة إلى مواجهة مؤسسية منظمة تتسم بالموضوعية والواقعية؛ لئلا ننساق إلى حيث لا نريد. وهذا أساس كبير من أسس النجاح.

وليس المراد هدر أهمية الاستجابة السريعة للطوارئ بما يخدم الأهداف والغاية، بقدر ما هو المطالبة بأن تكون تلك الاستجابة ـ المتمثلة في ردة الفعل ـ هي في حقيقتها التخطيط المدروس المرن الذي يراعي الهدف، ولا يهمل مستجدات الواقع ومتغيراته السريعة.

وإذا ما رئي نازلة من النوازل فإن المطلوب هو السيطرة على ردة الفعل وضبطها بما يحقق الهدف، وذلك بفاصل بين المثير والاستجابة، يمنح فرصة للتفكير في أفضل ردة فعل ممكنة تنضبط بالمبادئ والقيم وتحقق الأهداف والنتائج المرجوة.

٤ - الحفاظ على رأس المال أوّلى:

لم تفلح الجهود التنصيرية في أوساط المسلمين في تحقيق نتائج ملموسة في موضوع إدخال الناس في النصرانية، ولكنها نجحت أو تحقق لها مرادها في ثلاثة مجالات:

الأول: إغراق كثير من أبناء المسلمين وبناتهم في بحر الشهوات والملذات وجعل الواحد منهم: «مخلوقاً لا صلة له بالله، ومن ثَمَّ لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها»[1]، وفي إيجاد فريق عريض من أبناء هذا الجيل « لايهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهرة، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهرة يجود بكل شيء» [2].

الثاني: إزالة روح الكراهية من نفوس كثير من المسلمين تجاه النصارى، حتى أصبحت طوائف كثيرة من المسلمين تعتقد بأن النصارى ليسوا بأعداء لهم، ومما ساعدهم على ذلك إظهار المنصرين لروح التسامح، وتقديمهم لبعض المساعدات الإغاثية لمناطق المسلمين المنكوبة، ورفعهم لشعارات الحرية والإخاء والمساواة، وممارستهم لكثير من أنشطتهم وبرامجهم تحت رايات غير دينية.

الثالث: العمل في أوساط فئتين من المسلمين تأثرتا بهم تأثراً كبيراً، وهما:

أ - خريجو الجامعات والمدارس والمعاهد التنصيرية الموجودة في ديار المسلمين.

ب - المهاجرون من المسلمين إلى بلاد النصارى لغرض العمل أو الدراسة أو حتى تلك الفئة التي تذهب للسياحة.

والتي استطاع النصارى إبهار كثير من أفراد هاتين الفئتين وخلق روح الإعجاب لديهم بقيم المجتمع الغربي وعاداته.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ٢/٦٧٩.

(٢) انظر: المصدر السابق.

وأخطر ما في الأمر بالنسبة للمهاجرين تركيز المنصرين على جيل الأبناء الذي تخلَّق جلهم بأخلاق تلك المجتمعات النصرانية وتطبع بعاداتها من جهة، ومن جهة أخرى جهل دينه وانبتر عن تقاليد مجتمعاته الأصلية وعاداتها.

ولا يخفى أن هذا النجاح المتحقق للمنصرين خطوة متقدمة على طريق إضعاف مقاومة التنصير لدى كثير من المسلمين، وتدرج ملموس لأن يلج إلى النصرانية أبناء المهاجرين والدارسين في المؤسسات التعليمية التنصيرية في الديار الإسلامية.

وهذا يعني ضرورة المبادرة إلى مراجعة الأمر وتصحيح الوضع القائم، وفي ظني أنه لا سبيل للأمة إلى تحقيق ذلك إلا أن تسارع بكافة فئاتها إلى رفع شعار: (التربية أولاً) ثم تحويل هذا الشعار إلى واقع معاش على كافة المستويات بحيث يتم تعديل المناهج لتتضمن جرعاً تحصينية ضد الغزو التنصيري؛ لأن زمن الانغلاق على الذات ولَّى، والعالم أصبح في عصرنا قرية واحدة. كما لا بد من إيجاد البدائل العملية أمام الجميع والتي تنبثق من قيم الأمة ومبادئها، وترفع همم الأبناء والبنات ليدَعوا حياة الشهوات والملذات، ويطلِّقوا الدعة والكسل، ويعيشوا لغاية هي: حمل الرسالة التي ابتعثهم الله من أجلها تعلُّماً وممارسة ودعوة.

كما لا بد من التفاته جادة إلى أبناء المسلمين في الغرب والذين يكثر عددهم يوماً بعد آخر، ويزداد حماس المنصرين للعمل في أوساطهم وتهيئتهم لنشر ما يتلقونه من أفكار وما يمارسونه من سلوكيات في أوساط المجتمعات المسلمة كلما ازداد عددهم منطلقين من قول زويمر: «تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم؛ لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أغصانها»[1]، وعندما نمارس ذلك الشعار ونهتم بجد بتلك الفئة يمكننا القول بأننا قد خطونا الخطوة الصحيحة الأولى في مواجهة التنصير والوقوف حجر عثرة أمام تنفيذه لمخططاته.

٥ - بالحق يزهق الباطل:

من السنن المتقررة: محو الجهل بالعلم، وإزالة الظلمة بالنور، واضمحلال الشبهة بالحجة، ودفع الباطل بالحق، ولذا فإن أعظم وسيلة لمجابهة التنصير هي عرض الإسلام وأصول الإيمان صافية نقية كما أنزلها الله - تعالى - على رسوله ﷺ، وذلك من خلال وضوح في الطرح وقوة في الحجة، ويشهد لهذا الأمر قوله - تعالى -: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] .

ويزيد من فاعلية هذه الوسيلة أن النصرانية ديانة يكتنفها الكثير من الغموض؛ فهي لا تستند إلى جلاء في العرض، ولا تعتمد على حجة مقبولة، وإنما تقوم على إثارة للشبهات حول الديانات الأخرى، وتهييج لعواطف المدعوين حول ما يزعمونه من قبول سيدنا عيسى - عليه الصلاة والسلام - لقتل نفسه وصلب جسده فداءاً للبشرية!

والأجدى أن يقترن عرض الإسلام بإيراد حججه العقلية والحسية - وفي الكتاب والسنة منها كثير - وفي المقابل يتم مطالبة القوم بالحجة والبرهان على دعاويهم الخالية من ذلك.

وأن يعمل على دراسة شبهات القوم حول الإسلام، وملاحقة المتجدد منها، وتعريف الدعاة بالرد الصحيح عليها.

والملحوظ كثرة خلط المنصرين الحقّ بالباطل؛ حيث يتغنون ببعض الحق الذي لديهم زاعمين بأن كل ما لديهم حق وأن المسلم يرد الجميع، ولمدافعة هذا الخلط فإن الداعية مطالب في طرحه وحواره بالموضوعية

(١) انظر المصدر السابق.

والاعتراف بجوانب الحق التي في دين القوم وحضارتهم، وبجوانب الضعف التي لدى المسلمين، وأن يبين أن مرد ذلك راجع إلى ضعف التمسك بالإسلام لا للإسلام ذاته ذاكراً الدلائل على ذلك.

٦ - لنشغل القوم بأنفسهم:

لا يملك المنصرون ما يهاجمون به الإسلام إلا الاتهام غير الموضوعي، وطرح الشبهات المغرضة حول بعض القضايا الجزئية؛ ولذا فإن الداعية مطالب بالحذر من أن يكون في موقف الدفاع باستمرار، وعليه أن يسعى لإشغال القوم بأنفسهم والعمل على نقلهم من مرحلة الهجوم إلى الدفاع، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق أمور كثيرة منها :

أ - إبراز العقائد الوثنية والأصول الفلسفية للديانة النصرانية المحرفة، والحديث عن نسخ الأناجيل وتناقضاتها الصارخة، وما تضمنته من نسبة ما لا يليق إلى أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

ب - الحديث عن سلطة الكنيسة التي وصل الحال بسدنتها إلى بيع صكوك الغفران ودخول الجنة، والقيام بإدانة دورها السيئ في الماضي في محاربة العلم والوقوف حجر عثرة في طريق تقدم العلم وازدهار الحضارة والكشوفات العلمية.

والعمل على تعرية رجالها الذين ترهبنوا ظاهراً وتجذر الفساد الأخلاقي والمالي والشذوذ الجنسي بينهم باطناً نتيجة مخالفة الفطرة والبعد عن تعاليم الله - تعالى - وشرعه.

ج - تجلية الاختلافات الضخمة والتناقضات الجذرية في أصول الديانة النصرانية المحرفة وثوابتها بين طوائف النصارى، وإيضاح ما نتج عنها من تكفير وتصفيات جسدية ومعارك رهيبة أزهقت فيها آلاف الأنفس، وأهدرت فيها نفائس الأموال.

د - إيضاح دور البشر في تحريف الديانة النصرانية الحقة، وبخاصة ما قام به اليهود ووثنيو اليونان من أدوار مشبوهة في هذا الجانب منذ رفع سيدنا عيسى - عليه السلام - إلى اليوم.

هـ - الاستفادة من جهود الباحثين النصارى ذوي الشخصيات المستقلة والمنصفة قديماً وحديثاً الذين توصلوا بالبحث العلمي المتجرد إلى بطلان عقائد النصرانية المحرفة، وأثبتوا وقوع التحريف المتعمد للكتاب المقدس، ووجود تناقضات صارخة بين نسخه، وفي المقابل جزموا بصدق نبينا محمد ﷺ وصحة رسالته لما تضمنته من معجزات وبراهين لا تقبل الجحد والتكذيب، وشهدوا بسلامة القرآن من التحريف وخلوه من التناقض.

و - السعي إلى الاستفادة القصوى من كبار القساوسة وعلماء النصارى ومثقفيهم الذين أسلموا في مقارعة المد التنصيري باعتبارهم أدرى بخباياه، وأكثر اطلاعاً على أسراره ومعرفة بمخططاته وحال رجاله.

ز - الاهتمام بالمغتربين من النصارى في ديار الإسلام، والعمل في أوساطهم، والعناية بتأهيل من أسلم منهم علمياً ودعوياً، ثم تبنيه للعمل داعية في وسط قومه إذا رجع إليهم.

وعند النجاح في مثل هذه الأمور يكون الدعاة قد استطاعوا أن ينقلوا المواجهة إلى داخل معسكر المنصرين؛ ويجعلوا جهد القوم الأكبر منصبّاً على معالجة إشكالات الذات، وهذا بلا شك سيخفف من حدة النشاط التنصيري في أوساط المسلمين، وسينقل القوم من مرحلة الهجوم إلى الدفاع، وهذا إنجاز كبير ومرحلة متقدمة في النزال.

٧ - لنوجد دوافع المواجهة لدى الجميع:

يسعى المنصرون عبر اعتماد وسائل تنصيرية غير مباشرة ورفع شعارات علمانية والانضواء تحت رايات غير دينية إلى إماتة روح المواجهة لدى المسلمين وإزالة دوافعها من النفوس.

والحق أنهم قد نجحوا في ذلك إلى حد كبير؛ بدليل

أنك ترى كثيراً من أهل الخير وصادقي الولاء للإسلام من يدافع عن كثير من أعمال القوم في المجالات المختلفة: تعليمية وصحية وزراعية ومهنية ورعاية للأيتام والمسنين معتبرين أن مواجهتها إضرار بالناس ومنع للخير عنهم.

ولذا فالتحدي الكبير يكمن في قدرة العلماء والدعاة على توظيف قطاع عريض من شرائح المجتمع في مواجهة المد التنصيري، وفي مدى استطاعتهم إيجاد دوافع المواجهة لديهم حتى لا يكون تفاعلهم مع الدعاة قضية آنية.

ولعل من أبرز الأمور المعينة على إيجاد دافع مستمر لدى الناس لمواجهة المد التنصيري هي:

أ - إبانة الموقف الشرعي من النصارى، وأنهم كفار مشركون بنص القرآن، وتجلية أن الواجب الشرعي هو بغضهم والبراءة منهم والعمل على دفع ضلالهم.

ب - تتبع عثرات المنصرين والسعي إلى كشف أنشطتهم التنصيرية المباشرة التي يحرصون على إخفائها تحت أعمال غير مباشرة، والتي تتضمن طعناً في الإسلام أو مناقضة لأصوله، والعمل على استثمار ذلك في إيجاد الدوافع لدى الناس لمواجهتهم.

ج - القيام بتتبع أنشطة المؤسسة التنصيرية في المناطق والدول المختلفة، والتركيز على نشاطها المعادي للإسلام والذي قد تعلنه في موطن دون آخر، والقيام بتوثيقه ثم تعميم العلم به على الدول المختلفة التي للمؤسسة بها نشاط ليكون ذلك دافعاً لمجابهتها من قطاع عريض من الأمة.

د - العمل على الربط بين المؤسسات التنصيرية المحلية والمؤسسات الخارجية التي تتبعها أو توفر الدعم لها، والتي لها أو لرموزها جهود واضحة في محاربة الإسلام والطعن في ثوابته.

وعندما ينجح الدعاة في تجييش قطاع عريض من شرائح المجتمع لمواجهة النشاط التبشيري فإن ذلك سيحقق فوائد عديدة منها:

١ - كسب آخرين يحملون هَمَّ الإسلام ويعملون له، وهذا يؤدي بدوره إلى وقايتهم من التأثر بمكائد المنصرين ومخططاتهم.

٢ - تمكن العلماء والدعاة من التفرغ لأمور هامة لا يمكن للآخرين القيام بها كالتعليم والتربية.

٣ - إمكانية صرف جهود بعض من لديه خلل منهجي عن نشر باطله إلى الاشتغال بمواجهة باطل المنصرين وضلالهم.

٨ - التخصص طريق إتقان وعامل قوة:

قليلٌ أولئك الدعاة ونادرة تلك المؤسسات التي أخذت على عاتقها فقط مجابهة التنصير ومقاومة مخططاته، وقد يكون العذر أن الواجبات أكثر من جهود الدعاة وأوقاتهم، فاضطرهم الحال إلى أن يأخذوا من كل مجال بجانب، لأن ما لا يدرك كله لا يترك جله، ومع منطقية هذا الطرح إلا أن من سلبياته: عدم إتقان شيء من المجالات المتناولة، وعدم القدرة على الموازنة بينها بالصورة المرضية؛ إذ كثيراً ما نفرط في الاهتمام بمجال على حساب مجال آخر، وكثيراً ما يهمل الآخرون الاهتمام بمجال - مع أهميته - ظناً منهم بأن جهودنا تغطيه، والواقع خلاف ذلك.

وتزداد الخطورة حين يكون الأمر متعلقاً بمجال كالتنصير الذي تنوء مواجهته بعدة مؤسسات مجتمعة؛ فكيف يكون الحال حين تكون مقاومته جزءاً من جهد مؤسسة تعتني به حيناً وتهمله في أحيان أخرى.

والحل - لمواجهة هذا الضعف في التناول والاتكالية في المواجهة - يكمن في التخصص وحده؛ إذ إن زمن الفرد أو المؤسسة الأسطورة التي تعمل في كل شيء وتتقن كل شيء ولّى إلى غير رجعة، ولم يعد أمام من أراد إتقاناً وإجادة إلا التخصص؛ لأن ذلك سيعني تركيز الجهود، ومنع التشتت الذهني والعملي، وجودة العمل وزيادة الإنتاجية وسهولة التخطيط والتنفيذ والمتابعة.

ومع أن المطلوب هو إيجاد مؤسسات متخصصة في

مواجهة التنصير في كل قارة وإقليم بل وفي كل بلد إلا أن ذلك قد يحتاج إلى بعض الوقت. وجهود التنصير اليوم تنتشر في أوساط المسلمين انتشار النار في الهشيم، وهذا يعني أن تأخير المواجهة حتى تقوم تلك المؤسسات يحمل في طياته خطراً كبيراً.

ولذا فالحل المقترح: أن تقوم كل مؤسسة إسلامية تحمل هَمَّ الدعوة إلى الله بإنشاء مراكز بحث متخصصة لرصد الجهد التنصيري في نطاق عملها الجغرافي أو النوعي دعوياً كان نشاطها أو تعليمياً أو صحياً أو اجتماعياً أو إغاثياً، واختيار مجموعة من الدعاة التابعين لها في كل بلد للقيام بهذه المهمة؛ بحيث يتم تأهيلهم وتوفير المتطلبات اللازمة لنجاح عملهم، وعندها يمكننا القول بأننا قد أدركنا خطورة المد التنصيري وخطونا خطوة جادة في مواجهته.

٩ - للدعاة مع تجربة المنصرين وقفات:

عند التأمل في عوامل نجاح المنصرين مع فساد عقائدهم وتناقضات نسخ أناجيلهم ومصادمة أطروحاتهم للعقل والمنطق يجد المرء أنها تعود إلى أربعة أمور هي: الإدارة الناجحة، والعاطفة الجياشة، والجهد المتميز، والذكاء الوقاد.

– فالإدارة الناجحة مكنتهم من تعزيز الإيجابيات ودعمها، وتحجيم السلبيات ونقاط الضعف ومحاولة تلافيها، واستغلال الفرص والإمكانات البشرية والمادية بأفضل صورة، وتجاوز الصعوبات وتحاشي المخاطر المتوقعة بقدر الاستطاعة.

– والعاطفة الجياشة مكنتهم من جذب كثير من المتطوعين إلى صفوفهم، وكثير من أصحاب الشركات ورؤوس الأموال إلى دعمهم، والمدعوين إلى التأثر بهم، وساعدهم على ذلك اعتناؤهم بالبرامج الإغاثية والاجتماعية والصحية والمهنية متخذين من ذلك مدخلاً للوصول إلى ما يريدون، والتي بدورها ساعدت على إظهار دينهم بمظهر الرحمة والرفق ومساعدة الضعفاء والإحسان إلى الآخرين ومواساتهم.

– والجهد المتميز حوّل الأفكار إلى أعمال، والأطروحات النظرية إلى ممارسات ميدانية.

– والذكاء المتقد دفعهم إلى اعتماد خطط بعيدة المدى، واستخدام وسائل غير مباشرة، ورفع شعارات براقة، والانضواء تحت رايات غير دينية، بل واستخدام العلمانية سلاحاً يهاجمون به الإسلام حين وجدوا أن الأصول النصرانية والشطحات العلمانية لا يمكن أن تقف في مواجهة الثوابت الإسلامية.

وهذا الأمر يستلزم من العاملين في حقل الدعوة عموماً، وبخاصة العاملين في مواجهة التنصير ومدافعة مكائد المنصرين وضلالاتهم وقفات عديدة أهمها:

أ – أنه لا بد من تحسين الوضع الإداري الهش في كثير من المؤسسات الإسلامية ضماناً لاستثمار أمثل للموارد البشرية والمادية والفرص المتاحة، وتحاشياً للمخاطر، وتلافياً لنقاط الضعف بقدر الإمكان.

وما لم يبادر أهل الشأن إلى العناية بذلك فإن الخسائر ستزداد، والعبء سيتضاعف، وإمكانية التصحيح والمعالجة ستصعب إن لم تتضاءل.

ب – أهمية العناية بالعاطفة واستخدامها في الطرح والممارسة الدعوية، وعدم الاقتصار على التناول العقلي والعرض المنطقي ـ مع أهميته ـ لأن العاطفة في جانب الهداية والتأثير في النفوس أقوى من العقل؛ إذ العقل بوابة الإقناع وما كل من اقتنع استجاب؛ ولكن العاطفة سبيل كسب القلوب واتخاذ المواقف وهو الغاية هنا، وفي ظني أن قصور كثير من الدعاة في العناية بجانب العواطف واهتمامهم بإقامة الحجة والبرهان فقط أدى إلى خسارة الكثير من الفئات التي كان يمكن استثمارها في مجابهة التنصير أو على الأقل حمايتها من مكائده.

ج – مع أهمية التخصص النوعي في أنشطة الدعاة إلا إنه لا بد من تكامل الأنشطة وتعاضدها وتنسيق أصحابها فيما بينهم؛ فالداعية مثلاً ما لم يحمل بيده

إغاثة وإحساناً يقدمه للمسكين فإن استجابة الناس لدعوته ستكون محدودة، والمغيث ما لم يحمل بيده مصحفاً، ويستصحب معه داعية فإنه يكون قد قصَّر غاية التقصير، وأهدر فرصة لن تعوض، وهذا يوضح بجلاء حجم الخسارة التي تجنيها الدعوة من جراء تشتت الجهود وعدم تنسيق أصحابها فيما بينهم مع أن الأهداف في الغالب واحدة، والقواسم المنهجية المشتركة فيما بينهم قد تكون كبيرة.

د – أهمية حرص قادة المؤسسات الإسلامية على احتواء ذوي العقل الناضج والفكر الوقاد، والقيام بتشجيعهم على الإبداع والتفكير بعمق وحرية، ثم السعي إلى الاستفادة من أفكارهم المتميزة وأطروحاتهم الطموحة سواء كان ذلك في جانب تطوير العمل الدعوي والخيري أو في مواجهة مكايد أعداء الإسلام من منصرين وغيرهم.

وما لم يتم الاحتواء لهذه الطائفة من الدعاة من قِبَل المؤسسات الإسلامية - دعوية وخيرية - فإن نموها سيكون بطيئاً، وقفزاتها التطويرية ستكون محدودة، وقدرتها على منافسة المؤسسات التنصيرية في الميدان لن تكون بالصورة المرضية.

١٠ - العمل بوابة النجاح:

لا يعاني الدعاة إلى الله من مشكلة في ندرة الأفكار وقلة الوسائل التي يجابهون بها المنصِّرين بمقدار ما يعانون من كثرة المتكلمين وقلة العاملين؛ إذ غالبية الدعاة لم تستطع بعدُ أن تحوِّل ما تملكه من أفكار وتصورات في هذا السبيل إلى واقع عملي معاش يسهم في نصرة الحق ومحاربة الزيغ والضلال.

ولو تأمل المرء في حياة عظماء البشر لرأى أن عظمتهم لا ترجع إلى امتلاكهم قدرات خارقة يمتازون بها عن بقية البشر - إذ هناك كثير ممن يشاركونهم في امتلاك تلك القدرات إن لم يتفوقوا عليهم فيها - وإنما ترجع إلى سلطتهم على أنفسهم وحملهم لها على تجاوز إدراك الأفكار والحديث عنها إلى تنفيذها وتحويلها إلى واقع عملي معاش.

ولست بذلك أقلل من أهمية التصورات الناضجة والأفكار العميقة المبدعة التي يطرحها بعض الدعاة لمجابهة التنصير، ولكن من المؤكد أن تلك الأفكار - على جودتها - بدون تنفيذ ستبقى مجرد خيال وحلم.

وخطورة استمرار هذه الظاهرة غير خافية؛ إذ إنها تقلل الإنتاجية وتفقد الدعوة الكثير من الطاقات وفرص النجاح التي من الممكن أن يخفت بها صوت التنصير في ميادين كثيرة.

ومفتاح تجاوز هذه الظاهرة يعتمد على أمور عدة أهمها أمران :

أ – العمل على استمرار تنامي الشعور بالظاهرة والإحساس بخطورتها والعزيمة على تجاوزها.

ب – قيام كل فرد منا بتحمل مسؤوليته تجاه نفسه؛ بحيث يلزمها بالتنفيذ الفوري لما يؤمن به من أفكار ناضجة تصلح لمواجهة القوم ورد كيدهم.

وما لم يتم ذلك فإننا باقون في دائرة القول، والمنصرون في دائرة العمل، وما سبقَ متكلمٌ عاملاً.

١١ - وأخيراً: فالنصر للإسلام:

فالمواجهة مهما طال زمنها، وعظمت مشقتها، وإمكانات الدعاة مهما ضعفت، وخسائرهم مهما كثرت فالعاقبة للإسلام، والنصر آت لا محالة، بعد استكمال شروطه، وتحصيل أسبابه، وامتلاك وسائله.

جاءت بذلك النصوص الصريحة الصحيحة، ودل على ذلك الواقع المشاهد؛ فمن النصوص التي تبعث في النفس الأمل وتزيد الفأل الحسن وتزيل اليأس وتدفع القنوط قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ

يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]. والمنصرون - مجال حديثنا في هذا المقال - ينفقون أموالهم ويبذلون جهودهم وأوقاتهم، ويستنفرون كيدهم في الصد عن سبيل الله، وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين، والله - تعالى - ينذرهم بأنها ستعود عليهم بالحسرة، وسينفقونها لتضيع ويغلبوا، ولينتصر الحق في النهاية[1].

ومنها أيضاً: قوله ﷺ في الحديث الثابت عنه: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»[2].

وستنتهي المعركة مع القوم بنزول سيدنا المسيح ابن مريم عليه السلام، وعندها يتجلى التوحيد ويخبو الشرك، ويتبين للقوم ما هم عليه من غرور وضلال.

وأكبر ضامن لنصرة الإسلام وهيمنته في الأرض طبيعة منهجه وحاجة البشرية إليه. يقول سيد قطب - رحمه الله -: «... فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية إلى هذا المنهج، نستمد نحن يقيننا الذي لا يتزعزع في أن المستقبل لهذا الدين، وأن له دوراً في هذه الأرض هو مدعو لأدائه أراد أعداؤه أم لم يريدوا.. »[3]، وأن دوره هذا المرتقب لا تملك عقيدة أخرى كما لا يملك منهج آخر أن يؤديه، وأن البشرية بجملتها لا تملك كذلك أن تستغني عنه طويلاً »[4]، ويقول أيضاً: «... ونحن نعتقد أن المستقبل لهذا الدين، بهذا الاعتبار. باعتباره منهج حياة يشتمل على تلك المقومات كلها مترابطة، غير منفصل بعضها عن بعض. المقومات المنظّمة لشتى جوانب الحياة البشرية، الملبية لشتى حاجات الإنسان الحقيقية، المهيمنة على شتى أوجه النشاط الإنساني»[5].

ومن دلالات الواقع على ذلك أنك ترى إنجازات المنصرين ونجاحاتهم لا تتناسب أبداً مع جهودهم المبذولة والفرص المتوفرة والتأييد العالمي الذي يتلقونه والإمكانات المتاحة، وفي المقابل: ترى الإقبال على الإسلام يفوق جداً جهود الدعاة المبذولة وإمكاناتهم الملموسة حتى أصبح المرء يجزم بأن الإسلام ينتصر بقوته الذاتية وما يحمله من حجج دامغة وبراهين ساطعة لا بجهود أبنائه وقوة المنتسبين إليه.

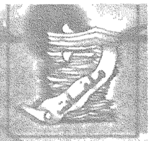
وكون الإسلام قادماً والتوحيد منتصراً أمر محسوم وقضية منتهية، ولكن السؤال الأهم بالنسبة لنا: ما دورنا نحن في ذلك؟ هل نكون ممن أسهم في نصرة الإسلام؛ فاعتصم بالله واستمد العون منه، وقام بما يجب عليه تجاه دينه؟ أم نكون ممن ركن إلى الدنيا واشتغل بالأولى عن الأخرى، ونسي ربه فأنساه الله نفسه؟!

نسأل الله رحمته ومعافاته، وأن يستعملنا في طاعته ويجنبنا غضبه.

والله غالب على أمره، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب، ٣/١٥٠٦ - ١٥٠٧.
(٢) المسند، لأحمد، ٤/١٠٣، وإسناده صحيح على شرط مسلم.
(٣، ٤) انظر: المستقبل لهذا الدين، لسيد قطب، ٩٣.
(٥) المرجع السابق: ٥، وانظر: رسالة قيمة في مسألة النصر للإسلام بعنوان: البشائر بنصرة الإسلام، لحمد الدويش.



التنصير.. هل أصاب الهدف؟ (٢ ـ ٢)

من الظلمات إلى النور

قصة إسلام قس نصراني

أعدها للنشر:
د. عبد الرحمن الجمهور(*)

(إيفور اليويس) شاب يافع ممتلئ حيوية ونشاطاً. تلقى الدراسات الدينية النصرانية على أيدي قساوسة، فنشّأه أبوه على حب الكنيسة والعمل لها. انخرط في الجامعة وهو يحمل الفكر النصراني، وبدأ دراسة التجارة والاقتصاد. أخذ على عاتقه التنصير وهو على مدرجات الجامعة، وتخصص في تنصير المسلمين، أو إخراجهم من دينهم إلى الفراغ الروحي.



ولكن مع هذه الحيوية والنشاط في تنصير الناس لم يشعر بالراحة النفسية، مع أنه بلغ منصباً عالياً؛ حيث أصبح كبير أساقفة الكنيسة التي يعمل فيها، ومع ذلك لم تستقم نفسه على هذا الدين، وأحس بأنه لا يشبع الروح، فجرب الهندوسية ولم تزده إلا نفوراً، فالأسرار والطقوس الهلامية التي تؤديها الطائفة الهندوسية لا تستقيم مع صفاء النفس وتعلقها بالله. بل إن الأفراد الذين يشركون مع الله آلهة أخرى لا تستقيم حالهم بل يزيد هذا الشرك من حيرة الإنسان، ويملأ قلبه حيرة ووحشة. فأيقن (إيفور) أن الهندوسية لا تصلح أيديولوجية روحية؛ فهي لا تخدم مصالح الإنسان وحاجاته؛ لأنها تمجد إنساناً وتصنع منه آلهة مع الله؛ فجرب الشيوعية وقراءة كتبهم ومبادئهم ولكن لم تشفِ هذه المبادئ حاجته الروحية، فشعر بشيء من الألم يعتصر قلبه. يقول (إيفور): إن العقيدة النصرانية لا تصلح أن تكون ديناً عالمياً؛ فهي لا تلبي حاجة النفس ولا توازن بين الفرد والمجتمع، بل لا توازن بين الدنيا والآخرة؛ فغالبية النصارى في العالم يشعرون بخواء روحي ونقص في الجانب العبادي، لا لشيء، ولكن لأنهم لا يوحدون الله بالعبادة. ففي دينهم أسرار لا يسمح للفرد العادي أن يعرفها، وهناك طبقية؛ فالسدنة غير القساوسة، والقساوسة غير الإنسان العادي، وأنت في خضم هذا المشروع الطبقي تنسى ربك وتتعلق بالقسيس؛ لأنه هو الذي يصفح، وهو الذي يغفر، وهو الذي يمتلك ناصيتك من دون الله.

إن الإنسان العاقل المنصف يشعر بالخيبة وهو يقرأ التناقضات في نسخ الإنجيل، ويشعر بالرغبة في التقيؤ وهو يقرأ القصص التي لا تصح من عامة الناس؛ فكيف من خير البشر: «الأنبياء وأبنائهم وبناتهم وزوجاتهم».

ومما زاد في عجبه أن المسلمين في سيريلانكا ـ حيث ولد وترعرع ـ يختلفون عن المسلمين في بلاد الحرمين من حيث التطبيق والعمل للإسلام. وما رآه من تهاون في العبادات وعدم التفريق بين ما هو حلال وما هو حرام في بلده جعله يوقن أن الإسلام هنا له معنى خاص، وهو الإسلام الذي يخوّف

(*) رئيس قسم اللغة الإنجليزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

سدنة الكنيسة ويقلق مضجعهم. ويضيف إيفور قائلاً: «إن من الأمور التي زادت في حيرته وعدم فهمه للإسلام دور الهلال في حياة المسلم، يقول: «كنت أسمع أن الهلال الذي يعد رمزاً للمسلمين مهمٌ في حياتهم، وكثير ممن يشرح دور الهلال في حياة المسلم يشبهه بالصليب عند النصارى؛ فالمسلم يصوم إذا رأى الهلال، ويفطر إذا رآه مرة أخرى، ويصوم إذا اكتمل البدر، ويحدد مواقيت الحج بالهلال، ويوضع على المنابر في المساجد، مما جعلني أعتقد ـ جهلاً ـ أن الهلال هو المعبود وليس الله تعالى»!!

كنت أثرت موضوعاً في الكنيسة سبب لي جدلاً كبيراً، وصممت على تنفيذ ذلك الأمر مهما كانت العواقب ومهما بلغ الثمن. طرحت فكرة الدعوة إلى النصرانية في بلاد المسلمين وبالتحديد في بلاد الحرمين، إلا أن القساوسة ومَنْ حولي عارضوا الأمر بشدة، وحاولوا تخويفي؛ فعقوبة مرتكب هذا الأمر الموت؛ حيث يقطع رأسه أمام الناس. أردت أن أكتشف هذا العالم المجهول، وأرى علاقة الهلال بالمسلمين، وأرى مدى تقبلهم لعقيدة التثليث. فكرت في الأمر ملياً ورأيت أن أقتحم هذه التجربة.

ذهبت إلى مكاتب التوظيف ووجدت وظيفة مأمور مستودع في شركة عربية في بلاد الحرمين، لم أتردد بالقبول، وفي فترة وجيزة أنهيت وثائق السفر، وركبت الطيارة أوائل عام ١٩٨٣م وكلي أمل في أن أمارس نشاط التنصير لأرضي الكنيسة، وأثبت لهم صحة فرضيتي، ولأشعر بالرضى والزهو والفخر بقدراتي على الإقناع. كنت أتصور أن المسلمين في هذا البلد مثل المسلمين في بلادي، لكن الفرق شاسع والمهمة لم تكن سهلة.

لقد تغيرت نظرتي لديني ودين قومي عندما رأيت مظاهر الالتزام بهذا الدين، فلم أعد أجد في نفسي الرغبة الجامحة للتنصير، بل أصبحت أنظر للمسلمين نظرة إعجاب وتقدير يشوبها شيء من الاحتقار لذاتي ومعتقدي، لقد تحركت في داخلي موجة كره لديني، وبدأ الشك يساورني مرة أخرى، وأحسست أنني لست على الطريق المستقيم.

ومما لفت نظري تعظيم المسلمين للقرآن الكريم؛ فهم لا يلمسونه إلا إذا كانوا متطهرين، ولا يسمحون لغير المسلم بلمسه فضلاً عن قراءته، ويطبقون بعض الأحكام عند قراءته ويتغير صوتهم (الترتيل) عندما يقرؤونه، ويشعرون أنهم يعظمون الله ـ تعالى ـ ويتعبدونه بتلاوته. مع أننا عندما نتعامل مع الإنجيل لا نقيم لهذه الأحكام وزناً، بل لا يهمنا من يقرأ الإنجيل، وعلى أي حالة كان، بل إننا لا نقيم له قداسة ولا تعظيماً؛ فنأخذه إلى بيت الخلاء، ونهجره، ولا نؤمن بكثير مما فيه. فأحدث هذا الأمر شيئاً في نفسي وهزني أمر تعظيم القرآن وأوجد في نفسي رغبة شديدة لقراءته والبحث فيه لعلّي أجد بعضاً من المتناقضات كما هو الحال في كتابنا المقدس. ولكن لم أعثر على نسخة مترجمة، بل لم أجد من يعيرني نسخته؛ فأنا في نظرهم كافر لا يجوز أن ألمس القرآن. ومضت الأيام وهذه الرغبة تراودني وفضولي يقودني للسؤال عن النسخة المترجمة معانيها من القرآن كلما سنحت الفرصة، إلا أن الجهد ذهب سدى والأمر لم يتيسر لي بسهولة.

وذات ليلة دعاني مهندس باكستاني لتناول طعام

- نادي ٧٠٠ (700 CLUB)

برنامج تلفازي تنصيري بدأ في عام (١٩٦٣م) وإلى الآن، يبث يومياً إلى أكثر من (٢٧٥) محطة تلفاز داخل أمريكا، ويصل البث إلى أكثر من (٦٠) دولة أخرى. ويقدر عدد مشاهديه يومياً في أمريكا فقط بمليون مشاهد.

هل تعلم كيف بدأ تمويل هذا البرنامج؟!

يشرف على البرنامج ويقدمه المنصر العالمي المشهور (بات رابرتسون)، الذي أقنع (٧٠٠) شخص بالتبرع بمبلغ عشرة دولارات شهرياً، وذلك لتغطية كلفة إنتاج وبث البرنامج، ولهذا سمي البرنامج بهذا الاسم. - البيان -

العشاء في منزله؛ فهذه آخر ليلة له في مدينة المجمعة؛ حيث نعمل؛ فهو سيسافر من الغد إلى أهله سفراً نهائياً. وأثناء تناول العشاء لمحت نسخة مترجمة لمعاني القرآن إلى الإنجليزية فطلبت من المهندس الباكستاني أن يعيرني إياها، ففعل، فطرت فرحاً ولم تسعني الدنيا من الغبطة والسرور، بل لم تعد لي شهية في الأكل أو الشرب، فقط أريد أن أتصفح القرآن، وأعرف ماذا فيه. وبدأت فكرة البحث عن المتناقضات تتسلل إلى رأسي، وبدأ الشيطان يسوِّل لي ويعدني ويمنيني.

خرجت من منزل المهندس وذهبت إلى بيتي، وبدأت أقرأ في النسخة المترجمة، وأول ما قرأت: (بسم الله الرحمن الرحيم) شعرت بقشعريرة في جسمي، لقد قرأت كل الكتب المقدسة من الإنجيل إلى التوراة إلى كتب الأديان الأخرى ولكني لم أجد أي كتاب يبدأ باسم الله. إن للبسملة معنى استقر في قلبي؛ فأول مرة في حياتي أقرأ البسملة، اسم الله ـ تعالى ـ، بعده صفة يغفل عنها الكثير (الرحمن) لقد تركت هذه الجملة في نفسي أثراً عجيباً، ودفعتني لأقرأ بتمعن وبقلب مفتوح.

ثم دلفت إلى سورة الفاتحة، إنها ترسم ما قاله عيسى ـ عليه السلام ـ لأصحابه عندما أرادوا أن يعرفوا كيف يحيُّون الإله، فقال لهم أن يحمدوه ويمجدوه ويدعوه؛ وهذا ما وجدته في سورة الفاتحة التي فتحت قلبي على مصراعيه، وانهال النور المضيء إلى قلبي، فأضاء أركان جسمي وجوانبه... لكم أشعر بطعم السعادة، والإيمان يملأ قلبي وأنا أقرأ كلام الله تعالى.

بعد ذلك قرأت سورة البقرة، هذه السورة العظيمة ـ والقرآن كله عظيم ـ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢] يا للعجب هذه الآية أو معناها أجده في الكتب المقدسة التي قرأتها، ولكنْ في ختام الكتاب بعد أن تنتهي المقاطع والتعاليم الدينية والقصص والمواعظ تأتي هذه الآية أو معناها لكن في هذا الكتاب أتت هذه الآية في أوله شامخة تعلن أن هذا الكتاب كامل وشامل لا ينقصه شيء. يا للعجب!! من يملك مثل هذه القدرة؟ إنه الله الواحد الأحد، أكملت القراءة إلى أن وصلت إلى الآية الرابعة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، لقد زلزلت هذه الآية ما بقي في قلبي من ريب، وأزالت ما فيه من تساؤلات لا معنى لها. لقد جعلت قلبي ينفتح على مصراعيه، وأعلنت بين جوانب نفسي أن هذا الدين حق، وأن الذي أنزل القرآن هو المعبود المستحق للعبادة وحده... لم أعد قادراً على التحمل؛ فأنا أريد أن أمارس العبادة الصحيحة... لقد تذكرت قول المسيح ـ عليه السلام ـ إنه سيأتي بعدي من يقودكم إلى الحق والهدى، فهذا هو الحق والهدى الذي بشر به عيسى عليه السلام.

إنني الآن مسلم، ولكن لا أحد يعرف أنني مسلم، وعليَّ أن أصلي وأمارس الإسلام، وقبل الصلاة يجب أن أتطهر، ولكن كيف يتطهر المسلمون؟ لا أعلم. ودخل وقت الصلاة وسمعت المؤذن ينادي للصلاة، قمت وخلعت ملابسي كلها وغسلت جسمي، ثم دلفت نحو المسجد لأول مرة، ووقفت في الصف أقلد مَنْ على يميني وشمالي إلى أن فرغت من الصلاة وعدت إلى بيتي وأنا أشعر بنور في قلبي، ولأول مرة أشعر بالراحة، أول مرة أشعر بقيمة العبادة، أول مرة أشعر بطعم الإيمان، وأخذت أكتب ما أسمع من الإمام وأحاول أن أقول مثل ما يقول، وبقيت على هذه الحالة لمدة يومين وأنا أغتسل غسلاً كاملاً خمس مرات في اليوم الواحد، وفي اليوم الثالث إذا بالإمام يمسكني من يدي ويبدأ يعاتبني بصوت مرتفع، فهمت منه أنه عاتب عليَّ؛ لأنني لا أصلي في المسجد وأنا جار المسجد؛ فقد كان مظهري وأنا ملتحٍ يوحي بأني مسلم. فأخبرته أنني مسلم جديد وأنني اعتنقت الإسلام حديثاً ففرح بي وفرح بي الآخرون.

وبقيت على حالي أياماً عدة وأنا أغتسل قبل كل صلاة إلى أن قدم إلى مكان عملي اثنان من خارج المدينة

وكان الوقت وقت صلاة فطلبا مني أن آذن لهما بالدخول إلى المرحاض للوضوء استعداداً للصلاة، فقلت لهما: «لا» وأرشدتهما إلى مكان مفتوح يصلح للوضوء. وغضبا عليَّ غضباً شديداً، وإنما أردت أن تتاح لي الفرصة لتعلُّم الوضوء بالمشاهدة، وبعد أن أتما وضوءهما، قمت وتوضأت مثلهما، وهما في دهشة وحيرة من أمر هذا النصراني الذي يتوضأ مثلهما تماماً!

بدأت تعلُّم الواجبات وأركان الدين والعبادات، وكلما قرأت زادت محبتي لهذا الدين، وتعلمت الكثير، ولعل أهم ما لفت نظري وجذبني لهذا الدين أنه دين شامل وكامل يعالج جوانب كثيرة في حياة الفرد والمجتمع، ويوازن بين الدنيا والآخرة، ويقدم للبشرية مشاريع إصلاح اقتصادية واجتماعية ونفسية.

وفي يوم من الأيام أخذني الإمام إلى مدير المعهد العلمي في مدينة المجمعة الذي أهداني عدداً كبيراً من الكتب المترجمة باللغة الإنجليزية، وأخبرني أن لديه مستودعاً للكتب باللغات الأجنبية، كالألمانية والفرنسية، وغيرها فأخذت هذه الكتب وبدأت مشروع الدعوة إلى الإسلام من خلالها؛ وعلى أثر ذلك شرعت في إعداد فريق للعمل في الدعوة إلى الله، ونجحنا ـ ولله الحمد والمنة والفضل ـ في هداية كثير من الناس في منطقتنا والمناطق المجاورة، وصار شغلنا الشاغل هو الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ وسط غير المسلمين.

ومن خلال تجربتي في الدعوة للنصرانية عرفت أن المسلم المتمكن من عقيدته العارف بالواجبات يتعذر علينا إقناعه أو خلخلة عقيدته، ذلك أن الحجج التي نحاجُّ بها تعد من البديهيات عنده، بل أحياناً يحرجنا بإثارة نقاط مثل التثليث وألوهية عيسى، والغفران، وأصل الخطيئة، وغيرها كثير، ولا يدخل في معتقد النصارى إلا القليل، وهم من أولئك الذين ليس لهم حظ من العلم بالدين.

إن الدعاة إلى النصرانية في الآونة الأخيرة سلكوا مسلكاً خطيراً يتمثل في قبولهم المسلم ليعيش بينهم، بل ويقدمون له المغريات مثل المرتب العالي والمسكن المؤثث، بل ويسمحون للمسلمين ببناء المساجد وإقامة الشعائر الدينية، ولا يمنعونهم من مزاولة ما يريدون تحت شعار الحرية الدينية، وهم في الحقيقة يخططون لتنصير الجيل القادم.

فعندما يدخل المسلم في عالمهم محافظاً على دينه حريصاً على أداء ما افترضه الله عليه فإنهم يعمدون إلى تثقيف أبنائه وبناته بالثقافة الغربية، ولا تخلو من بعض المعتقدات النصرانية، فينشأ بين أحضانهم يراهم في الليل والنهار، ويسمع منهم، ويقتدي بهم حتى إذا أدرك وبلغ سن الرشد سهل عليهم قيادته إلى معتقدهم، وهذا ما تحاول الكنيسة العالمية بثه بين المنصرين وأتباعهم، وهذا ما ينطوي عليه مبدأ النظام العالمي الجديد.

فهل نعي خطر ما يخططونه لهدم الإسلام؟ والله نسأل أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة.

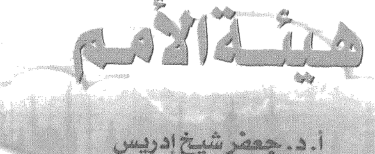
■ عدد اللغات في العالم (٦٧٠٣) لغة، ترجم الإنجيل إلى (٤٧٠٠) وتبقى (٢٠٠٠) لغة والعمل قائم على ترجمة الإنجيل إلى ٩٦٥ لغة تقريباً من اللغات المتبقية.

[نشرة Pulse، ٥ سبتمبر ١٩٩٧م، مجلة الصراط المستقيم، ٦٩].

■ ذكرت مؤسسة الأبواب المفتوحة أنها أرسلت ثلاثين طناً من الكتب والأناجيل إلى بغداد؛ حيث إن الطلب على الإنجيل كان كبيراً جداً.

[مجلة الصراط المستقيم، ٦٠].

■ ذكرت مجلة (تايم) في عددها الصادر في ديسمبر ١٩٩٦م، أنه في عام ١٩٩٥م قدم الأمريكيون ١٤٣,٩ بليون دولار للمؤسسات الخيرية، وقد كان ٧٠٪ من هذا المبلغ مقدماً من أفراد. ـ البيان ـ



هيئة الأمم

أ. د. جعفر شيخ إدريس

رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة

بما أن المسلمين أمة عظيمة من الأمم التي تسكن كرتنا الأرضية ، فإنه يهمها أن تعيش في سلام مع غيرها من الأمم ، وأن تشاركها وتتعاون معها في الرقي بالمجتمع الإنساني ، وفي البحث عن حلول للمشكلات التي تواجهنا جميعاً ، طبيعيةً كانت أم سياسية أم اجتماعية . وهيئة الأمم المتحدة منبر من أحسن المنابر لتحقيق ذلك . لكننا نرى أن استمرار هذه المنظمة في أدائها لهذه المهمة العظيمة رهين بإقرارها لثقافات الشعوب المكونة لها ، وقيمها وخصوصياتها ، وأن تكون وسيلتها للتغيير في المسائل التي تختلف فيها الثقافات والحضارات هي الحوار والتفاهم بالتي هي أحسن ، وألاَّ تتحول إلى أداة تستغلها بعض الدول أو الجماعات لفرض معتقداتها وقيمها ، وقمع المخالفين لها .

وعليه فإننا نود أن نؤكد ـ باعتبارنا أمة إسلامية ـ أننا لا نأخذ معتقداتنا وقيمنا من مصادر غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأن هذين المصدرين الإسلاميين يمثلان قانوننا الأعلى الذي نحكم به على غيرهما ، فنرفض ما يتناقض معه ، ونفسر في نطاقه ما نراه موافقاً له . وكما أن هذا الموقف مقتضى ديننا فهو أيضاً مقتضى حرية الدين التي وردت في الإعلان العالمي للحقوق الإنسانية ؛ إذ إن هذه الحرية لن يكون لها معنى بالنسبة لنا إذا كان غيرنا هو الذي يفرض علينا كيف نفهم ديننا ، وماذا نأخذ منه وماذا ندع ، ثم يعاقبنا إذا نحن لم نلتزم بما أَمَرَنا به!

في ضوء ما سبق نقرر رفضنا القاطع لبعض ما ورد في مقررات مؤتمر بكين متعلقاً بالعلاقة الجنسية ، ونرى فيه دعوة إلى الإباحية التي لن ينتج عنها إلا مزيد من التفسخ الخلقي ، والتفكك الأسري ، وانتشار الأمراض التناسلية ، وتعزيز النزعة الفردية ، وما يتبع ذلك كله من زيادة في الجريمة ، وتهديد لأمن المواطنين وسلامتهم .

لكننا نقر مع ذلك أن المرأة تعاني عالمياً من ظلم يجب أن يرفع عنها، ومن فقر يجب أن يزال، وأن هذا إنما يكون بالتعاون بين الجنسين باعتبارهما مخلوقين بشريين تحركهما الحجج العلمية والدوافع الخلقية. ولن يتحقق أبداً بإثارة جنس على جنس، بل يُخشى أن تؤدي مثل هذه الإثارة إلى صراع تكون المرأة في نهايته هي الخاسرة.

ويسرنا أن نشارك غيرنا من شعوب العالم في حل هذه المشكلات مهتدين بديننا وتجاربنا وتاريخنا، ومستفيدين كذلك من فكر غيرنا وتجربته وتاريخه.

وعليه فإننا في مجال إزالة الفقر ندعو دول العالم وأفراده إلى أن يطبقوا فريضة الزكاة الإسلامية، ولو فعلوا لما بقي على وجه الأرض فقير ذكراً كان أم أنثى. كيف لا، وهي ضريبة سنوية مقدارها ٢,٥٪ من رأس المال، تؤخذ من الأغنياء وتوزع على الفقراء، وأن يطبقوا المبدأ الإسلامي الذي يجعل من حق كل إنسان أن يعيش حياة كريمة ما دام المجتمع قادراً على ذلك. ونضم صوتنا إلى المنادين بإزالة الآثار السلبية للعولمة وما ينتج عنها من زيادة فقر الفقراء، واستغلال عمل النساء. ونرى مع غيرنا أن مما يساعد على تخفيف الفقر عن البلاد النامية أن ترفع عنها الفوائد الربوية على الديون التي تقترضها من الدول الغنية؛ فإن هذه الفوائد قد صارت عائقاً لهذه الأمم عن كل نمو اقتصادي.

وفي مجال التعليم نرى أن يشمل التربية الخلقية التي تغرس في المرأة الاعتزاز بما ميزها الله به، وترضى به، ولا تحاول أن تلهث وراء تقليد الرجال ومنافستهم فيما ميزهم الله به ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء: ٣٢] وأن يفهم ما يمتاز به كل من الجنسين بأنه وسيلة للتعاون بينهما، وتكميل للواحد منهما بالآخر، وعون على بناء الأسرة واستقرارها، وتحقيق لمصلحة الأولاد.

وفي مجال الموازنة بين عمل المرأة خارج بيتها وبين واجباتها الأسرية نرى أن يطبق المبدأ الإسلامي الذي يلزم الرجل بالنفقة على زوجه وأسرته، ويجعل ذلك حقاً لهم، وأن تعين الدولة كل امرأة تفضل البقاء في بيتها لتربية أولادها وإعانة زوجها. إن عمل المرأة خارج بيتها ينبغي أن يُنظَر إليه على أنه ضرورة اقتصادية لا أمر يقتضيه تكريم المرأة واحترامها.



التحليل السياسي

محاولة للاقتراب

المؤلف: روبرت أ. دال
ترجمة: د. علا أبو زيد
تلخيص: وائل عبد الغني

أصبحت السياسة في السنوات الأخيرة أهم العناصر الفاعلة والقوية التي تحرك الواقع البشري وتتحكم في مصيره ـ وفق مشيئة الله ـ بصورة تجعل الإنسان لا يسعه أن ينأى بواقعه عن دائرة تأثيرها.

والداعية باعتباره عنصراً مؤثراً لم يَعُدْ يسعه ترك الإلمام ولو إجمالاً بواقعه المعاش.. كيف يسير؟ وماذا يُراد له؟ بنظرة مبنية على قواعد وأسس موضوعية.

ويسعفنا في ذلك التحليل السياسي؛ إذ أصبح كمّاً معرفياً متميزاً في ظل قفزات التطور الهائلة في المعرفة الإنسانية خلال العقود الثلاثة الأخيرة. هذا العلم يُكسب المحلل والممارس مهارات ومدارك وخبرات واسعة.

وقبل أن نشرع في الاقتراب من عملية التحليل السياسي نشير إلى نقاط عدة ينبغي ألا نغفلها ونحن نطالع مثل هذه المعرفة:

١ – إن التطور الهائل في العلوم قد واكبه قدرٌ لا بأس به من التعريب، لكن لم نشهد ـ بعدُ ـ جهوداً قوية في مجال الأسلمة.

٢ – قلة المحاولات التي قصدت بناء منهج إسلامي للتحليل السياسي اعتماداً على الجهود الضخمة التي خلفها لنا علماؤنا أمثال الرازي والماوردي والجويني وابن تيمية وابن أبي الربيع وابن خلدون، والتي كانت مادة إثراء قوية انتشلت الفكر السياسي الغربي من أسر الكهنوتية إلى سعة المنهج التجريبي والتحليلي، والذي كان له أثره في التطور الفكري الأوروبي.

٣ – ولكن الفكر الأوروبي عموماً انفلت من أسر الكهنوتية إلى الفوضى الفكرية ـ والتي تشبه إلى حد كبير ما يعانيه عالمنا اليوم ـ مما ولَّد مدارس مادية تعتمد على الوضعية والحتمية والهرطقات اليونانية الغابرة.

٤ – هذا العلم له أثره العظيم في إحياء الوعي، ورغم أنه أكاديمي إلا أنه شهد جهوداً لتبسيطه ونقله إلى الجماهيرية في الغرب، ولكن هذا لم يحدث حتى الآن على المستوى الإسلامي والعربي بوصفه ظاهرة علمية وثقافية؛ ولهذا كانت هذه القراءة محاولة للاقتراب من الظاهرة السياسية على مستوى النظام السياسي الذي تُبنى فكرته على اعتبار أن الإنسان ينزع إلى العيش في تجمعات بشرية تضطره إلى الخضوع

لأحد أشكال السلطة وإقامة علاقات مع من حوله.

والسياسة - بتعبيرنا اليوم - ما هي إلا نمط مستمر من العلاقات الإنسانية يتضمن التحكم والنفوذ والقوة والسلطة، وهو ما يتتبعه المحلل السياسي؛ لأنها بمثابة البؤرة التي تتمحور حولها العلاقات، والعمل السياسي غير متصور دون ممارسة القوة.

ويتتبع التحليل كذلك أشكال الأنظمة وكيفية بنائها وسمات التشابه والتباين، ويحلل كذلك السلوك من حيث الدوافع والأسباب والظروف والنتائج التي تكتنف النماذج البشرية الممارسة للسياسة مستنداً على أسسٍ ثابتة.

أسس التحليل:

تختلف الأسس التي يستند إليها التحليل طبقاً لفكر من يمارسه، والظروف التي نشأ فيها وتأثر بها. فلو كان أمامنا خمسة تحليلات عن الوضع الأفغاني الراهن مقدمة من خمسة محللين من باكستان وروسيا وطاجيكستان وإيران والولايات المتحدة لظهر جلياً إلى أي حدٍّ أثّرت النشأة والعقيدة على طريقة التحليل ونتيجته.

ويتأثر التحليل كذلك بالنظريات السياسية التي يتبناها المحلل؛ فبعض النظريات مثلاً تقصر إطلاق مصطلح «النظام السياسي» على الأنظمة الحاكمة التي تمتلك سلطة فعلية (الدولة - الحكومة) بينما تتوسع أخرى في شمول نفس المصطلح لأي نظام يُمارس فيه نوع من القوة: كالقبيلة، والمؤسسة، والشركة، والمنظمة، والحزب.

حول النظام:

بالنظر إلى النظم السياسية نجد أن كل نظام يتفرع إلى أنظمة فرعية بينما هو مندرج في نظامٍ أشمل منه، كما نجد أن الفرد قد يشكل جزءاً من أكثر من نظام؛ فأستاذ الجامعة يمثل جزءاً من النظام في جامعته، إلى جانب كونه عضواً بارزاً في أحد الأحزاب أو يشغل منصباً حكومياً. كما نجد أنه كلما ازداد النظام تعقيداً واستقراراً كلما أدى ذلك إلى نمو الأدوار السياسية فيه.

حول الحكومة:

أول ما يعني المحلل من النظام هو الحكومة؛ لا لأنها تملك القوة وحدها، بل لأنها تدعي لنفسها الحق المطلق في تنظيم استخدام القوة. ولكن هذا الادعاء مرهون بمدى تقبل الناس له؛ فإذا ما شك الناس في هذا الادعاء أو رفضوه فمعنى ذلك أن الدولة تواجه خطر التحلل، وأما إذا ما قبلوه فهنا تحقق الدولة صفة الشرعية التي تختلف عن صفةٍ أخرى هي المشروعية؛ وهي الصفة التي تكتسبها الدولة من قوتها أو من نص الدستور.

أما شكل الحكومة فيختلف باختلاف شكل النظام وطرق اقتسام القوة فيه. ولكن ماذا نعني بالقوة هنا؟

اصطلاحات القوة والنفوذ:

تستند العلاقات البشرية إلى عدة أسس مثل الحب، والاحترام، والولاء، والمعتقدات المشتركة، لكن كل ذلك لا يُعنى به المحلل السياسي بالدرجة الأولى، إنما يعنى بالقوة وأشكالها كأساس للعلاقات، وبهذا يفيدنا تحليل القوة في معرفة عناصر التأثير وتوجهاتها.

ونعني بالقوة: (فرض مشاركة المواطن في الحياة السياسية)، كالتحكم في الحكومة أو التأثير فيها، وفرض تحكمه في القرارات المتعلقة بسلوكه وحياته الشخصية.

والمواطنون متفاوتون في قوتهم بالطبع، ويعني نشاط السياسي في مجالٍ معين أنه يمارس نوعاً من القوة الظاهرة التي يتتبعها المحللون، في حين يغفلون نوعاً آخر يتمثل في قوته الكامنة والتي ينبني على تحليلها الاقتراب من المصداقية بالنسبة للتوقعات المستقبلية بالذات.

وعلينا أن نفرق بين قوة الفرد بوصفه فرداً وبين قوته باعتباره جزءاً من جماعة. وعند قياس القوة ينبغي تحديد محيطها: (أي المسألة التي تمارس فيها: السياسة الخارجية، البرلمان)، ومجالها: (عدد الأفراد الذين تمارس في نطاقهم). ولا بد كذلك من معرفة كيفية تمركز القوة أو تشتتها، وأسباب ذلك ودلالاته، ومدى ارتباطه بالظروف الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

تحليل النفوذ:

ونعني بالنفوذ: العلاقات التي تتسبب في نتائج إيجابية ومفضلة بالنسبة للفاعل؛ أي الذي يمارس النفوذ.

ولهذا فاي وصف شامل لنظامٍ مَّا لا بد أن يتضمن إجابة عن السؤال الآتي: من هم الفاعلون الذين يمارسون نفوذاً في المجالات الحيوية (السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية)، والتي من خلالها يؤثرون بطريقة غير مباشرة على اختيارات غيرهم وقراراتهم؟

هؤلاء الفاعلون قد يكونون جماعات أو كيانات كلية أو أحزاب أو شركات أو شخصيات عامة.

ومع تراكم التحليلات سنجد أن النفوذ أشبه بشبكة معقدة من العلاقات المتبادلة بين الفاعلين والتي يكون بعضها إيجابياً (يتمثل في تأييد المصالح) وبعضها سلبياً (بعدم التأييد)، وهذا الأخير وإن كان إدراك حجمه صعباً إلا أنه يحتاج إلى مزيد من العناية.

ولكن كيف يمكننا قياس النفوذ؟

في الحقيقة لا يوجد معيار كمي يمكن أن نقيس من خلاله النفوذ، ولكن مع تراكم المعلومات وبإجراء المقارنات يمكن الاعتماد على أساسٍ ترتيبي (مساوٍ، أكبر من، أصغر من)، كما ينبغي حساب الوزن النسبي للنفوذ باختلاف المجال والمحيط.

ولتحديد شكل النفوذ ودرجته لا بد أن ندرك أسباب اختلافه، والتي يمكن إرجاعها إلى ثلاثة عوامل رئيسة[(١)] وهي:

١ - الاختلاف في توزيع الموارد السياسية التي يستخدمها الساعي للنفوذ ليؤثر على سلوك الآخرين، وتشمل: (المال ـ المعلومات ـ الطعام ـ التهديد باستخدام العنف ـ الوظائف ـ الصداقات ـ المستوى الاجتماعي ـ حق إصدار الضرائب ـ أصوات الناخبين).

٢ - التباين في المهارات والكفاءات في استخدام هذه الموارد.

٣ - التباين في مدى استخدام الأفراد مواردهم لأغراض سياسية.

ويُضاف إلى هذه الأسباب عوامل أخرى غير مباشرة أهمها:

- قيم الأفراد وتوجهاتهم وتوقعاتهم ومعلوماتهم الحالية.

- قيمهم وتوجهاتهم ومعتقداتهم وأيديولوجياتهم وبناء شخصياتهم ونوازعهم السابقة الأكثر تأصلاً.

- قيم الآخرين وتوجهاتهم وتوقعاتهم ومعلوماتهم ومعتقداتهم وأيديولوجياتهم وشخصياتهم ممن ترتبط تصرفاتهم بطريقةٍ مَّا بالقرار.

- عملية الاختيار أو التجنيد أو الدخول التي وصل بها صانعو القرار إلى مناصبهم.

- قواعد صنع القرار التي يتبعونها، والبنى السياسية والنظام الدستوري.

- مؤسسات المجتمع الأخرى (البنى الاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية والتعليمية التي تقوم بتخصيص الموارد الرئيسة).

- الأحداث التاريخية التي تركت آثارها على الثقافة والمؤسسات والبنى. وبنظرة كلاسيكية يمكن أن يُتصور أن يستخدم الحاصلون على النفوذ نفوذهم في الحصول على موارد أكثر تفتح أمامهم المجال للحصول على نفوذٍ أكبر، وهكذا دواليك.

ولكن هذا الأمر لا يحدث في الواقع؛ لأن الموارد موصوفة بالندرة. وأصحاب النفوذ لا ينفقون مواردهم إلا إذا كان العائد من ورائها أعظم قيمة، وهو ما ينعكس عند حدودٍ معينة؛ إذ يسعى الخاضعون للسيطرة إلى تعظيم تكاليف تلك السيطرة. ولا ننسى كذلك الصراع الشديد على النفوذ[(٢)].

طرق الحصول على النفوذ:

يمكن الحصول على النفوذ بأشكالٍ مختلفة، بعضها حسن وبعضها قبيح؛ فمنها: الإقناع الحقيقي

(١) يمكن تطبيق هذه العوامل بإجراء مقارنة بين نفوذ منظمات الضغط اليهودية في الولايات المتحدة وبين مثيلاتها في روسيا وفرنسا من جهة، ومن جهةٍ أخرى بينها وبين الجاليات الإسلامية الموجودة هناك.

(٢) من أبرز صور الصراع على النفوذ والتي يمكن التطبيق عليها ما حدث في العام الماضي بين رئيس وزراء باكستان المدعوم من الأغلبية البرلمانية من جهة وبين رئيس الدولة الذي أطيح به، ثم مع كبير القضاة الذي لقي المصير نفسه.

(العقلاني)، والتحفيز، والخداع (الإقناع الخداعي)[١]، والإجبار المادي، والسيطرة.

تصنيف النظم (أوجه التباين):

يتم التصنيف وفق المدخل الذي يستخدمه المحلل والنشاط الذي يخدمه (جغرافي ـ طبغرافي ـ اقتصادي ـ سياسي...). ولهذا يصح وضع أسس متعددة كل منها يصلح أساساً لتصنيف النظم.

التحليل السياسي للنظم:

أ - أوجه الاتفاق:

يتحدد شكل النظام وفقاً للصيغة السياسية، والتي يتحدد وفقاً لها شكل السلطة وأسلوب السيطرة، هذه الصيغة ليست كمّاً موحداً متجانساً، ولكنها تبدأ بالمعتقدات التي يدين بها الجميع، وتتطور في شكل أيديولوجيات سرعان ما تتأثر بالمستجدات.

ولهذا لا نجد أيديولوجية فكرية يمكن وصفها بأنها متكاملة، أو يصح أن نقول عنها إنها صالحة للحكم إلى ما لا نهاية، لذلك فهي خاضعة للتعديلات شأنها شأن المناهج الأرضية، هذه النقطة تتفق فيها كافة الأنظمة بالإضافة إلى اتفاقها في:

- كونها مطاطة إلى الحد الذي يمكن معه إعادة تشكيلها حسب الرغبات المختلفة.

- أن كل النظم السياسية تسيطر عليها سلطة حاكمة تحتكر القوة.

- أن هذا الاحتكار قد يستند إلى عقيدة، أو نظرية فكرية، أو انتخاب، أو إلى القوة المتمثلة في الجيش والشرطة.

- أن كل الحكومات تسعى لاكتساب الشرعية؛ فإذا اتشح النفوذ بالشرعية فهذا ما يُشار إليه عادة بالسلطة.

- أن النظم لا يمكنها أن تعيش بمعزل عن العالم الخارجي.

- أن التصرفات المتاحة أمام النظام في أي دولة تتأثر بالتصرفات الماضية والمحتملة للنظم الأخرى.

- حتمية التغيير: فأي نظام لا بد أن يشهد تغيرات هامة لكن يصعب التنبؤ بها؛ ولهذا نجد أن عدم اليقين سمة بارزة للحياة السياسية.

ب - أوجه التباين:

وهي لا حصر لها. ولكن ما يمكن أن يُقال عنه إنه يترتب عليه نتائج هامة يمكن إجماله في النقاط الآتية:

١ - مسار النظام إلى الوضع الراهن.

٢ - درجة التحديث (المستوى الاجتماعي والاقتصادي).

٣ - توزيع الموارد والمهارات السياسية.

٤ - جذور التصدع والتلاحم الداخلي.

٥ - حدة الصراعات وحجمها.

٦ - مؤسّسات اقتسام السلطة وممارستها.

وهذه الأخيرة هي أبرز ما يركز عليه التحليل الحديث.

الأنماط السياسية داخل المجتمع:

وفقاً للمشاركة السياسية يمكن تقسيم الناس إلى كثرة غير مهتمة بالسياسة، إلى جانب قلة مهتمة بها؛ هذه القلة تحوي قلة ثانية تمتلك من الدوافع ما يحفزها للسعي وراء القوة، ولكن المهارات الشخصية والموارد السياسية تحول دون وصول كثير من هؤلاء، لنجد أن الأقوياء هم قلة ممن يسعون نحو القوة، وإن كان التحليل يحتاج لفحص كل شريحة من هذه الشرائح الأربع إلا أن الأخيرة هي التي يمكن أن نسلط عليها بعض الضوء قليلاً بسؤالٍ هو:

لماذا تتعدد الأنماط السياسية للأقوياء؟

هناك عدة أسباب تؤثر في ذلك:

الشخصية والخلق، التوجهات السياسية الأولية، المعتقدات ومواقف اللحظات الحاسمة، الثقافة العامة، الثقافة السياسية التي يشترك فيها مع قطاع من قطاعات المجتمع.

---

(١) هذا النوع من أكثر الطرق شيوعاً، ومن أبرز صوره ما يمارس في الانتخابات الأمريكية.

تحليل الأداء:

التحليل السياسي لا يمكن إخضاعه للمقاييس الكمية والوصفية التي تخضع لها الكيمياء، ولكن يمكن أن يخضع للتعليل السببي للوصول إلى نتائج مرغوبة مثل حرية أعظم ـ أمن أكثر... لذلك فالتحليل تكتنفه صعوبات كثيرة؛ ليس أسهلها تطوير مقاييس الظواهر السياسية.

تحليل القرار:

كيف ترتب الأولويات في ذهن المحلل أو السياسي؟ يختلف الترتيب من محلل لآخر كما سبق أن ذكرنا، ولكن إذا أراد المحلل أن يزيد من قوة التحليل فعليه أن ينوع في توقع الأولويات كي يمكنه تفسير أكبر عدد من الخيارات، ومع هذا فسيظل عدم اليقين يطاردنا ويحف بخياراتنا السياسية. وللتغلب على قدر من هذه المشكلة فإن القرار السياسي وتقويمه يجب أن يخضع لاستراتيجيات تقوم على ترتيب القيم وتوضيح الأهداف وتوقع المشكلات وتوصيف الحلول عن طريق وضع السياسات الممكنة، ثم تبحث كافة النتائج المهمة التي سوف تترتب على تقديم بديل على آخر.

وسعياً وراء الرشد فقد طُرحت بعض الاستراتيجيات:

استراتيجية المثالية الكاملة:

وتقوم على أساس فلسفي تخيلي للأهداف والوسائل، ولكنها أثبتت قصورها الشديد لكثرة مخالفة الواقع للتوقعات الكاملة.

وفي ظل عدم اليقين يصبح أمام متخذ القرار إما أن يغامر ويتخذ القرار في ظروف من عدم التأكد، أو ينتظر ليدرس الحالة جيداً ويتخذ القرار بالحل المثالي، ولكن الانتظار في عالم السياسة غير ممكن.

استراتيجية المثالية المحدودة:

ومن خلالها نقنع بتحقيق الحلول المرضية بدلاً من الحلول المثالية، ويمكننا أن نواجه مشكلة عدم اليقين بأحد الحلول:

١ – السعي نحو الحلول المرضية بدلاً من المثالية.

٢ – اتخاذ قرارات أولية لمعرفة ما يترتب عليها تمهيداً لاتخاذ القرار الأخير.

٣ – الاستفادة من التغذية الاسترجاعية ومن المعلومات التي ولدها القرار الأولي ذاته، ومن خلاله يمكن تقسيم الأدوار.

٤ – وضع إجراءات للوصول إلى الأهداف المرجوة.

وإذا افترضنا أن القرارات التي تتخذ عبارة عن سلسلة من الإجراءات؛ فإنه يمكن للسياسي تصحيح أخطائه في كل إجراء يتخذه وهو يسعى نحو الهدف، ولو افترضنا أننا نزيد في شيء نسبة ٥٪ سنوياً فإنه سوف يتضاعف في ١٤ عاماً(*).

ولكن هذه الاستراتيجية لم تنجح في حل كل المشاكل.

استراتيجية التجريب المدروس:

وهي تصلح في بعض النطاقات دون بعض لتجريب كافة الحلول ومن ثم اختيار أفضلها.

وقطعاً فإنه لا يمكن تفضيل إحدى هذه الاستراتيجيات على الأخرى تفضيلاً مطلقاً، ولكن على السياسي أن ينتخب من بينها ما يناسب طبيعة مشكلته، وعليه أيضاً إطلاق خياله البحثي الذي لا يستند إلى المعرفة وحدها بل يتخطاها إلى التنبؤ بما يمكن أن يكون عليه شكل المستقبل.

تلك أهم قضايا التحليل السياسي، والتي تعتمد على الأسئلة المنطقية: ما هو ـ لماذا ـ كيف ـ أين ـ متى ـ ... والتي يترتب على الإجابة عليها الإجابة على كثير من علامات الاستفهام القلقة داخل دنيا البشر، وهي بحاجة إلى أقلام مسؤولة وعقول متخصصة تُبْحر بنا في تفاصيلها.

(*) المتابع للسياسات الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط بالذات سيجد أن هذا الأسلوب متبع بغزارة ومنفذٌ بجدارة.

المسلمون

العالم

كامب ديفيد
وتكريس الهيمنة اليهودية
على العالم الإسلامي
حسن الرشيدي

التعليم الإسلامي
في إرتيريا
نايب صالح

مرصد الأحداث
حسن قطامش



كامب ديفيد



وتكريس الهيمنة اليهودية البروتستانتية على العالم الإسلامي

حسن الرشيدي

«إن هذه المفاوضات تمس جوهر هوية كل من الطرفين».

هذه العبارة كانت جزءاً من رسالة الرئيس الأمريكي بيل كلينتون في دعوته لرئيس وزراء إسرائيل باراك ورئيس السلطة الفلسطينية عرفات لحضور قمة كامب ديفيد الثانية، وما لم يذكره كلينتون عن تأثير المفاوضات ليس على هوية طرفيها العربي واليهودي فقط ولكن لها تأثيرها أيضا على هوية الطرف الأمريكي.

فكثيرون ينظرون إلى جوهر هذه القضية باعتبارها أرضاً محتلة وشعباً مشرداً ومستوطنات ومعتقلين، ولكن النظرة العقيدية لهذه القضية هي أخطر من ذلك بكثير؛ فهي معركة من سلسلة معارك متواصلة منذ أن خلق الله هذه الأرض، معركة بين الباطل والحق، بين الكفر والإيمان، بين فئة نعرف جيداً أوصافها وخصائصها وتفاصيل علوها في الأرض وطبيعته، ونعرف أيضاً طبيعة المعركة بيننا وبينهم وإلى ماذا تنتهي؛ بيَّنها لنا مالك الملك في كتابه وفسَّرها نبينا ﷺ في سنته.

ولمحاولة فهم ما يدور في أروقة كامب ديفيد من مخططات ومشاريع يجب علينا استنباط المشروع الرئيس الذي ينبثق منه ما بعده. ونقصد بالمشروع: المخطط البروتستانتي اليهودي للهيمنة، والذي بدأت خلفياته تظهر على مسرح الأحداث منذ ما يقرب من مائة عام. وإن كانت بداياته قبل ذلك بكثير.

ففي القرن السادس عشر ظهر المذهب البروتستانتي على يد مارتن لوثر الذي دعا إلى وجوب إقامة الحقيقة الدينية على أساس الفهم الشخصي دون الخضوع لفهم رجال الدين له، وفي ظل هذا المذهب ازداد الاهتمام بالعهد القديم (التوراة) تحت شعار العودة إلى الكتاب المقدس باعتباره مصدر العقيدة النقية؛ وبذلك أصبح البروتستانت مهيئين للاعتقاد بما ورد في العهد القديم وخاصة ما يتعلق منها بوجود اليهود في فلسطين

باعتبارها وطنهم الذي أخرجوا منه والذي يجب أن يعودوا إليه طبقاً للنبوءات الواردة في العهد القديم. وهكذا مع انبعاث التاريخ القديم بكل تفاصيله وحكاياته التوراتية تحولت فلسطين في الضمير البروتستانتي من الأرض المقدسة للمسيحيين إلى أرض الشعب المختار مما أيقظ قضية انبعاث اليهود وعودتهم الجماعية إلى فلسطين؛ حيث يظهر المسيح للمرة الثانية، ويحكم لألف عام. وقد آمن بعض البروتستانت بضرورة اعتناق اليهود للمسيحية تمهيداً لقدوم المسيح، وآمن بعض آخر بإمكان تحولهم هذا بعد قدومه.

جرت أول المحاولات البروتستانتية لإرجاع اليهود إلى فلسطين عام ١٦٢٨م؛ حيث أسس عالم اللاهوت توماس بريتمان حركة العودة بين البروتستانت تنطلق من إيمان النصارى بعودة اليهود إلى فلسطين، وبعد ذلك توالت المحاولات البروتستانتية لتأسيس حركات شعبية تنطلق من الفكرة ذاتها حتى كان القرن التاسع عشر حين تم الربط - لأول مرة - بين الأفكار العقدية مع السياسة البريطانية، ومنذ ذلك الحين بدأ ما وصفه داقيد بولك بـ «الاتحاد العجيب بين السياسة الإمبراطورية ونوع من الصهيونية المسيحية»؛ ففي عام ١٨٣٩م تلقى بالمستون وزير خارجية بريطانيا مذكرة من هنري آسن سكرتير البحرية البريطانية موجهة إلى كل دول شمال أوروبا وأمريكا البروتستانتية تطالب حكام هذه الدول بأن يقتدوا بقورش، وينفذوا إرادة الله عن طريق السماح لليهود بالعودة إلى فلسطين، وقد قام بالمستون برفع المذكرة إلى الملكة ڤكتوريا، وبذلك بدا أن البروتستانت لا يتوانون عن عقد اللقاءات وطرح المشاريع على رجال الدولة والقيام برحلات استكشافية لدراسة فلسطين وتهيئتها لعودة اليهود إليها؛ في حين أن اليهود أنفسهم في ذلك الوقت كانوا آخر من يفكر في هذا الأمر؛ حيث كانوا يعتقدون أن المسيح سوف يجيء ويحررهم ويذهب بهم إلى الأرض المقدسة بمعجزة إلهية، ولكن مع ستينيات القرن التاسع عشر بدأت تتغير نظرة اليهود إلى وجوب عودتهم لأرض الميعاد لضمان نزول المسيح في معتقدهم.

هذه أهم ملامح المشروع اليهودي البروتستانتي التي تكونت وتبلورت عبر حوالي ثلاثة قرون؛ وكان البروتستانت - كما بينا - هم السباقين إلى طرحه، ويبقى السؤال الأهم وهو: كيف تحقق هذا المشروع على أرض الواقع، ووصل إلى ما وصل إليه الآن؟ أو ما هي آليات تنفيذه؟

لا شك أن تنفيذ هذا الحلم تم عبر مراحل طويلة:

المرحلة الأولى: التحضير والدور البريطاني: وقوامه: طرح موضوع الدولة اليهودية على الصعيد العالمي، وتشجيع الهجرة؛ وبناء الجيش العبراني، وتهيئة جميع الظروف لإعلان دولة إسرائيل. تبدأ هذه المرحلة مع مطلع سنة ١٨٩٧م وعقد المؤتمر اليهودي الأول بزعامة هرتزل في بازل بسويسرا بعد أن وجدت الحركة اليهودية كافة الأمور قد تم تمهيدها من قِبَل البروتستانت الإنجليز، ولم يكن مطلوباً منها سوى تبني هذه الدعوة نيابة عن اليهود في كل مكان، والعمل على استغلال كافة العوامل العقائدية والسياسية والاقتصادية؛ بالإضافة إلى المتغيرات الدولية لصالحها، وقد برز عامل مهم بالإضافة إلى العوامل السابقة ألا وهو: قلق حكومات الغرب من هجرة يهود أوروبا الشرقية فراراً من الاضطهاد. حينئذ اقترح هرتزل توجيه اليهود للهجرة إلى وطن يتم الاعتراف به قانونياً وطناً يهودياً؛ وبما أن فلسطين في هذه الفترة كانت خاضعة للسيطرة التركية فلم يكن في مقدور

الحكومة البريطانية إعطاء أي التزام للحركة اليهودية تجاه فلسطين؛ ولكن حين سمحت الفرصة خلال الحرب العالمية الأولى باستيلائها على فلسطين عام ١٩١٧م أصدر اللورد بلفور وزير الخارجية البريطاني حينئذ وعده الذي ينص على إعطاء اليهود وطناً قومياً في فلسطين. ويصف السير رونالد ستوز في كتابه: (استشراقات) الصدى الذي لقيه صدور الوعد بقوله: «لقي الوعد صدى رائعاً واستحساناً في الصحافة؛ يضاف إلى ذلك ما حظي به من التأييد العام والكبير لدى آلاف الكهنة الإنجليكانيين والقساوسة البروتستانت وغيرهم من الرجال المتدينين في سائر أنحاء الكرة الغربية»؛ وقد علق هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني على ذلك الوعد قائلاً: «هناك عطف واسع الانتشار وعميق الجذور في العالم البروتستانتي على فكرة إرجاع الشعب العبراني إلى الأرض التي أعطيت ميراثاً له، وهناك اهتمام شديد بتحقيق النبوءات التي توقعت ذلك مسبقاً».

بعد صدور وعد بلفور سعت بريطانيا جاهدة للحصول على موافقة الحلفاء لإخضاع فلسطين للانتداب البريطاني، وقد تم ذلك؛ ففي إبريل ١٩٢٠م وافق المجلس الأعلى للدول المتحالفة في سان ريمو على أن يوكل للحكومة البريطانية مهمة الانتداب على فلسطين، وتم لها قانونياً عام ١٩٢٣م عندما وقعت تركيا أتاتورك معاهدة لوزان.

وهكذا حصلت بريطانيا على ما تريد لتحقيق الحلم اليهودي عن طريق وضع فلسطين تحت الانتداب الذي تم في ظله فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية، ومكنت سلطات الانتداب اليهود من شراء الأراضي وتأسيس نواة الجيش الإسرائيلي وحتى في بعض الحالات التي وجدت فيها الحكومة البريطانية أن بعض المسؤولين يقفون حائلاً أمام سرعة تنفيذ المشروع كما تريد قامت بإبعادهم كما فعلت مع الجنرال بولز الحاكم العسكري لفلسطين في بداية الانتداب؛ فقد قدم بولز لحكومته توصيات طالبها فيها بانتهاج سياسة عادلة تجاه السكان العرب، فسارعت السلطات البريطانية بإقالته وتعيين هربرت صموئيل البروتستانتي المتعصب الذي ملأ الدوائر الحكومية بالموظفين اليهود، واعتمد اللغة العبرية لغةً رسمية في فلسطين، وأمر بإطلاق سراح الزعيم اليهودي جابوتنسكي الذي كانت السلطات التي قبله قد حكمت عليه بالسجن ١٥ عاماً، وأطلق صموئيل يد الضباط البريطانيين لتقديم المساعدات للمنظمات العسكرية اليهودية في الوقت الذي منع فيه السلاح عن العرب، وكان أشهر هؤلاء الضباط الكابتن وينجيت؛ حيث كان ينظر إلى المساعدة التي يقدمها لليهود أنها واجب ديني مفروض عليه أن يؤديه. ويقول عنه موشي ديان: «كان وينجت يؤمن إيماناً لا يتزعزع بالتوراة. قبل أن ينطلق في مهمته كان يقرأ في التوراة المقطع الذي يتحدث عن المنطقة التي سيسلكها فيجد فيه ضماناً لانتصارنا؛ انتصار إله يهوذا».

لقد قدمت بريطانيا الأساس الذي أكمله من بعدُ الآخرون. تقول دائرة المعارف البريطانية: «إن الاهتمام بعودة اليهود إلى فلسطين قد بقي حياً في الأذهان بفعل النصارى المتدينين وعلى الأخص في بريطانيا التي كان اهتمامها أكثر من اهتمام اليهود أنفسهم».

ويقول حاييم وايزمان أول رئيس لدولة إسرائيل: «للمرء أن يسأل: ما هي أسباب حماسة الإنجليز لمساعدة اليهود وشدة عطفهم على أماني اليهود في فلسطين؟ والجواب على ذلك: أن الإنجليز هم أشد الناس تأثراً بالتوراة، وتديُّن الإنجليز هو الذي يساعدنا في تحقيق آمالنا؛ لأن الإنجليزي المتدين

يؤمن بما جاء في التوراة من وجوب عودة اليهود إلى فلسطين، وقد قدمت الكنيسة الإنجليزية في هذه الناحية أكبر المساعدات».

المرحلة الثانية: إقامة القلعة ومركز السيطرة:

«إننا في حلف دائم وراسخ وغير قابل للفصم مع دولة إسرائيل» هذه العبارة رددها شولتز وزير الخارجية الأمريكي عام ١٩٨٥م؛ فأمريكا مثلها مثل بريطانيا ذات أغلبية بروتستانتية تغلغلت في تفكير مواطنيها الأفكار والنبوءات التوراتية الخاصة بعودة اليهود إلى فلسطين باعتبارها مقدمة لعودة المسيح؛ ولكن هناك عامل إضافي زاد من التعاطف الأمريكي مع اليهود ألا وهو الربط بين تجاربهم السابقة في الفرار من الاضطهاد في أوروبا وإنجلترا والصعاب التي واجهوها في الأرض الجديدة والأعمال الوحشية التي فعلوها ضد السكان الأصليين وبين اليهود؛ حيث خاضوا مثلهم تجربة الاضطهاد وقام اليهود مثلهم بأعمال وانتهاكات ضد العرب تحت دافع العامل العقدي، وهذا يفسر ما كتبه هيرمان ملفيل متحدثاً عن الشعب الأمريكي: نحن الأمريكيين شعب خاص، شعب مختار، وإسرائيل العصر الحاضر.

وتوالى على أمريكا الرؤساء وكلهم متفقون على الدعم اليهودي مدفوعون بخلفياتهم البروتستانتية؛ فالرئيس توماس جيفرسون واضع وثيقة استقلال أمريكا يقترح بأن يمثل رمز الولايات المتحدة على شكل أبناء إسرائيل تقودهم في النهار غيمة وفي الليل عمود من النار كما ورد في التوراة.

وفي عام ١٨١٨م بعث الرئيس الأمريكي جون آدمز برسالة إلى الصحفي اليهودي مردخاي مانوي عبر فيها عن أمنيته في أن يعود إلى جوديا - يهودا - لتصبح أمة مستقلة؛ ولقد لعب الرئيس ويلسون دوراً رئيساً في صدور وعد بلفور؛ حيث شارك في الاتصالات التي سبقت صدور الوعد وكان يقول: «إن ربيب بيت المقدس (يقصد نفسه) ينبغي أن يكون قادراً على المساعدة في إعادة الأرض المقدسة إلى أهلها».

وفي عام ١٩٢٢م اتخذ الكونجرس الأمريكي قراراً وقَّع عليه الرئيس هاردنج جاء فيه: إن الاعتراف بوطن قومي لليهود أعطى بني إسرائيل الفرصة التي حرموا منها منذ أمد بعيد لإعادة إقامة حياة وثقافة يهوديتين مثمرتين في الأراضي اليهودية القديمة طوال الفترة السابقة. ولم يكن الدور الأمريكي الرسمي يزيد عن التعاطف والتأييد المالي والمعنوي تاركاً المهمة لبريطانيا التي كانت في تلك الفترة القوة المهيمنة على المعسكر الغربي، ولكن منذ أربعينيات هذا القرن بدأ مركز الثقل في المعسكر الغربي ينتقل إلى الولايات المتحدة؛ وبذلك انتقلت قيادة المشروع البروتستانتي اليهودي إليها.

وعندما تولى ترومان رئاسة الولايات المتحدة أصدر بياناً بادر فيه إلى المطالبة بإدخال مائة ألف يهودي إلى فلسطين فوراً كما أوصى بتطبيق خطة التقسيم التي اقترحتها عليه الوكالة اليهودية، ولعب ترومان دوراً حاسماً أثناء حرب ١٩٤٨م؛ حيث عمل على استصدار قرار من مجلس الأمن بإعلان الهدنة بين القوات المتحاربة حين كانت الجيوش العربية لها الغلبة، وعمل على إعادة تسليح العصابات اليهودية فنجحت في إلحاق الهزيمة بالجيوش العربية.

وفي عام ١٩٦٧م كانت المحطة الثانية للمشروع اليهودي البروتستانتي في تلك المرحلة؛ حيث تولى جونسون الرئاسة الأمريكية وفي عهده حصلت إسرائيل على صفقات كبيرة من الأسلحة الهجومية والمعدات اللازمة للحرب الإلكترونية التي تمكنت إسرائيل بفضلها من هزيمة الجيوش العربية والاستيلاء على أراض شاسعة تفوق مساحة

إسرائيل عدة مرات. ويقول جونسون في تصريح أدلى به أمام جمعية أبناء العهد: إن بعضكم - إن لم يكن كلكم - لديكم روابط عميقة بأرض إسرائيل مثلي تماماً؛ لأن إيماني المسيحي ينبع منكم، وقصص التوراة منقوشة في ذاكرتي تماماً مثل قصص الكفاح البطولي ليهود العصر الحديث من أجل الخلاص من القهر والاضطهاد.

لقد كان انتصار إسرائيل في حرب عام ١٩٦٧م علامة فارقة في المشروع البروتستانتي اليهودي؛ إذ إنه كان بمثابة نهاية التمدد على الأرض لهذا المشروع بالنسبة للشق اليهودي. أما الشق الآخر البروتستانتي فقد جاء بجيوشه ليهيمن عسكرياً على المنطقة في حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م.

وفي النصف الثاني من السبعينيات وصل إلى الرئاسة الأمريكية جيمي كارتر الذي قام بجهد غير عادي لدعم إسرائيل تم تتويجه بتوقيع أول معاهدة سلام مع دولة عربية - وهي مصر - وقد علل كارتر أسباب تأييده المطلق لإسرائيل؛ حيث قال: إن علاقة أمريكا بإسرائيل أكثر من علاقة خاصة. لقد كانت وما زالت علاقة فريدة لا يمكن تقويضها؛ لأنها متأصّلة في وجدان الشعب الأمريكي نفسه وأخلاقه وديانته ومعتقداته.

وفي مرة أخرى أوضح الأمر أكثر قائلاً: إنه بوصفه مسيحياً مؤمناً بالله يؤمن أيضاً بأن هناك أمراً إلهياً بإنشاء دولة إسرائيل.

ولقد بدا المفهوم العقدي واضحاً أكثر في شخصية الرئيس رونالد ريجان الذي صرح مرة: بأنه كان يشعر عند الانتخابات الأمريكية بأن المسيح يأخذ بيده، وأنه سوف ينجح ليقود معركة الهرماجيدون التي اعتقد أنها ستقع خلال الجيل الحالي في منطقة الشرق الأوسط، ويبدو أن ريجان كان مؤمناً بحدوث تلك المعركة في القريب العاجل؛ حيث قال مخاطباً المدير التنفيذي للمنظمة الصهيونية (إيباك): حينما أتطلع إلى نبوءاتكم القديمة في العهد القديم وإلى العلامات المنبئة بمعركة هرماجيدون أجد نفسي متسائلاً عما إذا كنا الجيل الذي سيرى ذلك لاحقاً؟ ولا أدري إذا كنت قد لاحظت مؤخراً أياً من هذه النبوءات، ولكن صدقني أنها تنطبق على زماننا الذي نعيش فيه.

وجاء بيل كلينتون إلى الرئاسة الأمريكية وكان قد زار اسرائيل عام ١٩٨١م؛ حيث وصف بنفسه هذه الزيارة بأنه تأثر بها كثيراً، وكانت زيارة دينية أكثر منها سياسية، كما أنه تأثر كثيراً بقصة موت أحد رجال الدين المسيحيين كان قد مات مؤخراً، وتحدث إليه طويلاً قبل ذلك؛ حيث قال له ذلك القس: إنه يأمل في أن يصبح رئيساً للولايات المتحدة، وأنه يجب عليه أيضاً أن يحافظ على إسرائيل.

المرحلة الثالثة: مرحلة التسوية السياسية والانتقال من مفهوم الهيمنة القائمة على السيطرة على الأراضي والحدود في البلدان العربية إلى مفهوم السيطرة الكيفية والاستراتيجية.

فالبروفيسور شيمون شامير الذي عمل سفيراً لإسرائيل في مصر قال في محاضرة له: «ينظر الإسرائيليون للسلام على أنه التحقيق النهائي للرؤية الصهيونية».

فمع اقتراب السبعينيات من نهايتها فإن ثمة بدايات مرحلة جديدة قد أخذت في التشكل؛ ومما يؤكد هذا الاتجاه ما كشفته وثيقة أمريكية كانت قد صدرت عام ١٩٧٩م كُشف عنها النقاب مؤخراً وهي من وضع عدة وزارات وجامعات ومعاهد بحثية عليا. تتحدث الوثيقة عن تصور للشرق الأوسط يهدف إلى إقامة تعاون بين دول المنطقة يقف في وجه أي مشروع قومي أو ديني، ويتولى الدعوة لهذا

المشروع المثقفون العرب وفي الجانب التنفيذي تطرح الوثيقة صيغة تفرض إسرائيل شريكاً في كل موارد الشرق الأوسط مع دوله وشعوبه.

ولم تأخذ هذه المرحلة الشكل النهائي إلا بانتهاء حرب الخليج الثانية وسقوط الاتحاد السوفييتي وتزعُّم أمريكا نظاماً عالمياً جديداً تحتل فيه مكان الصدارة والهيمنة؛ ولذلك نجد أن أول ما قام به بوش بعد أن استتب له الوضع في الخليج أن سعى إلى تفعيل ما يسمى بالعملية السلمية في المنطقة.

إن هدف هذه المرحلة هو إحداث تغيير على الجانب العربي؛ هذا التغيير يبدأ بضرورة تقبل إسرائيل ليس باعتبارها دولة فقط؛ بل يتعين قبولها بأساسها الديني ويمتد إلى تغيير معتقدات العرب السياسية، ويمر عبر إعادة صياغة شبكة العلاقات العربية مع القوة المهيمنة وهي التحالف اليهودي البروتستانتي، وأي اعتراف بإسرائيل بوصفها دولة فقط بدون التسليم بأساسها الديني لهو تكتيك، وليس خياراً استراتيجياً. ويرى كاتب مثل ألوف هارايفن أن هناك عدة عوامل تساعد على تحقيق السلام في المنطقة: قوة إسرائيل الاستراتيجية، وعزل العناصر غير المستقرة (يقصد بها العناصر الإسلامية التي تعيق هذا المشروع) وتدخل وتأثير الولايات المتحدة.

ويقول جولد مان رئيس المؤتمر اليهودي: إن إسرائيل التي تمثل الآن ما يقرب من ١٪ من مساحة العالم العربي عن طريق الحرب وسلاح المواجهة الساخنة يمكنها أن تحتل مساحة العالم العربي بأسره عن طريق السلام والتعاون الاقتصادي.

وفي السياق ذاته يمكن فهم مبادرة المليardير الصهيوني روتشيلد بإنشاء معهد قرب جنيف بعد حرب ١٩٦٧م أطلق عليه اسم: «معهد من أجل السلام في الشرق الأوسط» بهدف دراسة احتمالات التطور الاقتصادي بالشرق الأوسط بعد تسوية الموقف وإنهاء حالة الحرب والبحث عن وسائل إقامة علاقات تجارية بين دول المنطقة أي بين إسرائيل وجاراتها العربيات.

والانسحاب الإسرائيلي الأخير من لبنان ما هو إلا تكريس لهذه السياسة أي الانسحاب من الأرض وترك إدارتها للعملاء مع ضمان الهيمنة والنفوذ.

وهكذا فإن هدف المشروع البروتستانتي اليهودي كان وسيظل دائماً وأبداً الهيمنة بالسلام؛ فالقتال أو السلام - بشروطهم - مجرد أداتين فقط أيهما تفد المشروع الصهيوني في إنجاز هدفه الاستراتيجي يكن لها الأولوية.

وقبل حرب ١٩٦٧م وفي أعقابها كانت إسرائيل تتناول أحاديث السلام كثيراً ولكن وفق مفهوم خاص ينبني على أساس إنشاء شبكة متعددة من التفاعلات الاجتماعية، والاقتصادية، والاستراتيجية قبل الوصول إلى اتفاق بالتسوية السلمية؛ ففي مؤتمر جنيف ١٩٧٤م - على سبيل المثال - أعلن أبا إيبان وزير الخارجية الإسرائيلي - حينذاك - أن السلام لا يعني وقف إطلاق النار، وأن الضمان الحقيقي للسلام هو إقامة مصالح مشتركة بين العرب وإسرائيل تتسم بالتنوع والكثافة.

وعقب مبادرة السادات وزيارته للقدس، وبالرغم من إعلان إسرائيل المسبق عن استعدادها للانسحاب من كل سيناء مقابل إحراز اتفاق سلام مع مصر - وقد أثبتت وثائق كُشِفَ النقاب عنها مؤخراً أن هذا العرض قائم في أعقاب حرب ١٩٦٧م - إلا أنه عندما بدأت مباحثات السلام مع مصر أخذ الإسرائيليون يدّعون أهمية سيناء الحيوية بالنسبة لهم، وكان هذا يخدم هدف الحصول على أكبر كَمٍّ ممكن من الامتيازات في سيناء خاصة تلك التي

تتعلق بالبترول، وكان للإسرائيليين ما أرادوا! فعندما جاء الوقت لينسحبوا من سيناء كانوا قد ضمنوا التمتع بأهم مواردها: البترول، وحرية الملاحة. ومن ناحية أخرى عمدت إسرائيل إلى التقليل من الأهمية الاستراتيجية لسيناء كثمن لتحقيق السلام مع مصر واتخاذ ذلك خطوة لفرض الهيمنة الاقتصادية والسياسية على العالم العربي؛ وقد كشف إسرائيل شاحاك رئيس رابطة حقوق الإنسان الإسرائيلية عن هدف المخطط الصهيوني بقوله: «إن السيطرة على الشرق الأوسط هدف كل السياسات الإسرائيلية، وإن هذا الهدف مشترك بين كل الحمائم والصقور على السواء، وإن كان الاختلاف بينهم على الوسيلة: بالاحتلال أم بالسيطرة الاقتصادية؟».

وهو المعنى نفسه الذي ذهب إليه شيمون بيريز عندما قال: إن إسرائيل تواجه خياراً حاداً: فإما أن تكون إسرائيل الكبرى اعتماداً على عدد الفلسطينيين الذين تحكمهم، أو أن تكون إسرائيل الكبرى اعتماداً على حجم السوق التى تحت تصرفها.

وقدم إيجال آلون نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي مشروعاً من تسع نقاط نصت النقطة الخامسة منه على إقامة إطار حكم ذاتي في المناطق التي لن تكون تحت السيادة الإسرائيلية، ويمكن أن يكون في إطار الحكم الذاتي مرتبطاً بإسرائيل، ويمكن أن يتمثل هذا الارتباط بوجود إطار اقتصادي مشترك، ومعاهدة دفاع مشترك، وتعاون تقني وعلمي، واتفاقات ثقافية، وإيجاد حل مشترك لتوطين لاجئي قطاع غزة في الضفة الغربية. ومن الواضح أنه سيترتب على الحكومة - يقصد حكومة إسرائيل - أن تبادر إلى إعداد خطة عامة وشاملة وبعيدة المدى لحل مشكلة اللاجئين التي هي مشكلة مؤلمة وغير قابلة لحل كامل إلا على أساس تعاون إقليمي يتمتع بمساعدات دولية.

ويمكن القول دون مبالغة إن ترتيبات الحكم الذاتي الانتقالي في اتفاق غزة - أريحا تضمنت العديد من أفكار آلون، ويجب ألا ينظر إلى الأمر على أنه توارد أفكار، ولكنها الاستراتيجية التي تربط كل التحركات التكتيكية المتتابعة وصولاً إلى الأهداف الأساسية للمشروع البروتستانتي اليهودي.

وعند استعراض مبادرات التسوية السياسية السابقة منذ كامب ديفيد الأولى وحتى كامب ديفيد الثانية نجد أنها تؤكد على الحقائق الآتية:

- الحلول الجزئية هي الأصل في قيام هذه التسويات وليست الحلول الشاملة لمختلف جوانب الصراع وقضاياه.

- أن المطلوب من الحكومات العربية في هذه القضايا ليس الاعتراف فقط بإسرائيل؛ ولكن الرضوخ لأي مخططات في المنطقة لخدمة أهداف المشروع البروتستانتي اليهودي، وسحق أي محاولات من جانب الشعوب العربية في الوقوف في وجه هذه المخططات.

- أنه وفقاً للمشروع الذي تحدثنا عن أبعاده في السابق لا نستطيع أن نقول إن هناك ثلاثة أطراف في هذه المفاوضات؛ بل هناك طرفان: الطرف العربي، والطرف اليهودي البروتستانتي.

- أن هناك دائماً وجهين للتعامل مع ما تم الاتفاق بشأنه: وجه زائف أمام وسائل الإعلام يتم فيه استخدام الألفاظ والتعبيرات التي تساعد على تخدير الشعوب، ووجه سري وهو الوجه الحقيقي الذي لا يعلن عنه وهو الذي يتم تنفيذه وغالباً ما يتم الاتفاق بشأنه عبر القنوات السرية. والمؤتمرات العلنية ما هي إلا التكريس لما تم الاتفاق عليه، حتى

إن كاتباً سياسياً علمانيا كبيراً مثل محمد حسنين هيكل يشكو من ظاهرة تعمد إخفاء المعلومات وبما يدور في كواليس السياسة العالمية ودهاليز الحكام العرب والمتعلق منها بالشرق الأوسط والأمة العربية، وهو من هو من خبرة طويلة في السياسة سواء على مستوى الممارسة أو على مستوى جمع المعلومات والتحليل الثاقب البعيد النظر، أو على مستوى الصلات الشخصية بكثير من الشخصيات السياسية المؤثرة: العربية منها أو الأجنبية.

- أن توازن القوى بين الأطراف يكاد يكون منعدماً: بين طرف يملك أرقى التجهيزات العسكرية وأرقى التكنولوجيا التي أسقطت من قبلُ الإمبراطورية السوفييتية من غير أن يطلق طلقة واحدة وتسعى بمختلف السبل ألاّ يملك الطرف الآخر إلا الفتات من المعدات والأسلحة.

- انه في ظل الهيمنة لأصحاب المشروع - ونعني بالهيمنة العسكرية منها والاقتصادية والثقافية والتعليمية والإعلامية... - فلا معنى لأي مكاسب على الأرض يحرزها الطرف الآخر ويصبح الحديث عن نفوذ فلسطيني على القدس أو جزء منها أو على أي شبر من الاراضي المحتلة أو حتى الدولة الفلسطينية لا قيمة له.

- أن الحكومات العربية - وبالأخص السلطة الفلسطينية - لا يمكن اعتبارها أطرافاً تعبر عن الشعوب العربية لأسباب عديدة منها أن ولاءها الفكري للغرب؛ حيث إنها ربيبته وصنيعته، كما أن أغلب أفرادها والمعبرين عنها اشتهر عنهم العمالة المباشرة لأطراف المشروع حتى إنه أثناء مؤتمر كامب ديفيد الأخير استدعى باراك رئيس مخابراته ومع وجود رئيس وكالة المخابرات الأمريكية؛ فإن مشاركة هؤلاء لتذكير المسؤولين العرب بماضيهم في العمالة فلا معنى لتشددهم إذن.

وفي الإطار نفسه، ذكرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية في٢٥/٧/٢٠٠٠م أن الأمريكيين قاموا بإرسال مبارك إلى بعض العرب من أجل أن ينضموا إليه في السماح لعرفات بالتنازل عن القدس.

- سحق أي مقاومة محتملة للمشروع وخاصة من جانب الإسلام؛ لأنه هو القوة الوحيدة التي تعرف أصل المعركة والطبيعة الحقيقية للقضية وأنه صراع عقيدة.

لقد شهدت الفترة الماضية قمعاً شديداً وتنسيقاً هائلاً بين أجهزة الاستخبارات في الدول العربية وأمريكا، وحتى العالمية لمحاصرة أي صوت وأي تجمُّع يُعرف عنه انتماؤه للصحوة الإسلامية وخنقه.

ولنا أن نتخيل أو نتصور تسويات سلمية أو كما يسمونه سلاماً يقام على هذه الأسس.

فهذه هي مقدمات مؤتمر كامب ديفيد؛ ومن المعلوم أن المقدمات تسبق النتائج، فكان لا بد من ذكر الحقائق أو المقدمات السابقة إذا أردنا أن نتعرف على نتائج أو ما تسفر عنه هذه القمة.

المراجع:

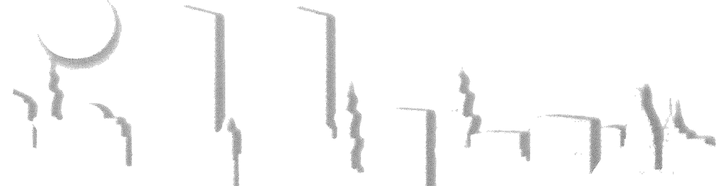
١- الشرق الأوسط الجديد: سيناريو الهيمنة الإسرائيلية، علاء عبد الوهاب، سينا للنشر.

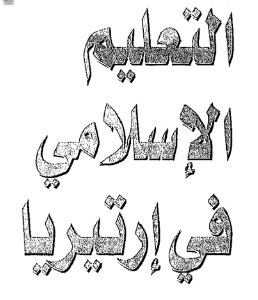
٢ -الشرق الأوسط: مخطط أمريكي صهيوني - أعمال ندوة مقاومة التطبيع - تحرير حلمي شعراوي، مكتبة مدبولي.

٣ - الصليبيون الجدد (الحملة الثامنة) - يوسف العاصي الطويل - مكتبة المدبولي.

٤ - الاستراتيجية الإسرائيلية لتطبيع العلاقات مع البلاد العربية - محسن عوض - مركز دراسات الوحدة العربية.







التعليم الإسلامي في إرتيريا الواقع والتحديات

نايب صالح

« اقرأ » كانت أول كلمة تلقاها رسول الله ﷺ من عند ربه؛ فكانت هذه الكلمة دعوة صريحة لهذه الأمة أن تبني كيانها وهويتها على العلم والمعرفة: العلم بالله قبل كل شيء، ثم تأتي بقية العلوم تباعاً حسب أهميتها وحاجة الناس إليها. وقد أبان الله - سبحانه وتعالى - أفضلية العلماء على غيرهم من الناس بقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]، ورغّب الرسول ﷺ في تلقي العلم فقال: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع»[(١)] وخص بالخيرية من تفقه في الدين خاصة فقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[(٢)].

ولا خلاف بين الناس في ضرورة العلم عامة وأهميته في نهضة الأمم، وبناء الحضارات، وتنمية المجتمعات وتطويرها نحو مستقبل مشرق. وللتعليم الإسلامي على وجه الخصوص مهمة عظيمة في نشر الدعوة الإسلامية وتوسيع رقعتها بشرياً وجغرافياً، والارتقاء بها نحو الأفضل، وتعد دُور العلم « المنطلق الأول لبشائر الطلائع الإسلامية التي تتحرك نحو مستقبل باسم وغدٍ مجيد تبني للإسلام صرحاً عريضاً شامخاً يحقق الآمال المرجوة منه والأماني المعقودة عليه»[(٣)].

---

(١) رواه ابن ماجة، ح/ ٢٢٢.

(٢) رواه البخاري، ح/ ٦٩.

(٣) د. توفيق الواعي، الدعوة إلى الله، ص ٣٩٥.

التعليم الإسلامي في إرتيريا قبل الاستقلال:

تمثل فترة ما قبل خروج الاحتلال الإثيوبي من إرتيريا وتولي الحكم من قِبَل الجبهة الشعبية في إرتيريا وإعلانه الاستقلال قبل عشر سنوات تقريباً فترة زمنية لها طابعها الخاص والمميز على وضع التعليم الإسلامي في إرتيريا.

ولما كان التعليم الإسلامي يشمل الدروس التي تلقى في المساجد، وما يتعلمه الصبيان في الكتّاب من القرآن الكريم وبعض مبادئ الدين الإسلامي فلا بد من القول إن هذا النوع من التعليم رافق بداية دخول الإسلام في إرتيريا، إلا أن أول مدرسة نظامية أقيمت في إرتيريا على الإطلاق يعود تاريخها إلى عام ١٢٨٣ هـ الموافق ١٨٧٠م عندما قامت الخديوية المصرية التابعة للسلطنة العثمانية بإنشاء مدرسة طوالوت الابتدائية في مدينة مصوَّع، ويمكن اعتبار هذه المدرسة أيضاً أول مدرسة إسلامية أقيمت على ثرى إرتيريا؛ لأنها كانت تابعة لدولة إسلامية أخرى.

وبعد ذلك تعرضت إرتيريا لمجموعة من الاحتلالات الأجنبية بدءاً بالاحتلال الإيطالي، ومروراً بالانتداب البريطاني، وانتهاءاً بالاحتلال الإثيوبي. وقد كان جميع هؤلاء المحتلين لا يولي التعليم الإسلامي أي رعاية أو اهتمام، بل - بالعكس من ذلك - كانوا يقفون عائقاً دون استمراره ويحاولون إجهاض الجهود الرامية إلى تطويره والنهوض به، وأسباب ذلك واضحة ولا تحتاج إلى تحليل لكون المحتل غير مسلم.

لذلك كانت الجهود التي بذلت لبناء التعليم الإسلامي في إرتيريا جهوداً أهلية، فردية كانت أو جماعية، ويمكن الحديث عن ثلاثة أنواع من مجالات التعليم الإسلامي في إرتيريا:

أ - الكتاتيب:

تعرف الكتاتيب في إرتيريا باسم الخلاوي في المنخفضات، أو القرآن في المرتفعات، وهي عبارة عن أماكن لتعليم الصبيان القرآن الكريم وبعض مبادئ الدين الإسلامي، وقد تكون في المساجد أو في غيرها من الأماكن حسب ما هو متوفر، وفي الحقيقة فإن الكتاتيب مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية لم تكن معروفة في العصر الجاهلي، فانتشرت بصفات متشابهة[1] في كل بقعة وضع الإسلام فيها أقدامه، وحرص المسلمون عامة وفي إرتيريا خاصة على إرسال أبنائهم إلى هذه الكتاتيب.

وتنتشر الكتاتيب في إرتيريا في المدن والقرى، وتقوم بتعليم الفتيان والفتيات على حد سواء، ولا يوجد تعداد رسمي يبين عددها بالضبط إلا أنها منتشرة بشكل جيد في جميع مناطق إرتيريا، وتعتمد على الجهد الذاتي للمعلم الذي يكون في العادة معلماً واحداً يتعاون معه الأهالي من الناحية المادية، على شكل رسوم يدفعها المتعلمون لمعلمهم.

وبالرغم من أن ميزة الكتاتيب تكمن في بساطتها؛ حيث يمكن إقامتها في أي موضع دون العناء في البحث عن أماكن خاصة لإقامتها حتى إن بعض المعلمين كانوا يعلِّمون الأطفال في فناء منازلهم بوضع مظلة بسيطة تقي الصبية من حرارة الشمس. إلا أنه أيضاً يجب التنبيه إلى أن الكتاتيب في إرتيريا لم تسجل أي تطور يذكر سواء من ناحية كفاية المعلمين وتنظيم تمويلها والعمل على تقوية عطائها سواء في تحفيظ القرآن أم في إعطاء جرعات مناسبة من مبادئ الدين، إلا ما كان من

(١) انظر: د. احمد الاهواني، التربية في الإسلام، ص ١٩٠ وما بعدها.

مدرسة عمر بن الخطاب لتحفيظ القرآن الكريم في مدينة أسمرا التي تأسست في عام ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م؛ حيث ركزت على حفظ القرآن وتجويده وتعليم العلوم العربية والشرعية، والعمل على تفاعل المجتمع المحلي من خلال الدروس والمحاضرات العامة التي تلقى فيها للكبار والصغار، وقد ظهر تأثيرها الإيجابي على سلوك طلابها وسلوك المجتمع المحلي، وقد تعرضت بسبب العقيدة السلفية التي تبنتها للحرب من قِبَل بعض المبتدعة بحجة أنها تدرس دين الوهابية!! إلا أنها استطاعت أن تتجاوز هذه المحنة وواصلت مسيرتها حتى تم إغلاقها من قِبَل نظام الجبهة الشعبية الحاكم في إرتيريا في عام ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

وبالرغم من اعتماد الكتاتيب في إرتيريا على الطرق البدائية وافتقادها التطوير والتحسين إلا أنه يمكن القول إنها تمكنت مما يلي:

١ - غرس أساس العلم والإيمان القابل للنماء في أنفس النشء.

٢ - تعليم الصبية قراءة الحروف العربية وكتابتها، وتحفيظهم ولو شيئاً يسيراً من القرآن يتمكنون من خلاله أداء صلواتهم على الوجه المطلوب.

٣ - إشعار أطفال المسلمين الذين يترددون على هذه الكتاتيب بتميزهم عن غيرهم من أهل الأديان الأخرى.

٤ - تمكين النشء في أهم مرحلة من عمره من العيش في بيئة مسلمة يتربى فيها على الخلق الإسلامي.

ب - المعاهد الدينية:

شعر المسلمون في إرتيريا أن الخلاوي القرآنية وحدها غير كافية في حفظ هويتهم الإسلامية التي كانت وما زالت تتعرض للمسخ والطمس، وأحسوا بضرورة توسيع تعليم الشرع الإسلامي على نحو منظم ومفيد، ففكروا بإنشاء المعاهد الدينية، وبدأت الفكرة الأولى بالمعهد الديني الإسلامي بمصوع في عام ١٣٦٠هـ = ١٩٤٠م؛ حيث بدأ يؤدي دوره بشكل كامل بعد خمس سنوات من ذلك التاريخ، ووفقاً لما جاء في قانون المعاهد الدينية رقم (١) الذي أصدرته دار الإفتاء الإرتيرية في عام ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م فإن المعاهد الدينية في إرتيريا بدأت تنظم أعمالها في مبانٍ خاصة وفق النظم العصرية في التعليم في عام ١٣٦٣ هـ = ١٩٤٤م، وذلك لتحقيق الأهداف الآتية:

١ - حفظ الشريعة الإسلامية.

٢ - فهم علوم الشريعة ونشرها بين الناشئة الجديدة.

٣ - إيجاد الوعي الديني والثقافي في نفوس الناشئة.

٤ - صيانة الناشئة من وباء الجهل والعلمنة والانحراف عن المبادئ الإسلامية.

٥ - إخراج فئة يسند إليها أمر الثقافة الإسلامية والعربية وتعليمها للأجيال.

وكان هذا القانون الذي وضعته دار الإفتاء الإرتيرية أول محاولة لتنظيم المعاهد الدينية وتوحيدها في إرتيريا؛ إلا أن الظروف الأمنية والسياسية لم تساعد في تطورها للأفضل، واستمرت الجهود الأهلية في إنشاء المعاهد بلا تنسيق، مع عدد محدود من المعاهد التي تشرف عليها لجان الأوقاف في المدن الرئيسة، وقد بلغ عدد المعاهد الدينية في إرتيريا كلها في فترة من الزمن ما يزيد على عشرين معهداً يتراوح عدد الدراسين فيها بين ستمائة إلى مائتي طالب وطالبة في كل معهد، وانتشرت هذه المعاهد في اغلب مدن إرتيريا، منها: أسمرا، ومصوع، وجندع، وحقات، وصنعفي، ومنصورة، وأغردات، وافعبت، وعدي قيح، ودقمحري، وإرافلي، وطرونا، وشِعب، وزولا،

ومندفرا، وعدي خوالا، ومكَعليلي، وأفتي، وتعد مدينة كرن الاكثر حظاً؛ حيث كان فيها حوالي سبعة معاهد.

وبعد سقوط نظام الإمبراطور هلاسي لاسي الصليبي الذي كان يتعامل مع هذه المعاهد بالإهمال والتضييق عليها وجدت المعاهد الدينية في عهد الحكم الشيوعي الإثيوبي بعض الانفراج؛ حيث عمل هذا النظام على إدخال العلوم التطبيقية التي تدرس في المدارس الحكومية في هذه المعاهد، وتحمل نفقات المدرسين الذين يدرسون هذه المواد، وأذن لطلاب المعاهد بالدخول في امتحانات الشهادة الابتدائية العامة التي تعقد على مستوى الوطن، مما شجع الكثير من الاهالي على تعليم أبنائهم في هذه المعاهد لاشتمالها على العلوم الشرعية والعلوم العصرية التي يمكن ان يتلقوها في المدارس الحكومية.

وقد عانت هذه المعاهد الكثير من المصاعب التي تمثلت في قلة الموارد، وضيق المباني، وضعف المدرسين، وانحصارها على المرحلة الابتدائية غالباً، واضطراب المناهج التي تدرس فيها؛ حيث تجد أن المعهد الواحد ينتقل من المنهج الأزهري إلى السوداني، والى السعودي.

ج - المدارس العربية والإسلامية:

كانت هناك مجموعة من المدارس العربية والإسلامية في إرتيريا تختلف عن المعاهد الدينية لجمعها بين العلوم العربية والشرعية والعلوم التطبيقية، وكان مما دعا إلى تأسيسها أن المدارس الحكومية التي كانت تدرس باللغة العربية في فترة الانتداب البريطاني لم تكن العلوم الدينية مدرجة في مناهجها، فاضطر العرب المقيمون في إرتيريا إلى تأسيس مدرسة خاصة باسم مدرسة الجالية العربية التي تبنت المنهج المصري، كما أسس المسلمون الإرتيريون عدداً من المدارس الإسلامية الأهلية في كل من أسمرا ومصوع وكرن، وأغلب هذه المدارس لم تستطع الاستمرار في أداء مهمتها، فتم تأميم بعضها من قِبَل الحكومة الإثيوبية وأصبحت مدارس عادية، ولم يبق من هذه المدارس العربية الإسلامية سوى مدرسة الجالية العربية التي تم تأميمها بعد الاستقلال من قبَل نظام الجبهة الشعبية الحاكم في إرتيريا وتبديل اسمها إلى مدرسة الأمل، وأُلغيت منها المواد الشرعية!! بينما ما زالت مدرسة الضياء في أسمرا تؤدي دورها حتى هذا اليوم.

وبالرغم من العقبات الذاتية والخارجية التي واجهت التعليم الإسلامي في إرتيريا إلا أنه يمكن إجمال أبرز الثمار التي أثمرها في النقاط الآتية:

١ - إيجاد نخبة من المعلمين الذين يواصلون مسيرة التعليم الإسلامي في إرتيريا.

٢ - إعداد بعض القضاة الشرعيين (في الأحوال الشخصية).

٣ - تكوين مجموعة من أئمة المساجد والخطباء والدعاة.

٤ - إبراز مجموعة من الغيورين الذين يتحملون عبء الشؤون الإسلامية العامة كلجان الأوقاف وغيرها.

٥ - تهيئة أعداد جيدة من الطلاب يمكنها الالتحاق بالجامعات العربية والإسلامية.

٦ - الإسهام في حفظ الهوية الإسلامية للشعب الإرتيري المسلم.

واقع التعليم الإسلامي بعد الاستقلال:

لم يمر بالتعليم الإسلامي في إرتيريا وضع أسوأ مما يمر به الآن بعد الاستقلال تحت حكم نظام الجبهة الشعبية الجائر؛ فقد أسفر هذا النظام عن وجهه الصليبي من خلال تعامله مع المؤسسات الإسلامية وفي مقدمتها مؤسسات التعليم الإسلامي، وقام بإجراءات لم يسبق أن تجرأ أي

محتل على القيام بها ، مما أدى إلى تقلص عدد المعاهد والدارسين فيها إلى أدنى من الربع مما كان عليه قبل الاستقلال ، ومن أهم الخطوات التي قام بها هذا النظام لاختزال دور المعاهد الدينية والمدارس الإسلامية ما يلي :

١ - الزج بالدعاة ومعلمي المعاهد الدينية في غياهب السجون.

٢ - إغلاق بعض المعاهد بحجة عدم أهمية ما تقدمه في التنمية البشرية ، وغيرها من الحجج الواهية من أجل تجفيف منابع الصحوة الإسلامية ، وإبعاد المسلمين عن التمسك بالدين الإسلامي ، وعزلهم عن الثقافة الإسلامية والعربية .

٣ - سن قانون يمنع المؤسسات الإرتيرية أياً كانت من تلقي المعونات الخارجية ، إلا عبر الحكومة القائمة ، وكانت المؤسسات الإغاثية والتعليمية الإسلامية هي المستهدفة من إصدار هذا القانون.

٤ - عدم الاعتراف بالشهادة التي تصدرها هذه المعاهد ، أو التعاون معها بأي شكل من الأشكال ، ومعاملة الطلاب الذين يدرسون فيها معاملة العاطلين عن العمل والدراسة ، فيكونون عرضة للتجنيد الإجباري أكثر من غيرهم.

فالمعاهد القليلة المتبقية الآن تعد معاهد صورية ؛ وذلك لأنه تم إفراغها من المعلمين الأكفياء ، وقلَّ عدد الطلاب الذين يدرسون فيها مقارنة بما كان عليه الحال قبل سيطرة الجبهة الشعبية على حكم البلاد والعباد ، ولعل الكتاتيب هي الوحيدة التي لم يستهدفها النظام الحاكم مباشرة ، ولكنها هي أيضاً تحت المراقبة والمتابعة الشديدة ، وقد يكون السبب في عدم تعرضها للإغلاق استهانة النظام بدورها ؛ لأنها في الغالب لا تعلِّم غير القرآن ، ولا يدرك الصبي معاني كلمات القرآن التي يقرؤها ، ويبدو أن النظام يسير وفق تخطيط مرحلي وأسلوب خبيث ماكر ؛ بحيث تكون البداية المعاهد ، وما هي إلا فترة زمنية محدودة ويأتي الدور على الكتاتيب أيضاً ، وهذا ما تشير إليه الدلائل في بعض مناطق إرتيريا ؛ حيث عمد النظام إلى اختطاف معلمي بعض الكتاتيب وسجنهم بحجج مختلفة حتى تبقى الخلوة بدون معلم ، فتنتهي تلقائياً دون أن يأمر النظام بغلقها مباشرة.

التعليم الإسلامي في معسكرات المهاجرين الإرتيريين بالسودان:

كان المهاجرون الإرتيريون الذين فروا بدينهم وأبدانهم من نير الاحتلال الإثيوبي الصليبي في بداية الهجرة يلحقون أبناءهم بالكتاتيب والمدارس والمعاهد السودانية ، إلا أن أعدادهم أصبحت تزداد يوماً بعد يوم فكان لزاماً عليهم أن يؤسسوا مؤسسات تعليمية تعنى بالعلوم الإسلامية في المناطق التي خصصت لهم ، فأسسوا كتاتيبهم ومعاهدهم ومدارسهم بجهودهم الذاتية ، وكان أول معهد ديني يقام في وسط المهاجرين في منطقة ود الحليو في عام ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م ، وقد توالت بعد ذلك في مناطق أخرى بسبب الهجرة المتزايدة يوماً بعد يوم.

وهناك نوعان من الكتاتيب في مناطق المهاجرين : أحدهما : كتاتيب عادية تقام في وسط الأحياء يحضر إليها الصبي من منزله في الفترة الصباحية والمسائية ، وثانيهما : عبارة عن مراكز لتحفيظ القرآن تقام في وسط المعسكرات أو في مناطق نائية ، ويلتزم فيها الدارسون بالإقامة الداخلية في هذه المراكز غالباً ، ويتفرغون ليلاً ونهاراً لحفظ القرآن وتلقي بعض العلوم الشرعية ، وتعتمد هذه المراكز على تبرعات المحسنين من الداخل والخارج.

أما المعاهد الدينية فهي لا تختلف عن المعاهد التي في داخل إرتيريا القائمة على الجهود الخاصة.

وقد أسهمت بعض المؤسسات في توسيع قاعدة التعليم الإسلامي في مناطق المهاجرين ، وذلك مثل

جهاز التعليم الإرتيري الذي كان تابعاً لجبهة التحرير الإرتيرية قوات التحرير الشعبية، حيث كان يشرف على أربعة معاهد دينية، ويتحمل رواتب معلمي بعض الخلاوي القرآنية، بالإضافة إلى إقراره لمادة الدين في مدارسه التي كانت تبلغ ستاً وعشرين مدرسة، وذلك قبل استسلامه للنظام الحاكم في إرتيريا.

كما أسهمت بعض الجماعات والهيئات الخيرية في التعليم الإسلامي في تلك المناطق كجماعة أنصار السنة المحمدية بالسودان التي أسست مجموعة من المراكز والمعاهد في كل من مدينة كسلا وبعض معسكرات اللاجئين، وقد تخرج فيها عدد كبير من الإرتيريين تمكنوا من مواصلة دراساتهم الجامعية عبر منح دراسية في مختلف الجامعات الإسلامية في العالم الإسلامي، وهناك أيضاً مؤسسة الحرمين الخيرية في الآونة الأخيرة، وهيئة الأعمال الخيرية الإماراتية وهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية وغيرها من الجمعيات الأخرى، إلا أن أهم جمعية تقوم بالجهد الكبير في هذا الصدد في الفترة الحالية هي جمعية الإحسان الخيرية.

جمعية الإحسان الخيرية:

وهي جمعية خيرية إسلامية تعمل في مجال الدعوة والتعليم والإغاثة في أوساط المهاجرين الإرتيريين بشرق السودان وداخل إرتيريا، تأسست عام ١٤١٤هـ ومن أهم أهدافها نشر الإسلام، وتربية النشء على تعاليم الدين عبر إنشاء المؤسسات التعليمية المختلفة، ومن أجل تحقيق أهدافها هذه قسمت أعمالها إلى مجموعة من الشُّعَب أهمها شعبة التعليم التي تحوي قسمين:

- قسم التعليم المنظم: ويشرف على مدرسة ثانوية، وثلاث مدارس ابتدائية ومتوسطة أخرى، ومعهد لإعداد حفظة القرآن، وستة معاهد للبنات.

- قسم المراكز والخلاوي: ويشرف على ثلاثة وعشرين مركزاً لتحفيظ القرآن وتعليم بعض العلوم الشرعية، وقد خرَّجت هذه المراكز حوالي سبعمائة حافظ متقن، ولها أيضاً تسعة عشر مركزاً نسوياً بلغ عدد الحافظات اللواتي تخرجن فيها سبعين حافظة، كما يشرف هذا القسم على عدد من الخلاوي تربو على التسعين خلوة، ويبلغ مجموع الطلاب الذين تشرف عليهم الجمعية الآن حوالي ١٠٢٨٠ منهم ٤٨٦٠ طالبة، يقوم على تعليمهم وتربيتهم مجموعة خيرة من المعلمين والدعاة والمقرئين من خريجي الجامعات الإسلامية وغيرهم، وتكفل منهم الجمعية وحدها حوالي ٣٣٢ معلم وداعية ومقرئ.

وقد أثمرت هذه الجهود بفضل الله - تعالى - ثمرات عظيمة يلمسها كل من عايش وضع المهاجرين الإرتيريين في السودان منذ بداية هجرتهم حتى هذا اليوم؛ حيث ترسخت العقيدة الصحيحة في نفوس النشء، والشباب، وأصبحت الآثار واضحة في سلوك أفراد المجتمع الإرتيري المسلم المهاجر في السودان ومواقفهم.

ولم تتوقف جهود الجمعية على الجانب التعليمي فقط، بل تقوم بجهود دعوية، واجتماعية، ومشروعات خيرية متنوعة.

إلا أن هذه الجهود ما زالت معرضة للمخاطر نظراً لاعتمادها على الزكوات والهبات والمعونات غير الثابتة التي يتبرع بها المحسنون، والمؤسسات الخيرية التي لا تؤمّن لنفسها مصادر دخل ثابتة؛ فإنها معرضة في أي لحظة لانحصار نشاطها أو الانهيار تماماً - لا قدر الله - وهذا ما يدعو المرء لدعوة الغيورين من أبناء الأمة الإسلامية وبخاصة القادرين منهم على أن يسهموا بإسهمات كبيرة تجعل هذه المؤسسات تعتمد على مصادر ثابتة من خلال مشاريع استثمارية أو أوقاف ثابتة يستفاد من

يرصدها: حسن قطامش
qatamish100@hotmail.com

صور شيشانية

١ – قال أحد أبرز الجنرالات الروس الذين قادوا الحرب الشيشانية إن زوجة المقاتل الشيشاني وأطفاله يجب أن يقتلوا لأنهم قُطَّاع طرق أيضاً؛ وفي حديث إلى صحيفة نوفايا غازيتا ذكر فلاديمير شامانوف الذي قاد المحور الغربي في المرحلة الأولى، ويقود الآن قيادة الجيش ٥٨، أن قواته دمرت في مدينة الخان يورت منازل كان فيها ١٢ مقاتلاً و ٨ متعاونين معهم، ومن ضمنهم زوجات مقاتلين. إن على زوجة قاطع الطريق أن تهجره أو أن تعامل مثله وكذلك أولادها.

وبمنطق جنرالي قال شامانوف: إن قطاع الطرق المقاتلين الشيشانيين إما أن يفهموا أخلاقياتنا أو يبادوا. [جريدة الحياة، العدد: (١٣٦١٤)]

٢ – حدد الزعماء الشيشانيون تسعيرة بالدولار عن كل ضابط روسي أو جندي يتمكن المقاتلون من اصطياده ببنادقهم. وأكد مسؤولون روس أن مقاتلي الشيشان يتلقون مقابلاً مادياً يصل إلى ثمانية آلاف دولار أمريكي مقابل كل فرد من أفراد الجيش الروسي يلقى حتفه في الشيشان؛ ويبلغ المقابل المادي عن الضابط ٣٠٠ دولار أما عن الجنود الذين لا يحملون رتباً فيصل إلى ١٠٠ دولار. فيما يتراوح مقابل ضابط الأركان بالمقر الروسي في خانكالا من ٥ إلى ثمانية آلاف دولار. وأشار هؤلاء المسؤولون إلى أنه تم أيضاً تحديد المقابل النقدي عن حاملة الأفراد المدرعة التي تتعرض للقصف ألف دولار وعن سيارة الجيب ٥٠٠ دولار. [جريدة البيان الإماراتية، العدد: (٧٣٢٧)]

٣ – دعا الرئيس الروسي فلاديمير بوتين الأوروبين إلى مؤازرة موسكو في مواجهتها «أممية الأصوليين الإسلاميين» التي قال إنها تشكل «قوساً من الاضطرابات، يمتد من الفلبين إلى كوسوفا»؛ وأكد أنه لن يتراجع عن هدف تصفية بؤر الإرهاب، وقال إن النزاع المسلح في القوقاز تقف وراءه «أممية أصوليين إسلاميين»، وأشار إلى أنه يشكل خطراً بالغاً على أوروبا؛ حيث يوجد عدد كبير من المسلمين. ولام الأوروبيين؛ لأنهم تركوا روسيا وحدها في حين كان عليهم أن يشكرونا وينحنوا إجلالاً لكفاحنا ضد الإرهاب. [جريدة الحياة، العدد: (١٣٦٣١)]

٤ – أعلنت وزارة الخارجية الروسية أن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين وجه رسالة شخصية إلى الزعيم الليبي العقيد معمر القذافي تتعلق بالعلاقات بين بلديهما.

وقال البيان: إن موسكو وطرابلس بحثتا في مشاكل مكافحة الإرهاب الدولي، وأن ليبيا أكدت دعمها للعمليات التي

إنجاز عربي!!

أخيراً حقق العرب الاكتفاء الذاتي وأعلنوا الحرب على المستورد، بل يستعدون الآن لاقتحام الأسواق الخارجية، ويحتاطون من سرقة الخواجات لأفكارهم الألمعية!

ولكن قبل أن نقيم الأفراح والليالي الملاح، علينا أن نتذكر أن هذه القفزة التنموية الهائلة لم تحدث في صناعات الفضاء أو البرمجيات ـ والعياذ بالله ـ أو حتى يا أخي في مجال البونبون واللبان! نعم! فالإنجاز العربي يحدث هذه المرة على شبكة الإنترنت متمثلاً في تقديم أول موقع إباحي للجنس باللغة العربية للبالغين فقط! [مجلة الأهرام العربي، العدد: (١٧٢)]

لا دين في السياسة أيها العرب..!

انتقدت السلطة الفلسطينية فتوى مفتي الديار الفلسطينية الشيخ عكرمة صبري التي يحظر بموجبها على الفلسطينيين التنازل عن الحق بالعودة للاجئين أو القبول بالتعويض لمن لا يرغب في العودة. واعتبرتها تدخلاً في شؤون سياسية لا يحق له التدخل فيها.

وقال الطيب عبد الرحيم الأمين العام للرئاسة الفلسطينية: إن المفتي لا يحق له التدخل في هذه الأمور. وفي تصريحات صحافية أدلى بها قال عبد الرحيم: إن المفتي ليس زعيم فصيل سياسي أو حركة، لذا لا يحق له إصدار فتوى في قضايا سياسية. وطلب عبد الرحيم من المفتي عدم التدخل في تلك القضايا؛ وكان الشيخ عكرمة قد أصدر فتوى اعتبر فيها قبول التعويض عن الأرض الفلسطينية مثل بيعها وأن ذلك لا يجوز شرعاً. وشدد المفتي في فتواه على أن كل من يأخذ التعويض عن ممتلكاته إنما يرتكب أمراً حراماً. ونوه المفتي إلى أن الديار الفلسطينية ليست سلعة للبيع والشراء فهي وقفية مباركة مقدسة. واعتبرت الفتوى (حق العودة والتعويض) أمراً جائزاً شرعاً. وتؤكد الفتوى أنه من حق اللاجئ العودة لأرضه والمطالبة بالتعويض عن الأضرار والمعاناة والخسائر التي لحقت به وبأولاده وأحفاده، في حين اعتبرت الفتوى العبارة التي تقول: (حق العودة أو التعويض) لا تجوز شرعاً لأن التعويض عن الأرض محرم شرعاً. وخلصت الفتوى إلى القول إن الذي لا يرغب في العودة ليس له الحق بأخذ التعويض مهما كانت الأسباب ومهما كانت المسوّغات. من ناحية ثانية أصدرت هيئة العلماء والدعاة - ومقرها القدس - بياناً قالت فيه: «إن كل من يقبل التعويض عن أرضه يعتبر مرتداً وخارجاً عن جماعة المسلمين؛ فأرض الإسراء ليست موضع تنازل أو مساومة وليست سلعة للبيع والشراء»؛ من ناحية ثانية حذرت إسرائيل من خطورة تدخل المرجعيات الإسلامية في الجدل حول القدس. وقال إسحق ليفي الوزير المستقيل من حكومة إيهود باراك: إن مثل هذا التدخل يمهد الطريق أمام إضفاء مزيد من التطرف على مواقف الطرف الفلسطيني حول موضوع القدس؛ يذكر أن العديد من المرجعيات الدينية الرسمية والحزبية في إسرائيل قد أصدرت فتاوى تحظر بموجبها على المستوى السياسي إبداء أي تنازل في السيطرة الإسرائيلية على الأماكن المقدسة أو حتى على صعيد إخلاء مستوطنات يهودية في الضفة الغربية وقطاع غزة. [جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٩١١)]

المفضوحون!!

طلبت امرأة تدير شبكة كبرى لفتيات الهوى في تل أبيب من رئيس الكنيست الإسرائيلي «أبراهام بورغ» أن يتدخل لتسوية ديون مالية كبيرة واستحقاقات مترتبة عليها لمصلحة الضرائب في «إسرائيل» مهددة في الوقت ذاته بكشف أسماء سياسية بارزة ولامعة من بينها أسماء لأعضاء في الكنيست كانت قد قدمت لهم خدمات جنسية عن طريق الشبكة التي تديرها، وذلك في حالة عدم مساعدتها في التهرب من الضرائب الباهظة المترتبة عليها لحكومة الكيان الصهيوني؛ وتقول المرأة التي تحاول حالياً ابتزاز شخصيات سياسية وأعضاء في الكنيست من بينهم رئيسه أنها تملك وثائق تثبت تورط أعضاء في الكنيست وشخصيات أخرى بفضائح جنسية عبر شبكة الإنترنت، كما تؤكد المرأة أن بحوزتها أشرطة فيديو وصوراً ووثائق تثبت صحة ادعائها، وتقول المرأة إنها قدمت في السابق خدمات جنسية لأعضاء في الكنيست. [جريدة السبيل الأردنية، العدد: (٣٤٠)]

التهم المكررة

نفذت الصين حكم الإعدام على ستة من أفراد جماعة عرقية تقاتل للحصول على الاستقلال في شمال غرب البلاد، وأعدم الرجال الستة، وجميعهم من أقلية الإيغور المسلمة بعد محاكمة علنية أقيمت في عاصمة إقليم شينجيانج الصيني الذي تقطنه أغلبية مسلمة. وقالت الصحيفة شينجيانج الرسمية اليومية إن الرجال الستة أعضاء فيما سمته بمنظمة إسلامية «رجعية» قالت إنها تستهدف إقامة دولة مستقلة في الإقليم؛ وأضاف تقرير الصحيفة أن المحكمة وجهت إليهم اتهامات بالقتل وإحداث البلبلة في البلاد. وكان أحد الرجال الستة قد اعتقل وبحوزته أربعة أطنان من المواد الكيماوية التي يمكن استخدامها في صناعة متفجرات.

[موقع هيئة الإذاعة البريطانية على الإنترنت - http://bccarabic.com].



سلطة تحتاج إلى دعم!!

إثر ضغوط مكثفة مارسها مانحون من جهات عديدة على مدى بضع سنوات، كشف الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات أسراراً مالية مهمة تراوحت بين مدخرات بعشرات الملايين من الدولارات أودعت بصندوق للصرف على الرشاوى والدفع بسخاء لاسترضاء الموظفين، إلى فرض احتكار على صناعة الإسمنت وانتهاءاً بأسهم قيمتها ٦٠ مليون دولار في كازينو يدرُّ من الأرباح ما يفوق الوصف؛ وكانت الجهات المانحة بقيادة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي قد طالبت في مرات عديدة السلطة الفلسطينية بالكشف عن معاملاتها المالية بما في ذلك الموارد الضريبية المقدرة بعشرات الملايين والتي يتم تحويلها إلى حسابات سرية في البنوك الإسرائيلية ولا يسمح لأحد بالاطلاع على التفاصيل الخاصة بها إلا الرئيس عرفات والمقربين منه في أوساط المستشارين، ويستفاد من التقرير المالي للسلطة الفلسطينية الذي عرض في المقام الأول على مؤتمر للمانحين انعقد في العاصمة البرتغالية لشبونة أن نحو ٥٣٠ مليون دولار لم تدرج بالخزانة الفلسطينية في العام المالي ١٩٩٩م؛ وأعلن وزير التخطيط الفلسطيني نبيل شعث الذي ساهم بإعداد التقرير الأخير أن الرئيس عرفات امتنع لسنوات عديدة عن السماح بنشر أو تداول البيانات والمعلومات الخاصة بالحسابات السرية بحجة أنه يرغب في استثمارها؛ وقال المستشار الاقتصادي بمكتب الممثلية النرويجية في الضفة الغربية تريجر لارس «ما فعلته السلطة شيء إيجابي بكل المقاييس». [جريدة الاتحاد الإماراتية، العدد : (٩١٣١)]

«طوبى» لأبو قريع

أبو قريع هو رئيس البرلمان الفلسطيني والرجل الذي فاوض الصهاينة سراً في أوسلو، أبو قريع يمتلك مصنعاً للباطون وإنتاج مصنعه يذهب بالكامل إلى المستعمرات اليهودية، كشفت عن هذه الفضيحة الصحف الإسرائيلية؛ فقد ذكرت صحيفة إسرائيلية أن رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني أحمد قريع يقوم ببيع الباطون الجاهز إلى المقاولين الإسرائيليين العاملين في بناء المستوطنة الجديدة في ـ جبل أبو غنيم ـ في القدس المحتلة. وقالت أسبوعية ـ يروشلايم ـ التي أوردت ذلك في عددها الصادر الجمعة ٢٠٠٠/٧/٧م إن رئيس المجلس التشريعي أبو العلاء شريك في ملكية مصنع لإنتاج الباطون الجاهز ومواد البناء في أبو ديس يزود إنتاجه المقاولين اليهود في مستوطنة ـ هارحوما ـ التي تقوم إسرائيل بتشييدها على أراضي فلسطينية مصادرة في ـ جبل أبو غنيم ـ في الضواحي الجنوبية لمدينة القدس العربية المحتلة؛ وأشارت إلى أن ـ أبو العلاء ـ كان قد انضم قبل ثلاث سنوات كشريك في ملكية مصنع الباطون ومواد البناء العامل في بلدة أبو ديس مسقط رأس رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني ومكان إقامته وعائلته الحالي؛ وتستطرد الصحيفة أنها علمت أن مسؤولين كباراً في السلطة الفلسطينية عبروا عن غضبهم إزاء صلة الأعمال القائمة بين المصنع الفلسطيني وشركات البناء الإسرائيلية في مستوطنة ـ أبو غنيم ـ لكن مقربين من ـ أبو العلاء ـ يقولون حسب ما تنسب إليهم الصحيفة ذاتها أن الأمر لا يتعدى كونه مشروعاً وعملاً تجارياً بحتاً؛ ويضيف هؤلاء المقربون في تعقيب لهم أن المستوطنات اليهودية الواقعة خارج الخط الأخضر ـ أي ضمن أراضي الضفة الغربية ـ ستنتقل بطبيعة الحال عاجلاً أم آجلاً إلى السيطرة الفلسطينية، ولذلك فإن بيع مواد البناء للمقاولين اليهود في الأراضي الفلسطينية المحتلة لا يعد مساعدة لـ «إسرائيل» أو مساعدة في بناء المستوطنات في الضفة الغربية، ومن المعروف ـ حسب ما تضيف الصحيفة ـ أن المصنع ذاته في أبو ديس يورد إنتاجه أيضاً لمقاولين إسرائيليين يتولون تنفيذ مشاريع بناء في مستوطنة ـ معاليه أدوميم ـ المقامة في جزء منها على أراضي أبو ديس والعيزرية وفي مستوطنات يهودية أخرى في الضفة الغربية. وتقول الصحيفة إنها لم تتلق لغاية موعد إقفال عددها تعقيباً مباشراً من السيد أحمد قريع على ما تضمنه خبرها. [موقع جريدة (عرب تايمز) على الإنترنت ـ http://www.arabtimes.com]

ولومات الفقراء!!

أقر مجلس الشيوخ الأمريكي بسهولة مشروع ميزانية للإنفاق العسكري بقيمة ٢٨٨ مليار دولار تتضمن زيادة في الرواتب وتحسين الخدمات الصحية ودعم جهود تجنيد والاحتفاظ بقوات. ويزيد حجم الميزانية بنحو ٣,١ مليار دولار عما كان يسعى إليه الرئيس بيل كلينتون كما يزيد الإنفاق المالي لعام ٢٠٠١م بنحو ٢٠ مليار دولار عن العام الماضي. [جريدة البيان الإماراتية، العدد : (٧٣٠٢)]

نموت.. وتحيا العلمانية!!

في أثناء المرحلة الثانوية كنا في أثناء حصص الرياضة نرتدي الشورت ولم تكن هناك أي مشكلة.. ولكن بدأت تظهر المشاكل حينما بدأت التيارات الرجعية تتوسع شيئاً فشيئاً فارضة نفسها وتريد أن تفرض طابعها الديني وهذا ما لا نقبله؛ إننا دولة علمانية، وأنا فخور بكون تركيا الدولة العلمانية الوحيدة في العالم الإسلامي ولولا العلمانية لما كانت دولة كبيرة. نحن دولة حقوق والجميع بها متساوٍ ولا يمكن أن تحتكر القلة الدين لتطبقه بالطريقة التي تريدها، وأنا مع عدم ارتداء الحجاب في أماكن العمل والجامعات لأنه هنا له مدلول سياسي!! فالدول الأوروبية - واذكر هنا ألمانيا وفرنسا - تمنع وجود الطالبات في مدارسها بالحجاب لأنه ببساطة ضد تقاليدها العلمانية هذه هي الحال في أوروبا فكيف تكون في تركيا؟!

ومن وجهة نظري المشكلة في تركيا أو الدول الإسلامية ليست في الدين وإنما في المؤسسة الدينية؛ فرجالها غير متعلمين، وأذهانهم مقفولة أمام كل شيء، إنني على يقين من أن الإسلام هو الأفضل لحياتنا. ومهمتنا هي الدفاع عنه ضد هؤلاء الذين يريدون الحجر علينا وعلى عقولنا باسم الدين وكأنهم أوصياء علينا نفعل كذا ولا نفعل كذا. إنهم يريدون أن نغلق عقولنا وألا نفكر. إنني أقول وبكل صراحة: لا قدسية لكلام رجال الدين.

[جول سراي، نائبة في البرلمان التركي ومرشحة رئاسة التي تنازلت للرئيس نجدت سيزر، مجلة الأهرام العربي، العدد: (١٧٢)]

وليمة يمنية!!

إذا كان المكفرون في مصر قد كفروا أعشاب البحر فإن المكفرين في اليمن يكفرون براً وبحراً وجواً، إذا كان أولئك يكفرون الأحياء فإن هؤلاء يكفرون الموتى. ويطلقون كاتيوشا التكفير على السمك في الماء وعلى النوارس في السماء، وعلى الوعول والغزلان في البر.. يكفرون كل الأعشاب بالأخضر منها واليابس. باستثناء عشب القات؛ لقد راح المكفرون في اليمن يجارون المكفرين المصريين ويبحثونَ لهم عن وليمة على غرار «وليمة لأعشاب البحر» وكان أن وجدوا ضالتهم في رواية الأديب محمد عبد الولي «صنعاء مدينة مفتوحة» التي فتحت شهية التكفير لديهم؛ وحقيقة فإن «وليمة لأعشاب البحر» وليمة حية ودسمة فالكاتب «حيدر حيدر» حي يعيش واللحم طازج وطري ومشبع بالدسم.. أما وليمة (صنعاء مدينة مفتوحة). فهي وليمة صغيرة وبائسة. لا لحم فيها ولا دم ولا دسم. فصاحب الرواية مات قبل أكثر من ربع قرن بحادث طائرة.. لكن المكفرين هنا قد تحلقوا حول وليمتهم وراحوا يرقصون ويدقون الطبول مثلهم مثل أكلة لحوم الموتى. هكذا ليس المصريون وحدهم يمتلكون سلاح التكفير. نحن أيضاً في اليمن نمتلك مثل هذا السلاح مع الفرق هو أن المكفرين في مصر يشهرون سلاح التكفير ضد التفكير، أما عندنا فيوجد تكفير من غير تفكير.. يوجد مكفرون من دون مفكرين.. لهذا السبب ولأن اليمن يعاني من ندرة المفكرين لجأ المكفرون إلى تكفير الموتى.. وصار شعارهم: أنا أكفّر إذن أنا موجود؛ إنهم يكفرون ليثبتوا وجودهم، وليؤكدوا بأنهم قوة لها ثقلها في الشارع. وهم إن لم يجدوا شخصاً يستحق التكفير كفر بعضهم بعضاً. وكفروا كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهم يعتقدون أن كل كاتب - أديب وشاعر - كافر حتى يثبت براءته ويعلن توبته!!

[الكاتب اليمني، عبد الكريم الرازحي، مجلة المجلة، العدد: (١٠٦٧)]

في النهاية.. كلب!!

بيعت الفيلا الفاخرة التي تملكها المغنية مادونا في ميامي بـ ٧,٥ ملايين دولار إلى غونتر الرابع أغنى كلب في العالم؛ وذكرت الصحف المحلية أن الشركة التي تتولى إدارة ثروة الكلب المذكور أنجزت الصفقة وبات في إمكانه الاسترخاء في الفيلا البالغة مساحتها ٧٨٠ متراً مربعاً؛ وقد ورث غونتر الرابع ثروته من والده غونتر الثالث الذي كان عزيزاً جداً على قلب صاحبته الكونتيسة الألمانية الراحلة كارلوتا ليبنشتاين التي تخلت له عن كل ثروتها البالغة ٦٥ مليون دولار قبل وفاتها في ١٩٩٢م، وتبلغ ثروة غونتر اليوم ٢٠٠ مليون دولار.

[جريدة الأنباء، العدد: (٨٦٧٩)]

تعليق على الأحداث

غانديهم وقرآننا!!

نشبت مشكلة قضائية في الهند بسبب عرض للأزياء ظهرت خلاله إحدى العارضات وهي تقدم رداءاً يحمل صورة للمهاتما غاندي، وقد انتقدت محكمة هندية الشركة المنظمة للعرض وقالت: إن هذا الزي الذي حمل على خلفيته صورة المهاتما غاندي كان بمثابة إهانة لسيرة الزعيم الهندي، كما طالبت منظميه ورئيس الشرطة المحلية بالاعتذار رسمياً للأمة. ويعد المهاتما غاندي الأب الروحي للهند كما تتمتع صوره بمكانة خاصة في جميع أنحاء الهند؛ حيث يهب كثيرون للذود عنها في حال تعرضها لأي انتهاك؛ وكان عرض الأزياء الذي تسبب في الجدل قد نظم في مدينة جايبور بشمال الهند وأدى ظهور العارضة خلاله وعلى ظهرها صورة المهاتما لإثارة غضب كثيرين من أتباع عقيدة غاندي الذين اعتبروا الأمر حطاً من كرامته، وطالبوا بتحرك قضائي ضد منظميه، وقد طالب قاضي المحكمة كلاً من الشركة المنظمة وقائد الشرطة في المدينة ـ الذي كان ضمن حضور العرض ـ بالاعتذار للأمة قبل نظر القضية رسمياً.

عندما قرأت هذا الخبر، ورأيت حجم الضجة التي حدثت بسببه في الهند، تذكرت كذلك خبراً آخر نشر صغيراً جداً وجانبياً جداً في بعض صحفنا العربية، يذكر الخبر أن شاباً عربياً وخطيبته دخلا عرضاً للأزياء في إسرائيل، وأنه وجد أثناء العرض أن الخلفية الموسيقية للعرض هي آيات قرآنية تتلى وكان ذلك تحديداً عندما خرجت عارضة أزياء بملابس داخلية فاحشة، وهكذا مر الخبر سريعاً دون اتهام أو دون إثارة. ويبدو أن الأمة تبلدت أحاسيسها حتى مع قرآن ربها، أما الهندوس، فمع زعيمهم يقيمون الدنيا ولا يقعدونها، فيا لخيبة أمة يهان كلام ربها ولا تتحرك!

ما زالت المأساة مستمرة

في واحدة من أهم مآسي المسلمين في العصر الحاضر، لا زالت مشكلة مسلمي بورما في تزايد مستمر. وفي تجاهل مستمر، ولم نعد نسمع من المنظمات الإغاثية شيئاً عن نجدتهم ولا طلب مساعدتهم برغم استمرار المأساة وشدتها على المسلمين هناك، فقد تواصلت الانتهاكات الخطيرة في حق السكان المسلمين من البورميين على يد القوات الحكومية البوذية؛ حيث لا زالوا يحرمون من أبسط حقوقهم من مثل الحرية في الاعتقاد والسفر. فالسفر ممنوع من قرية إلى قرية إلا برخصة من قوات الجيش؛ والتجنيد إجباري للجنسين مما يعني تعرض أعراض المسلمات للانتهاكات والتجاوزات والاعتقال التعسفي والهمجي في حق المسلمين متواصل؛ إذ يُغار على بيوتهم ليلاً ونهاراً ويُؤخذون إلى المعتقلات من دون توجيه التهم إليهم؛ ويحظر عليهم بناء المساجد والمدارس الدينية إلا برخص يصعب الحصول عليها، وصودرت منهم مزارعهم وأراضيهم وهجروا إلى مناطق وعرة وغير صالحة للزراعة؛ وتتزامن هذه الانتهاكات والتجاوزات مع قيام القوات البنغالية في بنجلاديش بطرد وإعادة الآلاف من المهاجرين البورميين إلى بيوتهم بدعوة أن عقود الإقامة لديهم انتهت، وأن الأمم المتحدة لم تعد تتحمل مسؤولياتها تجاههم، وهذا التهجير الإجباري يعرض هؤلاء المهجرين إلى مخاطر جمة منها تلفيق التهم لهم بأنهم يتعاونون مع المقاتلين البورميين ومدهم بالعون والمدد مما يعرض حياتهم للخطر الحقيقي؛ ومع الأسف فإن المحنة التي يتعرض لها الشعب المسلم في بورما لم تلق إلى اليوم الاهتمام المطلوب من كشف الجرائم البوذية ضد المسلمين في هذه البقعة من العالم وتقديم المساعدات الإنسانية اللازمة لهم.

بين اليهود والهندوس

تتطور العلاقات الهندية الإسرائيلية بشكل لافت في الفترة الأخيرة، ويتركز تمحور هذه العلاقة على اتفاق أكيد على محاربة «الإرهاب الإسلامي» فقد قام وزير الداخلية الهندي «لال كيرشنا ادفاني» ووزير الخارجية «جاسوال

سينج» بزيارات متتابعة لـ «إسرائيل» نتج عنها تشكيل لجان وزارية مشتركة لإقامة سلسلة من النشاطات التعاونية والتدابير التي تتعلق بمواجهة الإرهاب، كما اتفقت الحكومة الهندية مع إحدى المؤسسات الإسرائيلية لشراء آلات حساسة ونصبها حول معسكراتها لحمايتها من الحملات المفاجئة للمجاهدين الكشميريين. والتعاون بين الدولتين البوذية واليهودية قديم ومتجدد ومتطور، إلا أن الذي ينبغي متابعته والانتباه إليه هو تطور هذا الاتفاق وأثره على المسلمين والحركة الجهادية، وكان أبرز هذه التطورات السلبية هو نقل ٥٠٠ يهودي هندي من قبيلة شينلانج التي تقيم قرب الحدود مع بنجلاديش، وقد تم نقلهم بالفعل إلى الكيان الصهيوني وينتظر الآلاف دورهم للحاق بإخوانهم.

النزيف الدامي

ما زالت المآسي تتكرر بصورة مستنسخة، الأولى كالثانية والأخيرة كالتي سبقتها، وما زال المسلمون هم الوقود الأرخص لمحارق الحقد اليهودي أو النصراني أو البوذي، وإن كانت بلاد المسلمين تملك أغلى أسعار الوقود السائل، الخام منه والمكرر، إلا أن ذلك لم يمكنهم من الحفاظ على إخوانهم من أن يكونوا وقوداً حياً لمحارق هنا وهناك.

وفي الجمهورية التي تنهار شيئاً فشيئاً، تظهر إندونيسيا أندلس جديدة، والعجب أن المرء يظن أن أكبر دولة إسلامية من حيث عدد السكان من المفترض أن يكون مسلموها ـ وهم الأغلبية ـ في أمان مثل جميع الأغلبيات، إلا أن الوضع كان مختلفاً تماماً؛ فها هم مسلمو إحدى المناطق الإندونيسية «جزر ملوكو» أو جزر الملوك، أو جزر البهار يلاقون الأهوال على أيدي النصارى هناك، ووصل عدد القتلى عشرات الآلاف في مجازر بشعة.

فبمناسبة الاحتفال بالسنة الجديدة وبميلاد المسيح ـ عليه السلام ـ اجتمع بعاصمة جزر الملوك نحو ٣٠ ألف مسيحي وهم يرفعون الأعلام الخاصة بمنطقتهم والشعارات الداعية إلى الانفصال والمعادية للإسلام والمسلمين وكان منها: «نعم لعيسى [عليه السلام] ولا لمحمد [ﷺ]».

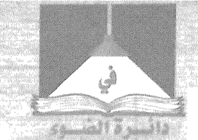
ومن حينها نظموا تظاهرات تطالب بالاستقلال وتطهير جزيرتهم من الغزاة الأجانب ويقصدون بهم المسلمين والبوذيين؛ وقام المتظاهرون المسلحون بالقنابل والبنادق والسيوف والخناجر بالهجوم على بيوت المسلمين ومحلاتهم ومطاردتهم في الشوارع والمرافق العامة، ثم القيام بإطلاق النار عليهم أو بذبحهم بالسيوف والخناجر، ونظموا مجموعات من القناصة فوق الأسطح والبيوت، وتنافسوا فيما بينهم أيهم يصيب الهدف. وكان ضحاياهم على قيد الحياة وكانوا يجهزون عليهم من دون رحمة ولا شفقة؛ وكانت هذه الجماعات المتعصبة تحت قيادة مجموعة من الرهبان والقساوسة التي كانت تلهب المشاعر وتحرضهم على تطهير الأرض من نجس المسلمين.

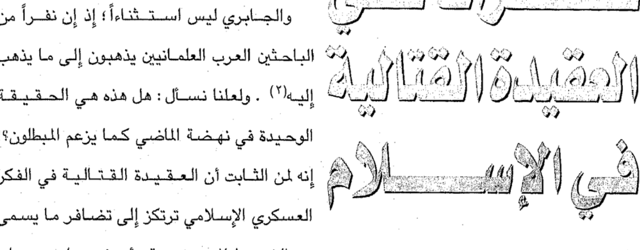
وتتحدث المصادر الواردة من المنطقة أنه ألقي القبض على أحد أئمة المساجد داخل مسجده وأطلقوا عليه النار فقتلوه، ولما علموا أنه دفن على أيدي المسلمين أخرجوا جثته من القبر وأضرموا فيه النيران.

وقاموا كذلك بتلطيخ المساجد بلحوم الخنازير ودمائها، وكتبوا على جدرانها بدم الخنازير شعارات تطالب بطرد المسلمين وإبادتهم؛ ويصف أحد الناجين من المذابح صورة من المشاهد المروعة فيقول: «تم القبض على جيرانه القرويين وسيقوا نحو المسجد. وكيف انتزع المهاجمون عدداً من الأطفال الرضع وأخذوا يلقون بهم في الهواء، ويستقبلون أجسادهم الغضة على أطراف سيوفهم، ثم انتقوا عشوائياً مجموعة من الأطفال وقيدوهم وشنقوهم واستخدموا أجسادهم المعلقة كأهداف يتدربون عبرها على الرماية بالسهام، أم البالغون، فكانوا يمثلون بهم أحياءً قبل أن يقتلوهم، وكانوا يقولون للواحد منهم بلهجة ساخرة: «عفواً سامحني، أريد أذنيك، أو أنفك، إلخ، ثم يقطعون أعضاءه ببساطة هكذا»!

وإن كان حكم سوهارتو قد نجح في رفع درجة الفقر في أوساط مسلمي إندونيسيا، فيبدو أن ذلك لم يكن كافياً في السيطرة على المسلمين، فكانت السياسة الجديدة هي القضاء عليهم وفي عهد إمام العلماء المسلمين «وحيد».

[يمكن مراجعة صور من مآسي المسلمين في جزر الملوك بزيارة الموقع الآتي ـ www.gemakhadijah.cjb.net].





نظرات في العقيدة القتالية في الإسلام

محمود سلطان

في كتابه «إشكاليات الفكر العربي المعاصر» يشير الباحث المغربي محمد عابد الجابري، إلى أن «النهضة العربية الأولى التي انطلقت بظهور الإسلام، لتفتح البلدان المجاورة، ولتشييد حضارة عربية إسلامية متميزة، إنما قامت بعد أن استنزفت الحرب الطويلة كلاً من دولة الفرس، ودولة الروم»!! أو لسبب آخر هو ما أسماه الجابري بوجود «ما يشبه الفراغ السياسي في المنطقة»[١]. والجابري إذ يؤكد على ذلك فإنه يرفض أن تكون لمنظومة القيم الإيمانية التي أصَّلها الإسلام في وجدان المقاتلين دوراً في الفتوح الإسلامية.

والجابري ليس استثناءاً؛ إذ إن نفراً من الباحثين العرب العلمانيين يذهبون إلى ما يذهب إليه[٢]. ولعلنا نسأل: هل هذه هي الحقيقة الوحيدة في نهضة الماضي كما يزعم المبطلون؟! إنه لمن الثابت أن العقيدة القتالية في الفكر العسكري الإسلامي ترتكز إلى تضافر ما يسمى بـ «الشروط الموضوعية» أي فهم واستيعاب أبعاد الواقع «الجيو ـ سياسي» الذي ستدار المعركة في كنفه مع «الشروط العقائدية»، أي المخزون الإيماني المتجذر في الوجدان الجمعي للأمة، والذي يجعله الإسلام العامل الأكثر حسماً في توجيه مسار الحرب إما نحو النصر، وإما نحو الهزيمة.

ولئن كان الخطاب القرآني يعلي من شأن الشرط الموضوعي: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وكذلك كان النبي ﷺ القائد مؤصلاً لهذا المفهوم على الصعيدين

(١) محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، يونيو ١٩٨٩، ص ٢٤، ٢٥.

(٢) يقول د. عبد المنعم ماجد إنه «لا يوافق بعض المستشرقين في قولهم إن العرب كانوا مدفوعين نحو الفتوح بالحماس الديني، فمن غير المعقول أن يخرج البدوي ـ وهو لا يهتم بالدين ـ لنشر الإسلام» انظر كتابه التاريخ السياسي للدولة العربية، الطبعة الرابعة، الأنجلو

السياسي والعسكري حين أبرم عقود البيعة «بيعة العقبة» وعقود الصلح «صلح الحديبية»، وفاوض قادة «غطفان» و «نجد» في غزوة الأحزاب، واختار موقع نزول الجيش يوم «بدر» بعد إعمال أساليب استثمار الخصائص البيئية والجغرافية للموقع عسكرياً، امتثالاً لقوله ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»[1]، بل إن كتب السيرة تذكر أن النبي ﷺ قام بعمليات جمع وتحليل المعلومات عن العدو؛ إذ استجوب ﷺ غلامين من «سقاة قريش» أسرهما نفر من أصحابه كانوا يلتمسون الخبر له عند ماء بدر، ويسجل ابن هشام الاستجواب على النحو الآتي: قال لهما النبي ﷺ: «كم القوم؟» قالا: كثير، قال: «ما عدتهم»؟ قالا: لا ندري، قال: «كم ينحرون كل ليلة؟»، قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً»، قال النبي ﷺ: «القوم فيما بين التسع مئة والألف»[2]، ونحو ذلك من الوقائع التي تعكس إعلاء الخطاب السياسي الإسلامي في عهد النبوة من قيمة «الاعتبارات الموضوعية» المؤثرة في حاضر ومستقبل الجماعة المسلمة، ولئن كان الأمر كذلك، فإنه في الوقت نفسه، يرفض الاعتقاد بأنها «المعيار» المطلق، أو «القيمة» المثلى التي يستند إليها في استشراف ما ستؤول إليه الأوضاع بعد أن تضع الحرب أوزارها.

والتراث العسكري الإسلامي يحتفظ لنا بتجربتين تعكسان فساد الرؤية المرتكزة على «الأرقام» والحسابات «العقلية» وحسب في تأطير مقومات النصر من جهة، وأسباب الهزيمة من جهة أخرى: الأولى «يوم بدر»؛ إذ كان المسلمون كما وصفهم القرآن - آنذاك - «أذلة» في إشارة إلى ضعف العدد والعدة والحصار الحديدي الذي فرضته قريش سياسياً وعسكرياً واقتصادياً على المسلمين والمدعوم بحقد وكراهية القبائل الأخرى المنتشرة بطول الجزيرة العربية وعرضها، ومع ذلك كان النصر حليف هذه الفئة المستضعفة: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، والثانية «يوم حنين» إذ كان التفوق العسكري لصالح المسلمين «اثني عشر ألف مقاتل» والمدعوم بصعود معنوي هائل بلغ الذروة إثر فتح مكة وإخضاع «قريش» - القوة

---

(١) انظر: مرويات غزوة بدر، ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) راجع ابن هشام، ج ٢، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٠م، بيروت، ص ٢٥٩، ٣٦٠.

العسكرية الرئيسة في الجزيرة ـ لسلطة الدولة الإسلامية الوليدة، ورغم ذلك لحقت بهم الهزيمة في بادئ الأمر: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

ومن هنا فإن العقل العسكري الإسلامي شديد الخصوصية والتميز عن نظيره المصاغ وفق معايير ونظم مادية إلحادية محضة؛ إذ إن الأول ينزع إلى رفض الانصياع الكامل لسلطة التفوق العسكري بوصفه شرطاً ينفرد وحده في توجيه مسار الحرب؛ إذ إنه يؤمن بأن إلحاق الهزيمة بالعدو ليس مناطاً بالفلسفة الكمية وحدها، ولكنه مناط بربط الأخيرة بهذا الثابت القرآني الخالد: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. فهو يجمع بين ما هو موضوعي «التوظيف الاستراتيجي للواقع» وما هو إيماني في عقيدته القتالية، وهو ما يفسر انتصاراته الساحقة والمتلاحقة حتى وإن كان يتبوأ موقع «الاستضعاف» وعدوه يتبوأ موقع «التمكين» ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ [الأنفال: ٢٦]، والتأييد من قِبَل الله مرهون باستيفاء ما أشار إليه القرآن والسنة المطهرة من شروط، والتي يمكن إجمالها في أن تستقي الحرب مشروعيتها من إعلاء كلمة الله، وإخلاص النية في ذلك، وفق الضوابط الأخلاقية التي أصَّلها الإسلام فيما يمكن تسميته بـ «فقه الحرب».

والتأييد يأتي في شكل قانون من نمط آخر يتعالى على ما هو مألوف في حياة البشر من قوانين يفكك الثابت من النقائض، ويعكس ما تشير إليه من دلالات وهي على حالها، معلناً أكذوبة عبادة «القوة» أو عبادة «الآلة» العسكرية أو أنها تكفل وحدها إحراز النصر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤].

ولذلك كان المفكر الفرنسي «روجيه جارودي» وقبل أن يشهر إسلامه شديد الوعي بهذه التجربة العسكرية ـ الإيمانية الفريدة؛ إذ نجده يقول: «إن انتشار الإسلام لا يشابهه أي انتشار سبقه أو أتى بعده، من غزوات كانت يقوم بها بدو آسيا، وكذلك من احتلال قام به الأوروبيون لغزو البلاد الضعيفة بالمدفع والبندقية والرشاش، فلم تكن الجزيرة العربية آهلة بالسكان، ولم يمتلك العرب مثل ما كان في

بلاد فارس أو بيزنطة من الأسلحة والتقنيات العسكرية؛ فالإمبراطورية الإسلامية إذاً لم تقم على مبدأ القوة الذي يمنحها تفوقاً عسكرياً ساحقاً، ولا يمكن فضلاً على ذلك تطبيق أي من النظريات ذات المنحى الماركسي الضيق والموجز التي تحاول أن تبحث عن سبب التاريخ وثوراته وتحولاته قياساً على التقنيات والعلاقات الاقتصادية وصراعات الطبقات التي تنشأ عنها»[١].

ثم يقر جارودي بما سبق أن أشرنا إليه حين يقول: «إن هذا التوسع الإسلامي السريع، والذي أدى غداة وفاة النبي ﷺ خلال اثني عشر عاماً - من عام ٦٣٣ ميلادية حتى عام ٦٤٥ ميلادية - إلى تثبيت تفوق المسلمين في فلسطين وسوريا وما بين النهرين ومصر، وهو انتشار لم يستطع إيقافه إلا العوائق الطبيعية فقط كسلاسل الجبال في آسيا الوسطى وفي إيران الشرقية وصحارى سيرتيابيك والنوبة. إن سبب هذا الانتشار السريع يرجع إلى أسباب داخلية مرتبطة بجوهر الإسلام نفسه ولا يمكن تفسيره بأسباب خارجية أو حتى بضعف أو تفكك الإمبراطوريات المهزومة مثل الرومانية في الشرق، والفارسية وقبائل القوط الجنوبية في آسيا الوسطى ولا حتى لأسباب عسكرية فقط»[٢].

ومن ثم فإن محاولات «مركسة» التاريخ الإسلامي (التفسير الطبقي للفتوح) أو علمنته «تهميش الدور الطليعي للدين في نهضة الماضي» إنما ينطلق عن وعي يفتقر إلى الحس التاريخي الناضج القادر على سبر غور الحقائق التاريخية أنها رؤى تتخذ من «الظاهر» فقط مادتها التحليلية. وصدق الله - تعالى - حيث يقول: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

---

(١) روجيه جارودي، الإسلام دين المستقبل، ترجمة عبد المجيد بارودي، دار الإيمان للطباعة والنشر، بيروت، دمشق، ب. ت، ص ٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٠، ٤١.

بين طب الأدلة وفقه الأدلة

د. أيمن بن أسعد عبده

في السنوات العشر الماضية، حدث تطور كبير وهام في طريقة التفكير الطبي وحل المشكلات الطبية. ويتمثل هذا التطور في التحول التدريجي من الطب المبني على الخبرة والتجربة إلى الطب المبني على الأدلة والنتائج المستخلصة من البحث العلمي.

وقد بدأ هذا المنهج الجديد في الانتشار نتيجة لإدراك بعض العلماء والأطباء أن كثيراً مما كان يعتقد أنه ثوابت طبية وحقائق علمية لا تقبل الجدل هي في الحقيقة افتراضات متوارثة لم تثبت بالدليل العلمي القوي، ولم تخضع للأبحاث العلمية المقننة. وبناءاً على ذلك تم إخضاع كثير من المسلّمات في الموروث الطبي إلى هذه المقاييس، فثبت بعضها، وتبين خطأ بعضها الآخر. وبعد ذلك لم يعد يقبل من أحد أي ادعاء دون أن يكون مدعماً بالدراسات القوية المؤيدة لصحته؛ فتكون قوة الادعاء وضعفه مرتبطة بقوة الأدلة المصاحبة وضعفها.

وصار هذا المنهج هو حديث الوسط الطبي الأكاديمي، وصارت المهارات اللازمة لممارسة هذا النوع من التفكير الطبي جزءاً أساسياً في التعليم الطبي لطلاب كليات الطب الغربية والأطباء المتدربين.

وأحسب أن لانتشار هذا النوع من التفكير أسباباً عديدة لعل من أهمها انسجامه مع المنهج التجريبي الاستقرائي الذي سيطر على الفكر الغربي بشكل عام، والذي يُخضِع كل شيء للبرهان المنطقي أو العلمي.

وكلما تأملت هذا النوع من الطب ودرسته ومارسته وجدته امتداداً للتفكير العلمي الإسلامي الذي وُضِعت أصوله، ومورس في شتى مجالات العلوم الشرعية منذ أكثر من عشرة قرون. يبدو ذلك جلياً في مناهج الأصوليين والفقهاء وعلماء المصطلح وغير ذلك من العلوم الشرعية. وفي هذه المقالة أسجل على عجل بعض النقاط الهامة التي تبين التشابه بين الفكر الطبي المبني على الأدلة وبين الفقه الإسلامي؛ وذلك عن طريق استعراض بعض القواعد الأساسية في طب الأدلة التي تستخدم الآن في التفكير الطبي الحديث، ومن ثم مقارنتها على عجل ببعض ما تقرر عند العلماء المسلمين الأوائل من القواعد الشرعية وأصول الاستدلال.

أولاً: كل قول يردُّ على صاحبه ما لم يكن مدعماً بالدليل العلمي:

هذا هو الأساس الذي بني عليه طب الأدلة؛ حيث إن أي رأي أو دعوى علمية لا تمثل سوى رأي شخصي فحسب ما لم تكن مدعومة ومؤيدة بالدليل العلمي. ومن الطريف أنه في السابق كانت عوامل

أخرى مثل طول الخبرة والسن والجنسية تمثل العوامل المحددة لقبول الأقوال والآراء، فكان الاستشاري الأكبر سناً أو الأقدم خبرة يفتي في كل مرض، فيقنن ويصنف ويصحح ويخطِّئ، ولا يستطيع أحد مناقشته أو الرد عليه، ويعد قوله في نفسه دليلاً. أما الآن فإن أصغر الجالسين سناً وأقلهم خبرة بوسعه أن يطلب بأدب - أو بغير أدب - من هذا الطبيب دليلاً علمياً يؤيد قوله ويناقشه في دليله بشكل علمي موضوعي، فإن لم يكن للقول دليل يستند إليه رد على صاحبه كائناً من كان. كما أن بوسع طالب الطب الصغير أن يرد كلام الأكبر منه خبرة وسناً إذا توصل إلى دراسة أو بحث علمي قوي يؤيد قوله.

وفي العلم الشرعي - وبخاصة في علم الفقه - فإن التشريع لا يكون إلا بالدليل الشرعي من الكتاب أو السنة أو الإجماع. قال الله - تعالى - : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. فكل قول في دين الله - تعالى - ينظر في دليله، فمتى ما وجد الدليل وصح أخذ بالقول وإلا اعتبر رأياً لا يمثل الشرع بالضرورة، وأما إذا خالف القول الدليل رد على صاحبه ولم يقبل. إن هذه القاعدة من أهم القواعد المعرفية في الدين الإسلامي.

ثانياً: عند التعارض بين الأقوال تقدر قوة القول على حسب قوة دليله:

فإذا تقرر أن كل قول يستمد شرعيته من دليله، فإنه يستمد قوته وضعفه من دليله. وقوة الدليل تتعلق بعناصر أساسية منها:

١ - نوع الدليل:

قسَّم علماء طب الأدلة الأدلة الطبية إلى مراتب ومستويات بحسب قوتها الدلالية، فاعتبروا أقوى الأدلة هي الدراسات المبنية على العينات العشوائية المعماة، تليها غير المعماة، ثم الدراسات الاستقرائية المستقبلية، ثم الرجعية، ثم الدراسات الوصفية. فعند تعارض الأقوال وتناقضها ينظر في أدلة كل قول، ويكون التفاضل بين الأقوال بحسب نوع الدليل المصاحب لها. ولقد تقرر في الفقه الإسلامي أن أقوى الأدلة هي الأدلة من القرآن الكريم الذي يقدم المحكَم فيه على المتشابه، وأدلة السنة الصحيحة، وفيها يقدم القول على الفعل، والقول على الإقرار، ثم الإجماع وتعتمد قوته على عصره ومن حكاه، ثم بالقياس، وعند التعارض تتفاضل الأدلة بهذه المقاييس الدقيقة.

٢ - صحة الدليل:

لا بد حتى يمكن الاستشهاد بالدليل من التأكد من مصداقيته وصحته. فلا بد من استيفاء الدراسة الطبية للشروط الأساسية للبحث العلمي، فوضعوا لكل نوع من الدراسات السابقة عناصر أساسية وعناصر ثانوية لا بد من استيفائها لقبول الدراسة. ويكون هذا عاملاً مهماً في قوة الدليل وضعفه. وبالمثل فإن صحة الدليل في الفقه الإسلامي شرط أساس لقبول الدليل. ولما كان القرآن محفوظاً بحفظ الله - عز وجل - وضع علماء المصطلح القواعد والضوابط التي تقاس بها صحة الأحاديث والمرويات عن الصحابة. وتمثل هذه النقطة سبباً مهماً لاختلاف الأقوال بين العلماء سواء في الطب أو الفقه؛ فعلى الرغم من الضوابط العلمية التي تحكم صحة الدراسات الطبية فإنها لا تزال تخضع لمدارس علمية مختلفة، وتعتمد على تمرس الناقد وخبرته في التعامل مع الدراسات الطبية. وكذلك الحال بالنسبة للفتاوى الشرعية؛ حيث يعتبر الاختلاف في ثبوت الدليل وصحته أحد أهم أسباب الاختلافات الفقهية.

٣ - مصدر الدليل:

هذه النقطة متعلقة بما سبق؛ فالدراسات

المنشورة في مجلات علمية معروفة يكون لها أفضلية على الأبحاث المنشورة في مجلات مغمورة. وكذلك إذا كان مصدر الدراسة مجموعة من الباحثين المعروفين في المجال ولهم باع طويل فيه، كان ذلك أدعى إلى قبول الدراسة بعد استيفاء شروط الصحة.

والقول في الفقه مرتبط أيضاً بمصدره؛ فالحديث في صحيح البخاري مثلاً يقدم على حديث معارض له عند الديلمي مثلاً، والفتوى الصادرة من أحد الأئمة الأربعة مثلاً ليست كالصادرة عمن دونهم وهكذا.

ثالثاً: تعتمد النتائج المستخلصة من الدليل على فهمه:

بعد أن تأكدنا من وجود الدراسة المؤيدة للقول، وكذلك من سلامة بناء الدراسة وقوة نوعها، صارت هذه الدراسة صالحة للاستدلال. وننتقل للخطوة التالية وهي فهم الدراسة لاستنباط النتيجة. ولهذه النقطة عناصر كثيرة أهمها:

١ - دقة الدليل في الدلالة على موقع الاستشهاد:

لا بد من التأكد من أن الدراسة المستخدمة دليل تدور حول نفس النقطة التي يستشهد لها بالدراسة. فلا بد أن تكون في نفس المرض، وتكون قد أجريت على مرضى مشابهين جداً للمريض المراد علاجه. وهذه النقطة هامة كذلك في الاستدلال الفقهي؛ إذ لا بد من التأكد من أن دلالة الدليل هي في نفس النقطة مناط البحث، وكلما كان الدليل أقرب وأكثر صراحة في الدلالة على المراد كلما كان الاستشهاد به أقوى.

٢ - قوة دلالة الدليل:

أهم العوامل المؤثرة في فهم الدليل وتطبيقه هو قوة دلالة الدليل؛ فالنتائج الرقمية للدراسة، وقوة نتائجها، تكسبها قوة أكبر، فلو ثبت أن علاجاً مّا فعل بنسبة ٩٠٪ فإنه يقدم على العلاج الذي فعاليته ٥٠٪ وهكذا. كما أن الدقة الإحصائية لهذا الأثر عامل آخر مهم في التأكد من مصداقية النتائج. وفي الفقه يهتم بالدلالات اللفظية للدليل لاستخلاص الأحكام الشرعية، وبحسب قوة الدلالات تكون قوة الأحكام المستخلصة. فالأصل في الأمر مثلاً أنه يقتضي الوجوب عند انتفاء الموانع، والمعاصي التي اقترن النهي عنها بالوعيد الشديد أو اللعن عدها العلماء من الكبائر، وكثير من الأحكام تتفاضل في فضلها بحسب تفاوت ثوابها وهكذا.

٣ - انتفاء موانع التعميم:

في هذه النقطة ينظر في عينة الدراسة، من حيث السن واللون والجنس والنشأة وغير ذلك للتأكد من أن هذه العينة المدروسة تمثل مجتمع المرضى المراد تطبيق نتائج الدراسة عليهم. فلا يمكن لنتائج دراسة أجريت على الأطفال أن تطبق على الكبار إلا أن يكون المرض لا يختلف بحسب العمر. وفي الفقه لا بد من التأكد من أن النص المستخدم تدخل ضمنه الحالة المراد استخلاص الحكم فيها، فلا تكون هناك قرينة توجب التخصيص، أو علة متعلقة بالحكم ينتفي بانتفائها.

٤ - استخلاص النتائج وتطبيقها:

بعد أن ثبتت لنا صحة الدليل وقوته، وبعد أن فهمناه فهماً صحيحاً، لا بد من أن نستخلص من هذا الدليل نتيجة نهائية على الحالة التي أمامنا أو المشكلة العلمية المراد حلها. ولهذه الخطوة الهامة مراحل أهمها:

أ - مقارنة الدليل بالأدلة الأخرى: عادة ما يكون في المشكلة الواحدة أكثر من دراسة واحدة، تتفاوت في صحتها وقوتها ومصدرها ونتائجها، ولذلك فقبل

التسـرع في اسـتـخـدام نتـائج أي دراسـة لا بد من مـقـارنتـهـا مع الدراسات الأخرى ومعرفة موقعـهـا الدقـيق بينهـا، وهذا مـقـرر بشكل واضح في الفـقـه الإسـلامي؛ حيث قرر العلماء وجوب مـحاولة الجمع بين الأدلة وعـدم ضـرب بعـضـهـا ببعض وذلك وفق ضوابط أصولية معروفة عند العلماء.

ب - مـعـرفـة الواقـع المراد تطبيق الحـالة عليه: ذكـرنا في نقطة فـهم الدليل ضـرورة التـأكـد من مطابقة الدليل للواقعة المراد الاستشهاد بها، فينبني على هذا ضــرورة فــهم الحــالة أو المشكلة المراد عـلاجـهـا. ولذلك لا بد من التـأكد من أن مـواصـفـات المريض المراد عـلاجـه وحـالتـه داخلة ضـمن العـينة التي تمت دراسـتـهـا في البـحث، فإذا كـانت الحـالة مختلفة قليلاً فإنَّا ننظر إن كان الاختلاف بين الحالة وعينة البحـــث اخـتلافاً هاماً يؤثـــر علـــى النتـائج فلا نأخذ بالدراسة، أم أنه اختلاف في أمـر فرعي لا يؤثر على النتـائج فنـأخـذ بالدراسـة. وفي الفـقـه تعتبر هذه النقطة عنصراً هاماً في معرفة الأحكام وإنزالها على الواقع أو ما يعبر عنه بعض الأصوليين بتحقيق المناط.

ج - مـعرفة النتائج العلمية الإيجابية والسلبية من التطبيق: قبل أن نصف الدواء لا بد من معـرفـة ملاءمة الدواء لهذا المريض بالذات والتأكد من خلوه من الموانع التي قــد تجعله لا يسـتـفـيد مــن العـلاج أو ربما يتـضـرر منه مـثل أن تكون لديه أمـراض أخـرى أو أن يكون يسـتـخـدم أدوية أخـرى وهكذا، ولهذا فقد يعـالج المرض نفسه بأدوية مـختلفـة في مرضى مـختلفين، بل قد يعالج المريض نفسه بأدوية مـختلفة في مراحل متعددة من مرضـه، وقد يعدل عن الدواء الأكثر فعالية إلى دواء أقل فعالية لوجود عوامل معينة مثل عدم تحمله للأعراض الجانبية. وفي الفـقـه تقـدر في كل أمـر المصـالح والمفـاسـد، وتدرس الموانع الشـرعـية التي قـد تؤثر على تطبـيق الحكم مـثل الضـرورة والحـاجـة، بل قـد يُفـتى في المسـألة الواحـدة بفـتـاوى مـخـتلفـة لاخـتـلاف حـال السـائل، فيُفـتى أحـدهم بالرخـصة والآخر بالعزيمة مثـلاً. كما قرر الأصوليون أن الفتـيا تتغير بتـغير المكان والزمان في المسائل الاجتهادية.

د - الاسـتـئناس بالخـبراء والمخـتـصين في فـهم الدليل وتطبـيقـه: وهذا من العناصـر المهـمـة؛ فـإن الأفـهام قـد تخـتلف حـتى على الواضـحـات؛ ذلك أن أهل التـخـصص لهم خـبرة طويلة في التـعـامل مع الأدلة في هذا الفـرع، فـيـعـرفـون مظانهـا وطرق الاسـتنبـاط منهـا، ثم إنهم قـد قـامـوا بعـلاج آلاف الحـالات المشـابهـة وصـار لهم إلمام كـبـيـر بالواقع الحـقـيـقي للمـرض. ولذلك فـإنهم يجـتـمـعون بشكل دوري ليتدارسوا كل الأبحاث والدراسات في مشكلة مـعـينة، ويخـرجـوا بتـوصـيـات تعـتـبـر أداة هامـة يستخدمها الأطباء الأقل خبرة. وفي الفقه يكون دور علماء الفقه عظيماً في الجمع بين الأقوال والترجيح بين المذاهب وبيــان الأقــوال التي وافــقت الدليل والأقـوال التي أخطأته. كـمـا تمثل المجـامع الفـقـهـيـة الحـديثة والمؤتمرات الإسـلامـية المتخـصـصـة وسـيلة هامة جداً في التوصل إلى الأرجح والأولى بالاتباع.

هذه هي أبرز الخطوات التي ينص عليها علمـاء طب الأدلة في طريقة اسـتـخـدام الدراسـات العلمـيـة وتطبيقها على الحـالات الطبية مع أبرز أوجه الشـبه بينهـا وبين الخطوات الأسـاسـية في فـهم النصـوص الشرعية وتطبيقها في الواقع عند الفقهاء المسلمين. وقـد تبـدو بعض هذه النقــاط بديهـيــة في حـــس بعـــض لتمرسـهم عليها، ولكن الذي يعايش الهالة العلمـيـة والإعـلامـيـة المصـاحـبـة لهذه الطريقـة في التـفـكيـر الطبي يظن أن الأمـر كـشف جـديد وعلم توضـع أسسـه الآن فـقـط.

ولا شك أن هناك اختلافات هامة كذلك بين المدرستين لا مجال هنا للتفصيل فيها، ومن أهمها أن النصوص الشرعية هي وحي منزل من عند الله العليم بعباده، ولذا فهي الحق الذي لا يأتيه الباطل بخلاف الدراسات التجريبية التي لا تعدو أن تكون تجارب علمية قابلة للصواب والخطأ. ومن ثم فينبغي مراعاة الفوارق بين المدرستين كما ينبغي الاستفادة من تلك القواسم المشتركة.

وفي ختام هذه المقارنة العاجلة يمكننا الخروج ببعض الفوائد الدعوية التي تفرض نفسها:

١ - إذا كان أصحاب كل علم وفن يحاولون جادين ربط تخصصهم بالقواعد العلمية الثابتة فإن الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ من باب أوْلى من واجبهم ربط دعوتهم بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة. وفي هذا العصر تكون حاجتنا أعظم لأن نربط الناس بالأدلة الشرعية ونقدم لهم الأحكام بأدلتها. كما ينبغي تعويد الناس على طلب الدليل وإزالة حواجز الرهبة والجهل بينهم وبينه ضمن الأطر الشرعية. ومن جانب آخر لا بد من الاستفادة من الأبحاث العلمية والدراسات الإحصائية في الجانب العملي للدعوة إلى الله حتى نتمكن من قياس النتائج بشكل رقمي يساعد كثيراً في التخطيط للبرامج الدعوية واختيار الأساليب الأكثر فاعلية بناءاً على دراسات إحصائية دقيقة بدلاً عن الآراء المجردة التي تفتقد في الغالب إلى النظرة الشاملة والتجرد المطلوب.

٢ - بعد ربط الناس بالدليل لا بد من الاستمرار في تأصيل طرق الاستنباط، وتيسير علم أصول الفقه للناس، وتقديمه إليهم بطريقة أكثر عصرية وجاذبية، ومحاولة إزالة حواجز الغموض والتعقيد بينهم وبين هذا العلم الهام. وكم في الساحة الدعوية من الطوامِّ التي نتجت عن سوء فهم للنصوص أو الاعتماد على نص واحد دون نظرة شمولية لمجموع الأدلة.

٣ - تتفاوت مراتب الناس من حيث التعامل مع الأدلة والنصوص الشرعية بحسب مستوياتهم العلمية والعقلية، فكما وضع علماء طب الأدلة خططاً مرحلية يتدرج من خلالها المتدرب في التعامل مع الأدلة فإن الأمر مشابه جداً في التدرج في الأدلة الشرعية. فطالب الطب مثلاً مطالب فقط بمعرفة الحقائق الطبية العامة ومعرفة ما كان مؤيداً بالدليل مما كان مجرد فرضيات لم تثبت بعد مع تعويده على طلب الدليل والعناية به. فإذا تخرج وانخرط في برامج الزمالة التدريبية فإنه مطالب بمعرفة الدراسات المؤيدة للحقائق العلمية، ثم إذا تخصص فإنه مطالب إذ ذاك بمعرفة كل الدراسات العلمية في مجال تخصصه والمقارنة بينها ومعرفة نقاط القوة والضعف في كل منها ومجالات تطبيقها. وبالمثل فإن على العلماء والدعاة تعليم الناس الحقائق الشرعية المؤيدة بالدليل القوي وتعليمهم الدليل بقدر الإمكان، مع التركيز على أهمية الدليل والعناية بدراسته، ثم يترك التفصيل في الأدلة والأقوال للدعاة وطلاب الكليات الشرعية، وأما العلماء فإن عليهم في تخصصاتهم التبحر في الأدلة والمقارنة بينها.

٤ - أهل كل علم أعلم بمصادر الأدلة المعتمدة عندهم في فنهم؛ فلا بد أن يترك ذلك لهم ويحترم رأيهم في ذلك. فكما أن الأخبار الصحفية الخفيفة لا تعتبر مرجعاً علمياً للأطباء، ولا يقبل منك الطبيب رفض دوائه المؤيد ببحث رصين من أجل قصاصة من جريدة أو من أجل كلام الجيران فإن العالم الشرعي كذلك مؤتمن على الأدلة التي يقدمها ولا يجوز معارضة أدلته القوية بكلام فلان من الجاهلين أو المتعالمين.

٥ - لا بد من احترام التخصص؛ فكما أن الأمور الطبية التفصيلية لا بد أن تترك للأطباء فإن

العلوم الشـرعـيـة والـفـتـيـا لا بد من أن تُحـال إلى العلماء وطلبة العلم، والعجب أن أكثر الناس تجرؤاً على القول بالرأي في الأمور الطبية هم العوام الذين قل عـقلهم وعلمـهم، وأمـا العـقلاء من الناس فـإنهم عادة مـا يرجعـون الأمر إلى أهله من الأطبـاء، وأمـا العلوم الشرعية فكأنها مشـاع يضـرب فيها كل أحد بما يشـاء سـواء من العوام والمتعالمين، مع أنها أعظم العلوم قدراً عند الله، وأكثر العلوم تأثيراً في حياة الناس، ولكن حمزة لا بواكي له!

٦ - لا بد كذلك من احترام التخصص الدقيق؛ فإن المعرفة الطبية قد اتسعت اتساعاً عظيماً ولم يعد بوسـع أحـد أن يحـيط بكل دقـائق العلم. فـإذا آلمك ضرسك فإن المتصور أنك تذهب إلى طبيب الأسنان وليس إلى طبـيـب الأطفـال! وكـذلك في العلوم الشرعية؛ فإن التخصص الدقيق مطلوب بل هو واقع فـرض نفسه. فلا ينبغي لمن أعجب بخطبة خطيب جـمـعـة أن يسـتـفـتي الخطيب في دقـائق المعـامـلات الاقتصـادية إلا أن يعلم أنه مؤهل وهكذا؛ لأن العالم أو الداعية قد يكون إماماً مجتهداً في فرع من العلم مقلداً في الآخر، ولا يضيره ذلك، بل ينبغي أن يزيد من ثقة الناس به. وكذلك يسـتحسن طلب الفتيا من العالم الموجود في المجتمع ذاته الذي تقع فيه المسألة لاطلاعه على الأحوال ومعرفته مواقع الحال.

٧ - لو نظرنا إلى الاخـتـلاف الكبـيـر بين علمـاء الطب، ومناقشـاتهم الحـامية التي لا تهدأ والناتجة عن الكم الهـائل من الأبحـاث العلمـيـة التي تزخ بهـا المطبعـات على الرفوف لرأينا أن هذا الاخـتـلاف في مـعظمـه مـبني على مـا بينا بعضـه فيـمـا مـضـى من المعرفة بالبحث وصحته وقوته وكيفية فـهمه وطريقة تطبـيـقـه. وإن هـذه الأسـبـاب في الغـالب هي نفس الأسباب التي تؤدي إلى الخلاف الفقهي بين العلماء الشرعيين، فلماذا يعتبر الخلاف الطبي أمراً مقبولاً ونقاشاً علمياً بينما يعتبر الخلاف الفقهي المنضبط تفـريقـاً للأمـة وضـيـقـاً في الأفق؟ ولماذا تتـعـالى الأصـوات المتـشـنجـة منادية بضـرورة توحـيـد آراء الفقهاء على قول واحد وأَطْرِ الناس عليه أطْراً بينما تتخافت هذه الأصوات عن الدعوة إلى التوحيد لآراء الأطباء على تشخيص واحد وعلاج واحد؟

وبالمقـابل، فكمـا أن الخـلاف المذمـوم بين الأطبـاء وإعطاء بعضـهم آراء مناقـضـة تمامـاً لآراء الأطبـاء الآخـرين، كـمـا أن ذلك يقلل من ثقـة الناس بـالأطبـاء عـمـومـاً ويصـرف الناس عنهم؛ فـإن الخـلاف بين الفقهاء إذا خرج عن أطره العلمية وضوابطه الشرعية فإنه يقلل من ثقة الناس بالعلماء ويصرفهم عنهم.

٨ - كلمـا ازداد عـالم الطب تبـحـراً في الأبحـاث الطبـيـة والأدلة العلمـيـة كلمـا كـان - في العـادة - أكثـر تواضـعـاً وأقل تشنجـاً لرأيه بل قد يطلب من المريض أخـذ رأي طبـيب آخـر؛ فـإن الأمـر مماثل بالنسـبـة للعلمـاء الربانيين المتبـحـرين في العلوم الشـرعـيـة؛ فإنهم أوسع الناس بالخلاف صدراً وأقلهم تعصباً.

إن أمتنا الإسـلامـيـة تمتلك كنزاً مـعـرفياً ثميناً لا تملكه أمة أخرى، وتحـتضـن تراثاً علمياً ضـخمـاً، وإذا كان الغربيون اليوم يتشدقون بالمنهج التجريبي وبأصـول البـحث العلمي واسـتنبـاط الحـقـائق فـإن أصول ذلك كله موجودة في إرثنا الثقافي، وإن كانوا قد تعاموا عن الدلائل الواضحة على التأثير الكبير الذي تركـه الفكر الإسـلامي على الفكر الغـربي الحديث؛ فإن من واجبنا أن ننفض نحن الغبار عن الحـقـائق، ونرفع الرأس عـالـيـاً، ونسـتل الهـمم من أغمـاد الذل والتبعـية، فنقدم للبشـرية هذه الأسس بصيـاغـة إسـلامـيـة متوضـئـة متطلعـة إلى السمـاء، موضوعية في بنائها، جذابة في عرضها. وإن ذلك لمهمة ما زالت كسيفة تنتظر فارس الأحلام!





تاريخ نيجيريا



رؤية أخرى



تعقيب على مقال أحداث نيجيريا

إبراهيم محمد نتعالى

فقد قرأت في مجلتكم في عددها المائة والخمسين (١٥٠)، ص ١٢٢ مقالة بعنوان: (الأحداث الأخيرة في نيجيريا الخلفيات والحقائق) بقلم بلال عبد الله، وهي مقالة رائعة في عمومها وجديرة بالنشر في مضمونها؛ حيث احتوت على كثير من المعلومات الصادقة عن نيجيريا بدءاً بتاريخ خروج المستعمرين منها وانتهاءاً بما قام به النصارى الحاقدون قبيل حج هذا العام من شغب عنيف في مدينة كدونا حرسها الله.

بيد أن مقدمة المقالة تحتوي على أخطاء تاريخية فادحة وخصوصاً فيما يتعلق بحديث الكاتب عن كبريات قبائل نيجيريا، ولهذا أردت التنبيه إلى هذه الأخطاء وتصحيحها؛ لكي تكتمل فائدة المقالة، فاقول وبالله التوفيق:

قوله: «والنيجيريون عدة قبائل هي...» ثم ذكر خمس قبائل فقط وهذا خطأ؛ لأن قبائل نيجيريا تربو على ثلاثمائة قبيلة لكل منها لغة مستقلة، علماً بأن بعض هذه القبائل صغير جداً؛ حيث لا يتجاوز أفرادها خمسين ألفاً أو يزيد بقليل. بيد أن القبائل الرئيسة تتمثل في خمس قبائل وهي:

هوسا، ويوربا، وإيبو، وفُولْبِي (فلاتة)، وكانوري. وتتمركز قبيلة هوسا في شمال البلاد، ويوربا في الجنوب الغربي من البلاد، وإيبو في الجنوب الشرقي، وفولبي في شمال البلاد ويوجد لها أفراد من الرُّحَّل أصحاب المواشي في جميع مناطق البلاد. وأما قبيلة كانوري فتتمركز في شمال البلاد وخصوصاً في الشمال الشرقي.

قوله: «الإيبو في الشرق وهم بالنسبة لليوربا متخلفون» أقول: إطلاقه (الإيبو في الشرق) خطأ وإنما هم في الجنوب الشرقي. وقوله: (وهم بالنسبة لليوربا متخلفون) وهذا خطأ أيضاً؛ لأن إيبو لا يوصفون بالتخلف مقارنة مع يوربا من النواحي الحياتية: الاجتماعية والاقتصادية والمهارات المهنية والسياسية، بل وحتى من الناحية التعليمية والثقافة الغربية، رغم كل ما ذاقوه من مرارة الهزيمة في الحرب الأهلية، بل لو قال قائل عكس المذكور لكان أقرب إلى الصواب.

قوله: (وأسلم لله الإيبو، لكن لم يجدوا من يعلمهم الدين الصحيح سوى الصوفية من القادرية والتيجانية) أقول ـ والحق يقال ـ: إن قبيلة إيبو إلى الآن ـ وللأسف الشديد ـ لم يعتنق الإسلام منها سوى نزر يسير، وليس من الصواب أن يقال: إن هذا النزر إنما دخل الإسلام على أيدي المتصوفة، بل يمكن القول: إن معظم من اعتنق الإسلام منها إنما اعتنقه على أيدي غيرهم من السلفيين وجمهور المسلمين.

وقوله: (والهوسا وأكثرهم في الشمال وهم ليسوا جنساً قائماً بذاته إنما هو اصطلاح لغوي يطلق على الشعوب التي تتكلم لغة الهوسا، وكانوا وثنيين قبل أن يتحولوا إلى الإسلام على يد الفولانيين، وهم عدة إمارات يحكمها ملك أو أمير يعاونه بعض الوزراء، وهم يعملون بالتجارة لكنهم متأخرون، وتنتشر بينهم الصوفية التي ترى إبقاء التصوف سائداً بينهم لتضمن انقيادهم لها).

قوله: (وهم ليسوا جنساً قائماً بذاته إنما هو اصطلاح لغوي يطلق على الشعوب التي تتكلم لغة الهوسا) أقول: هذا كلام يجانبه الصواب؛ فإن قبيلة هوسا قبيلة معروفة قائمة بذاتها متماسكة الأطراف ذات لهجات متقاربة جداً بخلاف غيرها من القبائل المذكورة كقبيلة يوربا، وفولبي (فلاتة) فإن بعض لهجات هاتين القبيلتين غير مفهومة عند بعض أفرادهما لشدة تباينها. وأظن أن الذي يحمل بعض من لم يعرف عن قبيلة هوسا سوى اليسير على هذه الدعاوى هو كون لغة هوسا هي اللغة المهيمنة في شمال نيجيريا، بل وفي معظم مناطق نيجيريا رغم ما يشاهد من بعض المقاومة من هنا وهناك في بعض الولايات، وكذلك هيمنتها في جمهورية النيجر وفي مناطق شاسعة في كثير من دول غرب إفريقيا ووسطها؛ ذلك لأنها لغة سهلة جداً تشبه في سهولتها اللغة السواحلية المنتشرة في شرق إفريقيا وبخاصة في جمهورية تنزانيا، وكينيا، ويوغندا.

وقوله: (كانوا وثنيين قبل أن يتحولوا إلى الإسلام على يد الفلانيين) لا أدري ما مراد الكاتب بذلك؟ وهل أراد أنهم كانوا وثنيين قبل مئات السنين ثم اعتنقوا الإسلام فيما بعد، أو أنهم لم يعتنقوا الإسلام إلا في وقت متأخر كغيرهم من بعض الشعوب المجاورة؟ فإن أراد الأول فذلك صحيح، وإن أراد الثاني فقد جانب الحق؛ لأن قبيلة هوسا كانت قد قبلت الإسلام منذ مئات السنين ولها إمارات عديدة مشهورة يقودها أمراء مسلمون هوساويون، وقد كان بين هؤلاء الأمراء وخصوصاً أمير (كانو) وأمير (كستنا) وبين بعض العلماء الأجلاء في العالم الإسلامي كالشيخ العلامة جلال الدين السيوطي والشيخ العلامة المغيلي مراسلات، ومن المعروف أن العلاَّمة السيوطي توفي سنة ٩١١هـ.

وقوله: (قبل أن يتحولوا إلى الإسلام على يد الفلانيين) أقول: إن هذا الإطلاق ليس بجيد، صحيح أن قبيلة هوسا استفادوا من بعض علماء فولبي (فلاتة) لكن لا يقال إنهم أسلموا على يد فلاتة، والصحيح أن يقال إن الإسلام دخل بلاد هوسا من جهتين رئيستين: الجهة الشرقية على يد كانوري قادة دولة بورنو، والجهة الشمالية على يد الونغريين (بمبرا) وفولبي (فلاتة) والذين جاؤوهم من بلاد مالي وما جاورها. وأظن أن سبب هذه المغالطات من بعض من ليس له إلمام كاف بتاريخ المنطقة هو ظنهم أن قبيلة هوسا إنما أسلمت على يد الشيخ العلاَّمة المجدد عثمان بن فودي إبان جهاده ضد الخرافات والخزعبلات والبدع المنتشرة في بلاد هوسا، ولم يعرفوا أن جهاد الشيخ عثمان بن فودي متاخر جداً عن دخول الإسلام في بلاد هوسا.

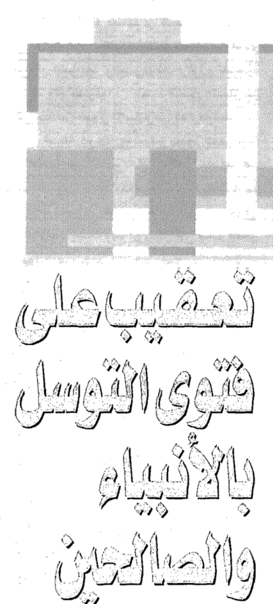
وقوله في قبيلة هوسا: (وتنتشر بينهم الصوفية) أقول إن هذا القول ليس بشيء؛ لأن انتشار الصوفية - للأسف الشديد - ليس حكراً ولا قصراً على أوساط قبيلة هوسا وبلادهم، وإنما هو ظاهرة عمت بها البلوى في معظم الدول الإسلامية، ولك أن تنظر إلى بلاد مصر ودول المغرب العربي.

قوله: (الكانوري: في الشمال وهي قبائل متمسكة بدينها ولها طلاب يدرسون في الأزهر وهم خليط من العرب والحاميين والزنوج، ومن أشهر قادتهم الداعية الإسلامي المعروف: عثمان بن فودي). قوله: (ولها طلاب يدرسون في الأزهر) أقول هذا الوصف لا تتميز به قبيلة كانوري عن غيرها من معظم القبائل المذكورة وعليه فلا فائدة في ذكره.

قوله: (ومن أشهر قادتهم الداعية الإسلامي المعروف: عثمان بن فودي) أقول: لست أدري كيف حصل هذا الغلط الفاحش من الكاتب؟ فإن الداعية المصلح عثمان بن فودي من قبيلة فولبي (فلاتة) وليس من قبيلة كانوري، بل إن جهاده ضد الخزعبلات قد هدد دولة كانوري بالزوال حيث انتزع منها أطرافاً شاسعة.

وقوله: (والفلاني وهم أصلاً من صعيد مصر وفدوا لتلك المناطق وحكموا مملكة تكرور) قوله: (وهم أصلاً من صعيد مصر) أقول قد سئمنا من مثل هذه الدعاوى: أن فلاتة من صعيد مصر أو فارس (إيران وما جاورها) وأن يوربا وكانوري من اليمن، وأن هوسا من القرن الإفريقي (إثيوبيا وما جاورها) وكأن البشر لا يقام لهم وزن إلا إذا إتصلت أصولهم بهذه المناطق المذكورة!





تعقيب على فتوى التوسل بالأنبياء والصالحين

بدر بن علي بن طامي العتيبي

اطَّلعت على فتوى لجماعة ممن ينتسب إلى العلم حول مسألة التوسل بالأنبياء والصالحين(*)، فلما قرأتها رأيت فيها المخالفة الصريحة لمذهب أهل السنة والتوحيد المستند إلى القرآن والسنة وكلام الصحابة وأئمة الدين، وقد علقت عليها على عجالة ببعض الوقفات التي توضح لطلاب الحق بطلان هذه الفتوى، فأقول مستعيناً بالله :

الوقفة الأولى: اعلم ـ أرشدك الله إلى الحق ـ أن مسألة التوسل بذوات المخلوقين من المسائل التي حصل فيها الخلاف مؤخراً بين أهل العلم، على أن مذهب السلف المتقدمين في القرون المفضلة هو عدم فعل ذلك، ولم ينقل عن واحدٍ منهم أنه توسل بذات نبي ولا رجل صالح من سائر الناس، بل المنقول عنهم هو خلاف ذلك كما قال الإمام أبو حنيفة فيما نقل القدوري عنه أنه قال: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول: «بمعاقد العز من عرشك» أو يقول: «بحق خلقك».

وما وجد عن بعض السلف من لفظ التوسل فالمراد به عند التحقيق هو التوسل بدعائهم كما سيأتي بيانه قريباً إن شاء الله.

الوقفة الثانية: التنبيه على أن كثيراً من أهل الجهل والهوى يخلط بين معنى التوسل والاستغاثة، ويسمي طلب جلب الخير ودفع الشر من الأولياء والصالحين توسلاً، ويغالطون أنفسهم ويقولون: نحن لا ندعوهم وإنما نتوسل إلى الله بهم، وصريح دعائهم أنهم ينادونهم ويستغيثون بهم

(*) نشرتها مجلة (الإصلاح) في الإمارات، في العدد الصادر في ٢١ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ.

ويقولون: يا فلان! أغثني، يا بدوي! المدد، أنا في حسب الله وحسبك، يا فلان! ردّ غائبي.

وهذا كله نداء واستغاثة ولا ينطبق عليه مسمّى التوسل لا لغة ولا عرفاً مستقيماً، وتمويههم بأن ما فعلوه توسل هو من جنس تمويه مشركي قريش الذين يدعون اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى؛ فهم يقولون كما حكى الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [**الزمر**: ٣] وهم في الحقيقة قد أشركوهم مع الله في جلب الخير ودفع الشر بل في الخلق والرزق وشؤون الربوبية!! ولهذا نبّه المحققون من العلماء على التفريق بين معنى التوسل ومعنى الاستغاثة؛ فالوسيلة هي أداة للوصول إلى المقصود، أمّا الاستغاثة فهي طلب الحاجة مباشرة من المنشود، ولهذا فإن الاستغاثة بالمخلوق عند أهل التحقيق من الشرك الأكبر المخرج من الملّة، وهو دين أبي جهل وأبي لهب، أمّا التوسل بذوات المخلوقين فهو من البدع المنكرة.

الوقفة الثالثة: قولهم في الفتوى المشار إليها آنفاً: «نعم يجوز التوسل إلى الله - تعالى - بالأنبياء والصالحين، وهو مشروع».

وفي هذا الإطلاق من المفتين نظر، وكان من تمام الأمانة الإشارة إلى وقوع الخلاف ولو بشيءٍ يسير؛ وخاصة أن في كلام السائل ما يستدعي ذكر هذا الخلاف، وهو قوله: «ولا غبار عليه»، فكان من المتحتم عليهم تصحيح هذا الرأي عنده بأن المسألة مقام خلاف لا اتفاق، على أن الصواب عندنا أن الخلاف فيها محدَثٌ منهم، والأصل عدم شرعية هذا النوع من الدعاء كما سيأتي إيضاحه أكثر.

الوقفة الرابعة: قولهم: «وهو مشروع لقوله - تعالى - في سورة الإسراء: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [**الإسراء**: ٥٧] الوسيلة: القربة. وقيل: الدرجة، وقوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ معناه: ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به» انتهى!!!

فأقول: تفسير الوسيلة بالقربة والدرجة والزلفى هو ما عليه أهل التفسير كما في قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] الآية، ولكن ليس المراد به ما ذكروه هنا من أن المراد به التوسل بذات المخلوقين أو حتى جاههم، وإنّما معنى الآية عند أهل التفسير قاطبة: أن الله - تعالى - لـمَّا عاب على المشركين في الآية التي قبلها آلهتهم عندما قال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ [**الإسراء**: ٥٦] وبين فيهم القصور عن درجة الألوهية أبان لهم نقصاً آخر في آلهتهم لا يستحقون به أن يُعبدوا من دون الله، وهو أنهم - أي الذين تعبدونهم من دون الله - فقراء إلى الله يسعون إليه بالقرب والدرجات والأعمال الصالحة أيهم ينال القرب

منه بالعمل الصالح. وهم يرجون رحمة الله ويخافون عذابه؛ فمن كان مفتقراً إلى غيره راجياً رحمته خائفاً من عذابه لا يستحق أن يُعبد من دون الله.

هذا الذي عليه أهل التفسير قاطبة في معنى هذه الآية كما ذكره الطبري في تفسيره (٨/٩٥) والقرطبي كذلك (١٠/١٨١)، وابن كثير (٥/٨٦)، والسيوطي (٥/٣٠٦)، والشوكاني (٣/٢٣٧)، وغيرهم، ولم ينقل عنهم خلاف في هذه الآية إلا في سبب نزولها، وأصح ما روي في ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود أنها نزلت في أناس كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم أولئك النفر، وبقي الإنس على عبادتهم من دون الله، وقيل في سبب نزولها أقوال أخرى، والمقصود أن الآية ليس فيها دليل على طلب الوسيلة من المخلوق. أمّا قولهم في معنى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي: ينظرون أيهم أقرب إلى الله منزلة فيتوسلون به؛ فهذا من أعجب العجب بل ومن أبطل الباطل، ولو كان المراد بذلك ما قالوه لكان معنى الآية: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بزيادة (من)، وأهل التأويل على خلاف ذلك، قال القرطبي (١٠/١٨١): (يبتغون يطلبون من الله الزلفة والقربة، يتضرعون إلى الله ـ تعالى ـ في طلب الجنة، وهي الوسيلة، أعلمهم الله ـ تعالى ـ أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم). المقصود أن الآية صريحة لمن حمى الله قلبه من علائق الجهل والهوى، وأن المراد ما سبق بيانه من أن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تطلب الوسيلة بالأعمال الصالحة إلى الله للقرب منه.

الوقفة الخامسة: استدلالهم بحديث الأعمى عن عثمان بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ والحديث صححه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمي وصححه الطبراني والحاكم ووافقه الذهبي.

ولي في هذا الكلام نظرتان: في الدليل، وفي الاستدلال:

النظرة الأولى في الدليل: أن هذا الحديث عند النظر والتحقيق يتبيّن للخبير بالعلل أنه معلول لا يثبت، وإن صححه من صححه؛ وذلك للاضطراب في إسناده على وجوه عدّة ليس هذا مقام ذكرها الآن، وقد أشار إلى بعض ذلك الحافظ الإمام النسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٢٠٤، ٢٠٥)، ويضاف إلى ذلك الاضطراب في بعض ألفاظ متنه؛ فتارة يذكر قوله: (يا محمد) وتارة لا يذكرها، وتارة يقول فيه: «اللهم فشفعه فيَّ وشفعني فيه» وتارة: «وشفعني في نفسي» وتارة يزاد فيه قوله: «وإن كانت لك حاجة فافعل مثل ذلك» وتارة لا تذكر. وزيادة على ذلك انفراد راويه به وهو أبو جعفر وليس هو الخطمي عمير بن يزيد بل هو رجل آخر كما قال الترمذي، ويتبيّن ذلك لمن جمع طرق الحديث كما أوضحت ذلك في غير هذا المقام.

أما النظرة الثانية وهي في الاستدلال: فعلى

فرض صحة هذا الحديث فليس فيه دليل على أنه توسل إلى الله بذات النبي ﷺ ولا بقربه وجاهه عند ربه، والكلام عن معناه بجوابين:

الجواب الأول: أن هذا توسل بدعاء النبي ﷺ للأعمى، لقول الأعمى في أول الحديث: (يا رسول الله! ادعُ الله أن يشافيني)، فعلّمه النبي ﷺ هذا الدعاء، ودعا له بدليل قوله في آخر الحديث: (فشفعه فيَّ) أي اقبل شفاعته فيَّ، والتوسل بدعاء النبي ﷺ جائز، بل وبدعاء كل رجل صالح كما هو حال الصحابة في الاستسقاء ومن أحس بمرض يأتي إلى الرسول ﷺ فيقول: (يا رسول الله! ادع الله أن يسقينا أو أن يشافيني)، وهذا خاص بحياته كما سيأتي قريباً في الكلام على استسقاء عمر - رضي الله عنه - بالعباس عمّ رسول الله ﷺ.

والجواب الثاني: أن هذه قضية عين لا عموم لها، خاصة بالأعمى؛ ولو كان شفاؤه بمجرد هذا الدعاء لتعلّمه عميان الصحابة والتابعين وما أغفلوه، ولما كان من بينهم عميان، فعلم بذلك خصوصية هذا الأعمى بذلك الدعاء؛ إذ إنه جاء إلى النبي ﷺ فأظهر الله على يده تلك المعجزة، ولهذا ذكروا هذا الحديث في أحاديث دلائل النبوة.

الوقفة السادسة: قولهم: (ولا فرق في ذلك بين حياتهم ومماتهم؛ ذلك لأن التوسل في الحقيقة ليس بذواتهم المجردة وإنما هو بما لهم من منزلة ومكانة وجاه عند الله وهو باقٍ في الحياة وبعد الممات).

أقول: قولُهم بعدم الفرق بين الحياة والممات في ذلك؛ لأن التوسل إنما هو بمنزلتهم لا بمجرد ذواتهم قولٌ لا يستند إلى دليل بيّن؛ بل الواقع خلافه؛ فمَنْ من الصحابة أو من التابعين توسّل إلى الله بجاه النبي ﷺ أو أحد من الصالحين؟ ثم ما السبيل لإثبات أن فلاناً - من غير الأنبياء - له جاه عند الله، حتى لو كان ظاهره السلامة والاستقامة؟ ولو أطلقنا له ذلك لحكمنا له بالجنة؛ وهذا لا يقول به سنيٌّ، بل حتى النبي ﷺ على رفعة قدره عند ربه وعلو جاهه لا يعتبر ذلك كافياً في تحقيق توسل الداعي به؛ فقد أخبر - عليه الصلاة والسلام - في حديث الشفاعة الطويل أن الناس يستشفعون به عند الله وهو المقام المحمود، ومع ذلك لم يتم لهم الأمر بمجرد ذلك حتى يذهب ﷺ إلى العرش ويسجد تحته ويدعو الله لهم.

إذن فمجرد التوسل بالذات أو بالجاه لا يعتبر كافياً في تحقيق المطلوب، والله أعلم.

الوقفة السابعة: قولهم: (أيضاً لعموم الآية السابقة وغيرها كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] وكلٌّ من المجيء والاستغفار واقع في سياق الشرط يدل على العموم كما هي القاعدة الأصولية لا نعلم في ذلك خلافاً).

أقول: هذه الآية عند أهل العلم خاصة

بالمنافقين في عهد النبي ﷺ؛ إذ إن الله - سبحانه وتعالى - أخبر أن أولئك المنافقين لو أنهم جاؤوا إلى الرسول ﷺ وأعلنوا توبتهم لوجدوا الله تواباً رحيماً، وهذا خاص بحياته ﷺ.

أما ذكرهم للقاعدة الأصولية تلك وهي: (أن الفعل في سياق الشرط يفيد العموم)، فتفخيم وتضخيم وتلبيس على المستفتي؛ فليس في الكلام شرط ولا للشرط له فيه رائحة، والآية صريحة في المعنى لمن أعطاها أقل تدبر، بل لم يشترط الله عليهم المجي إلى النبي ﷺ لكي يستغفر لهم.

الوقفة الثامنة: قولهم: (ومما يؤيد ذلك الحديث المتقدم - يعنون حديث عثمان بن حنيف - فإن النبي ﷺ علّم الضرير الدعاء ولم يقيّده بزمن أو يخصصه بأحد؛ وهذا ما صرحت به رواية ابن أبي خيثمة الصحيحة أن النبي ﷺ لما علّم الضرير المذكور قال له: «وإن كانت لك حاجة فافعل مثل ذلك» فهذا تصريح من المعصوم ﷺ بالتوسل في سائر الأحوال».

أقول: ولي في هذا الكلام نظرات:

النظرة الأولى: كون النبي ﷺ فَهّم أن حديث الأعمى عامٌّ له ولغيره، وأنه لم يخصص بوقت ولا بشخص، وهذا باطل شرعاً وقدراً كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فلا هم موافقون لشرع الله، ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله. قال شيخ الإسلام في رسالته المصرية في التوسل، وقد ذكرها في كتابه (التوسل والوسيلة، ص ٢٥٩): والفرق ثابت شرعاً وقدراً بين من دعا له النبي ﷺ وبين من لم يدع له، ولا يجوز أن يجعل أحدهما كالآخر، وهذا الأعمى شفع له النبي ﷺ، فلهذا قال في دعائه: «اللهم فشفعه فيّ» ثم إنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره بدلاً عنه؛ فلو كان التوسل به حياً وميتاً سواء، والمتوسل به الذي دعا له الرسول ﷺ، كمن لم يدع له الرسول لم يعدلوا عن التوسل به، وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه، وأقربهم إليه وسيلة، إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله، وكذلك لو كل أعمى توسل به ولم يدع له الرسول ﷺ بمنزلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى فعدولهم عن هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان؛ فإنهم أعلم منا بالله ورسوله وبحقوق الله ورسوله، وبما يشرع من الدعاء وينفع، وما لم يشرع ولا ينفع».

والنظرة الثانية: قولهم: «وهذا ما صرحت به رواية ابن أبي خيثمة... إلخ»، ويجاب عن كلامهم بجوابين:

الأول: أن هذه الزيادة مما تفرد بها مسلم ابن إبراهيم عن حماد بن سلمة، وقد رواها جماعة من الحفاظ بغير هذه الزيادة، ولعلها وَهْمٌ من حماد بن سلمة - يرحمه الله - فإنه على جلالته وشرفه في العلم، إلا أن له بعض الوهم في بعض الحديث، ولهذا لم يخرّج له البخاري

في صحيحه، ولم يحتجَّ به مسلم وإنما يذكره متابعةً، وقد تقدم أن الحديث غير ثابت عند التحقيق، ولو قلنا بثبوته لصارت هذه الزيادة شاذة، والله أعلم.

والجواب الثاني: أنه على فرض صحة هذه الزيادة؛ فالكلام خاص بهذا الأعمى في حياة النبي ﷺ؛ إذ قال له: «فإن كانت لك حاجة فافعل مثل ذلك»، ولم يقل: «ومن كانت له حاجة فليفعل مثل ذلك»، والمراد بقوله: «فافعل مثل ذلك» أي: صلِّ ركعتين وتوسل إلى الله بهذا الدعاء لقبول شفاعتي فيك.

النظرة الثالثة: قولهم: «فهذا تصريح من المعصوم ﷺ بالتوسل في سائر الأحوال» أقول: يقول النبي ﷺ: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، ومن الكذب على رسول الله ﷺ حمل كلامه على غير محمله ومراده، وكان يسع الإنسان السكوت: ﴿**آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ**﴾ [يونس: ٥٩]، فأين التصريح من الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالتوسل به أو بغيره من الصالحين؟ وانظر كيف أطلقوا التوسل وقالوا: «فهذا تصريح.. بالتوسل في سائر الأحوال»، ولم يقيدوه بالنبي ﷺ، لكي لا ينتقض عليهم مذهبهم في التوسل ببقية الأولياء والصالحين الأحياء والميتين؛ فأين الصحابة عن هذا الدعاء لو صحّ ثبوته أو معناه الذي يقولون: هل غفلوه في أمراضهم وحروبهم وخلافاتهم ونوائب الدنيا ومصائبها؟!

الوقفة التاسعة: قولهم: «وهذا ما فهمه الحفاظ والمحدثون؛ فإنهم فيما اطلعنا عليه من مصنفاتهم الحديثية والفقهية يوردون هذه القصة تحت باب الدعوات والأذكار غالباً».

أقول: وصنيعهم ذلك لا يكون حجة لوجهين:

الأول: أن من ذكره ممن صنّف لم يشترط ذكر الصحيح في كتابه، ولهذا لم يخرجه أحد ممن ألف في الصحاح كالبخاري ومسلم وابن حبان وابن خزيمة حتى النسائي على تشدده لم يخرجه في السنن، وإنما أخرجه في عمل اليوم والليلة ولم يشترط فيه الصحة، وإخراج الحاكم له لا يعتبر حجة في صحته؛ إذ إن الحاكم مفرط في التساهل ولا يعتبر أهل العلم بتصحيحه؛ ففي كتابه الضعيف والموضوع مع اشتراطه الصحة؛ والمقصود أن نقل الحفاظ للحديث في مصنفاتهم لا يدلّ على العمل به، وإنما هو من باب الرواية وجمع الحديث على الرواة والأبواب.

الثاني: أنهم عندما أخرجوه لم يقل واحد منهم إنه عامٌّ في كل وقت، ولو قيل ذلك لم يقل أحد إنه دليل على التوسل بكل أحد؛ وبينهم وبين إثبات ذلك خرط القتاد!!

الوقفة العاشرة: قولهم: (وأمّا الأدلة من الآثار فهي كثيرة أيضاً منها: توسل عمر بن الخطاب بالعباس - رضي الله عنهما - كما في صحيح البخاري، وقد قال ابن حجر في الفتح بعد هذه القصة ما نصّه: «يستفاد من قصة العباس استحباب الاستنفاع بأهل الصلاح

والخير وبيت النبوة»).

أقول: استدلالهم بأثر عمر بن الخطاب هذا حجة عليهم لا لهم؛ فعمر لم يتوسل بالنبي ﷺ بعد مماته كما يقولون، ولو كان متقرراً عند الصحابة جوازه لما عدل عمر عن التوسل بالنبي ﷺ إلى التوسل بالعباس رضي الله عنه، وعمر صنع هذا بمحضر من الصحابة من المهاجرين والأنصار ولو جاز التوسل بالنبي ﷺ لنبهوا عمر إلى ذلك. ومراد عمر بالتوسل بالعباس أي بدعائه فيقوم العباس ويدعو لهم لفضله، كما كان الصحابة يتوسلون بالنبي ﷺ في نزول المطر، حين يقدم عليه أحدهم ويقول: يا رسول الله! ادع الله أن يسقينا، فيدعو لهم فيمطَرون، كما ثبت ذلك في الصحيح.

وقد حصل لمعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - عندما استسقى بيزيد بن الأسود الجرشي فقال: «اللهم إنا نستشفع أو نتوسل بخيارنا، يا يزيد! ارفع يديك، فرفع يديه ودعا، ودعا الناس حتى سقوا» روى هذه القصة غير واحد، وانظر تاريخ أبي زرعة وطبقات ابن سعد وتاريخ الفسوي.

وعلى هذا ينزل عبارة العلماء في كتبهم من قولهم: «يستحب أن يستسقى بأهل الصلاح والفضل»؛ لأن الناس مفتقرون إلى الإجابة في ذلك الموقف، فيقدمون أصلحهم فيدعو لهم رجاء الإجابة.

الوقفة الحادية عشرة: نقلهم من تاريخ الخطيب (١/١٢٠) قصة أبي علي الخلاَّل وما قاله: «ما همّني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر - الكاظم - فتوسلت به إلا سهّل الله لي ما أحب»، وهكذا ما ذكر من قول إبراهيم الحربي: قبر معروفٍ الترياقُ المجرّب».

أقول: كل ما نقلوه حيلة للضعيف، وكلها قصص خرافية باطلة صحت عن أصحابها أم لم تصح، مخالفة للكتاب والسنة وسيرة الموحدين الأبرار؛ ففي قصة الخلاَّل الأولى غلو في أصحاب القبور، وما هلكت الأمم من قبلنا إلا بالغلو في الصالحين وقبورهم، كما ثبت في الحديث، وقوم نوح عندما عبدوا وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً، كانوا يغلون في قبورهم حتى صارت أوثاناً تُعبد من دون الله كما ثبت عن ابن عباس في الصحيح، واللات التي عبدها مشركو قريش كان رجلاً يلتّ السويق للحجاج، فمات فعكفوا على قبره فعبدوه كما روى ذلك ابن جرير بسنده في تفسيره، وقد نهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد؛ ومن اتخاذها مساجد تحرّي الدعاء عندها والصلاة، كما نهى عن شد الرحال إلى القبور كما جاء من النهي عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، وإنكار أبي هريرة على الرجل شدّه للرحل إلى الطور على شرف ذلك الموقع واستدلاله عليه بهذا الحديث.

المقصود أن ما حصل من هؤلاء مخالف

للكتاب والسنة من أكثر من وجه، ومن قلدهم في ذلك وضرب بسنة النبي ﷺ عرض الحائط، فليرتقب ما في قوله - تعالى - : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]، وقال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

الوقفة الثانية عشرة: نقلهم بعض كلام أهل العلم في ذلك، كالنووي وابن حجر ممن يذهبون إلى ما ذهبوا إليه، وإن كان نقلهم ذلك احتجاجاً منهم علينا؛ فعندنا من الرجال من قد منع ذلك كما تقدم نقله عن أبي حنيفة، وكما قال العز بن عبد السلام وهو من أئمة الشافعية: (لا يجوز أن يتوسل إلى الله بأحد من خلقه، إلا برسول الله ﷺ إن صحّ الحديث)، وهكذا ابن تيمية وابن القيم وجماعة من السلف صرّحوا بذلك، ولكن ليس هذا مسلكنا عند الخلاف أن نحتج بأقوال الرجال؛ لأن كلامهم عندنا يستأنس به ولا يؤخذ حجة، والرد عند حصول النزاع لا يكون إلا إلى الله وإلى رسوله ﷺ، كما قال - تعالى - : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩]، قال أهل العلم كمجاهد وغيره: الرد إلى الله: أي إلى كتابه، والرد إلى رسوله: أي إليه حياً وإلى سنته ميتاً.

وعلى هذا كان من مسلك المسلم الناصح لنفسه عند وقوع الخلاف النظر إلى أدلة الشرع، ثم الاستئناس بعدها بقول كل أحد، أمّا أن يخالف في مسألةٍ مّا محتجاً علينا بقول فلان وفلان فهذا من أبطل الباطل، بل هو من جنس دين اليهود والنصارى الذين: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] يحلّون لهم ما حرم الله، ويحرمون لهم ما أحل الله، وهم يقلدونهم ويتبعونهم. وبعض العلماء حكيت عنهم مسائل خالفوا فيها السنة الصحيحة الصريحة، بل ربما صريح القرآن؛ ومع ذلك لا يعتمد على قولهم مع بقاء قدرهم؛ لأنهم بين الأجر والأجرين، ولو كانوا من الصحابة كما قال ابن عباس في مسألة خولف فيها وقالوا أبو بكر وعمر، فقال: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول لكم: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟ وقال الإمام مالك: كلٌّ يؤخذ من قوله ويُردّ إلا صاحب هذا القبر - وأشار إلى قبر النبي ﷺ.

أصلح الله شأن الجميع، وهداهم إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة والتمسك بما فيهما، والعناية بالتوحيد علماً وتطبيقاً، والحذر من الشرك قولاً وعملاً واعتقاداً، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



إضاءات عاجلة نحو النهوض بمستوى المرأة

فاطمة بنت محمد السليمان

إن القلب يذوب حسرة، ويتفطر ألماً على واقع المرأة المسلمة وكيف أنها تسير وفق مخططات الأعداء، تُلدَغُ من الجحر نفسه مرة بعد مرة، لا تروعها التجارب، ولا تعتبر بغيرها، تراها تسير بنفس خطوات أختها التي ذاقت مرارة الحرية المزعومة حينما عصت الله ورسوله، وتخلت عن عبودية ربها.

تسير في طريقها، وهي تسمع صيحات الغيورين، وتحذيرات العلماء متبعة هوى نفسها كأنما على بصرها غشاوة. وقد أدرك الأعداء أهمية دور المرأة، وكيف أن كأساً وغانية تفعل في أمة محمد ما لا يفعله سيف ومدفع، كما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون؛ ولذلك فقد جلبوا للمرأة قضية تحتاج إلى دفاع، ونصبوا أنفسهم مدافعين عنها مع أن قضية المرأة لا يكابر في الحق فيها إلا ذو هوى كما يذكر الدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله - فهذا إما مراهق لا يفكر إلا في أهوائه الجنسية، أو كاتب يرى في إرضاء غرور المرأة ودغدغة عواطف المراهقين والمراهقات طريقاً إلى رواج كتاباته، وطاغية يتقرب للغرب بأنه متجدد غير متعصب.

وما زادنا هذا التذبذب عزة
ولكن حصدنا دونه الشوك والعنا

أقول إن الناظر في هذا الواقع المرّ لا يملك إلا أن يطلق زفرة وهو يقول:

تكتلت قوة الدنيا بأجمعها
في طعنة مزقت صدري وما فيه

لكن البكاء والعويل لا يجدي، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن الحزن: «بأنه إن أفضى إلى ضعف القلب، واشتغاله به عمَّا أمر الله ورسوله به كان مذموماً عليه من تلك الجهة».

بل إن الواجب هو العمل حسب الوسع والطاقة وفق خطط منظمة مدروسة يحاسب المسلم

فيها نفسه: ماذا قدم، وماذا تحقق من الأهداف؟ ليكون ذلك دافعاً له إلى تقديم المزيد، أو إعادة النظر في خططه ووسائله، ونحو ذلك.

وقد حاولت أن أطرح بعض الأفكار للعمل للنهوض بمستوى المرأة المسلمة ومن ثَمَّ بمستوى الأمة:

أولاً: احتواء الشباب الصالح، والفتيات الصالحات ممن نجد عند كثير منهم استعداداً للعمل والعطاء لكنه يريد من يوجهه، ويأخذ بيده، وذلك عن طريق الدورات العلمية، واللقاءات الدورية، وهذه نقطة مهمة إذا أُعملت سدت كثيراً من الثغور إذا ما أعطى كلٌّ في مجال تخصصه، وإذا أُهملت أهدَرت كثيراً من الطاقات الفاعلة.

ثانياً: نشر العلم الشرعي الصحيح بين الفتيات والشباب خاصة؛ فإن أهل الضلالة في هذه الأوقات الحرجة يدعون إلى باطلهم مصبوغاً بصبغة الشرع؛ فكم قرأنا في الصحف لمن ينادي بتغيير هيئة الحجاب الشرعي الذي تلبسه المرأة في بلادنا؛ لأنه لم ينزل من السماء بهيئته تلك، وماذا يحصل للحجاب لو أن العباءة وضعت على الكتف؟! لأنهم يعلمون أنهم لو قالوا للمرأة المسلمة: انزعي حجابك لقالت لهم: تباً لكم ولا كرامة. ولكن بهذه الخطوات الشيطانية تسايرهم المرأة، وهي مرتاحة الضمير.

وكم قرأنا في الصحف والمجلات عمن ينادي بضبط تعدد الزوجات بضوابط معينة كالراتب المالي، وغيره مما لم يُنزل الله به من سلطان ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، ويذكرون في دعوتهم تلك روح الشريعة، وضوابط الشريعة جهلاً منهم، أو مخادعة وهو الغالب؛ لأنهم لو راموا حكم الشريعة لسألوا علماء الشرع. وكم قرأنا في الصحف عن الدعوة إلى تحديد النسل، وسلطة الرجل، وتسلطه، ووجوب نزع الولاية من يده، وأن المرأة الآن أصبحت ذات مال خاص يحق لها التصرف والخروج بدون إذن الرجل أو الرجوع إليه وتصوير المرأة مظلومة مضطهدة في مجتمعنا... إلخ.

وهم في طرحهم هذا يحاولون دغدغة مشاعر المرأة، والضرب على الوتر الحساس.

أقول: إن المرأة المسلمة إذا قرأت مثل ذلك مما هو موافق لهوى نفسها مصبوغاً بصبغة الشرع أخذته على علاته، وهي وإن لم تفعله إلا أن نفسها تتشربه من حيث شعرت أو لا تشعر،

"إن الواجب هو العمل حسب الوسع والطاقة وفق خطط منظمة مدروسة"

وانعكس ذلك على تربية النشء في الأمد البعيد، كما هو ظاهر الآن.

لذلك يجب إثارة المسائل نفسها التي تثيرها الصحف وذلك بالرد عليها بردود علمية مؤصلة بالأدلة في الصحف نفسها التي وجدت فيها هذه المقالات إن أمكن، أو في غيرها من وسائل الإعلام الممكنة.

ثالثاً: نشر الوعي بين الفتيات والشباب بمخططات الأعداء، والاعتبار بحال المرأة المسلمة في كثير من البلاد الإسلامية، وما جنت على نفسها وعلى مجتمعها من ويلات، وبدأت ترجع إلى حجابها، وتجدد عهدها بربها.

ويكون نشر الوعي عن طريق توضيح وسائل الأعداء، وضرب الصور والأمثلة من الواقع.

وكما قيل: (عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه، ومن لا يعرف الشر يوشك أن يقع فيه).

كما أنه لا بد من الوعي بأن الأعداء أذكى من أن يدعوا إلى ما يريدون بأنفسهم، بل إنهم ينصبون لذلك نساءاً ورجالاً من ذوي الفكر، بل ومن ذوي الدين من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا؛ ليكون لكلامهم وقع في النفوس على كثير من فتيات المسلمين وشبابهم الذين هم في الغالب سليمو الصدر ناقصو الوعي، وتوعيتهم بعداء اليهود والنصارى لنا بصور من عصرنا الحاضر الذي ينادون فيه بالسلام وتوحيد الأديان، ويكون نشر ذلك الوعي بالذهاب إلى أماكن تواجد الشباب والفتيات سواء أكان عن طريق الدروس والمحاضرات أو عن طريق الكتابة في الصحف والمجلات والنشرات والإنترنت، أو عن طريق الحديث عن ذلك في المجالس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

رابعاً: مشاركة الناصحين والناصحات في شغل أوقات الشباب والفتيات بما يعود عليهم بالنفع في الدنيا والآخرة خاصة أنه قد كثرت منافذ الشر التي تشغل أوقاتهم ما شاؤوا من ساعات الليل والنهار من القنوات الفضائية والإنترنت والتي تثير غرائزهم وتشعل شهواتهم، والقلب إذا امتلأ بالشهوة عمي العقل، وانتهكت

الحرمات لسد هذه الشهوات التي لا تجد لها في الغالب منفذاً مباحاً، وسد هذه المنافذ غير ممكن في الغالب؛ لذلك لا بد من احتواء هؤلاء الشباب والفتيات وترشيدهم، وإيجاد البدائل الممكنة بمشاركة كل ناصح وناصحة بأفكاره، وتفعيل المناسب منها.

وينبغي أن يكون بذل هؤلاء الناصحين والناصحات خالصاً لوجه الله - تعالى - لتظهر بركته، فيُقدم فيها كلٌّ واحد منهم في فكره وعمله المصلحة على حظ نفسه، مذكراً نفسه بين حين وآخر بهدفه الذي يسعى لتحصيله.

خامساً: توعية الآباء والأمهات بضرورة تربية النشء على العقيدة الصحيحة والفقه في الدين، وتذكيرهم بعظم المسؤولية «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

هذا بعض ما جاد به خاطري للنهوض بمستوى المرأة المسلمة، وهو وإن كان بطيئاً - كما يقولون - إلا أنه أكيد المفعول؛ لأن تربية الفتيات والشباب بالمحاضرات فقط التي تُلقى عليهم في الشهر أو نحوه مرة، مع أنهم يكونون قد أمضوا أمام الشاشات أكثر ساعات اليوم كما تدل على ذلك الإحصائيات المذهلة والتي ليس هذا مقام سردها أقول: إن التربية بالمحاضرات وحدها لمثل أولئك لا تكفي، وخاصة أن التربية عن طريق هذه الشاشات يكون بأسلوب محبب للنفس تتشربه من حيث لا تشعر.

وأخيراً وإن كان واقع الأمة الإسلامية الذي نعيشه اليوم من أسوأ عصورها، وإن تكاثرت على هذه الأمة السهام، وتواترت مصائبها إلا أن الله متم نوره ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون.

ونحن أُمرنا بالعمل ولا ننتظر النتيجة، وإن كنا نحبها ونرجوها ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

والله أسأل أن يلهمنا رشدنا ويقينا شر أنفسنا وأن يصلحنا ويصلح بنا، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم؛ إن ربي قريب مجيب.

---

(١) رواه البخاري، ح/٨٤٤.



من الفائزين

رياض بن ناصر الفريجي

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجدهم يحتفلون بعيدين، فقال: «قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما: يوم الفطر، ويوم الأضحى».

[رواه أبو داود والنسائي].

وإن هاتين الشعيرتين العظيمتين تأتيان بعد موسمين زاخرين بأنواع من العبادات والطاعات مما يجعل المسلم يفرح ويسرّ لإتمامه شيئاً مما فرضه عليه خالقه ومولاه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وإن مما اعتاده الناس تبادل التهاني والدعوات في الأعياد والمناسبات.

ومن هذه الدعوات: من العايدين، من الفائزين.

ولما كان موسم العيد قريباً كان من الحسن أن نعرف أعمالاً تجعل هذا الدعاء سديداً، وتيسر لنا الفوز حتى يكون سعينا رشيداً.

وإن قرآننا العظيم وهو دستورنا القويم قد أوضح في محكم آياته وسائل للفوز، وبيّن حقيقته. فإلى هذا المعين الصافي ووقفات مع الآيات التي حوت كلمة «الفائزين» جعلنا الله منهم برحمته وفضله.

قال ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

[التوبة: ٢٠].

فبعد أن صحّ فهم الإيمان، وهجروا الأهل وتركوا الأوطان، وجاهدوا بالمال والأبدان جازاهم الله بالرحمة والخلود في الجنان؛ كما في الآيتين التاليتين للآية السابقة (٢١، ٢٢).

قال السعدي: أي لا يفوز بالمطلوب، ولا ينجو من المرهوب، إلا من اتصف بصفاتهم وتخلّق بأخلاقهم.

قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

[المؤمنون: ١١١].

يأتي هذا الخطاب في معرض الجواب على الكفار لما سألوه الخروج من النار فيخبرهم الجبار بأن سبب هذا البوار هو سخريتهم بالعباد الأبرار لما دعوا الملك الغفار: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٩] فجازاهم الله بصبرهم على الأذى وتحملهم للابتلاء أعظم الجزاء بالفوز في دار البقاء.

قال السعدي: جزيتهم بما صبروا على طاعتي وعلى أذاكم حتى وصلوا إليّ بالنعيم المقيم والنجاة من الجحيم.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]. أطاعوا الله بفعل الواجبات وترك المحرمات، واتبعوا رسوله فيما أمر، واجتنبوا ما عنه نهى وزجر، ومع ذلك يخافون الله فيما سلف من أيامهم وما زلّت به أقدامهم ويتقونه فيما بقي من أعمارهم هؤلاء هم السعداء الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة.

قال السعدي: أولئك الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله وخشية الله وتقواه، هم الفائزون بنجاتهم من العذاب لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب لفعلهم أسبابه؛ فالفوز محصور فيهم؛ وأما من لم يتصف بوصفهم فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة.

ثم تأتي آخر آية حوت هذه اللفظة لتبين حقيقة الفوز وتقرّر مفهومه فيقول ـ تعالى ـ: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده فاستحق جنات النعيم والعيش السليم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن غفل عن ذكره ونسي حقوقه فشقي في الدنيا واستحق العذاب في الآخرة؟ فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

وأخيراً: تقبل الله منا ومنك «وهي التهنئة التي كان يقولها الصحابة لبعضهم» كما جاء في فتح الباري. اللهم اسلك بنا سبيل طاعتك، وجنبنا سبيل معصيتك، واجعلنا ممن فازوا بجنتك برحمتك.

الماء في القرآن

علي سالم بازرعة

تحدث القرآن عن الماء في ٦٣ موضعاً منها قوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقوله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ﴾. [النور: ٤٥].

إن الحقيقة القرآنية المعجزة التي يعرضها القرآن عن الماء هي أن الله جعل حياة جميع الكائنات الحية على سطح الأرض مرتبطة بوجود الماء. قال الله - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، فإذا تأملنا في الإنسان الذي كرمه الله نجد أن متوسط نسبة وجود الماء في جسم الإنسان نحو ٦٥٪ من وزنه، وفي عالم النبات تتفاوت هذه النسب فتصل من ٧٠٪ إلى ٩٠٪ من وزنه ماءاً، والماء أحد مكونات البوتوبلازم (المادة الحية في الخلية)، وعليه فالماء يحدد بقاء النبات نفسه ووجوده.

فالماء الذي أنزله الله من السماء هو أغلى وأثمن مادة على وجه الأرض، له من الصفات العجيبة والخواص الفريدة ما جعله يتبوأ مكانة رفيعة، ومن هذه الخصائص ارتفاع درجة غليانه التي هي ١٠٠ درجة مئوية؛ فلو كانت درجة غليانه أقل من الصفر مثلاً لجفت البحار والأنهار واختفت الحياة، ومن خواصه زيادة حجمه عند تجمده عكس معظم المواد، ولذا نجد أن قطعة الثلج تطفو فوق السطح فتكون كغطاء عازل للطبقات السفلى فلا تتجمد، وتحتفظ المياه أدناه بدرجة حرارة كافية لحياة الكائنات البحرية وهي أغلب كائنات الحياة، فلا عجب إذا قلنا: «إن الحياة ظاهرة مائية» ومن خواصه أيضاً التي ينفرد بها عن غيره قدرته كسائل مذيب لكثير من المواد؛ فهو المذيب الأعظم.

يرجع العلماء سر هذه الخواص المدهشة للماء للمرابطة القوية بين ذرة الأوكسجين وذرتي الهيدروجين في جزئي الماء (H_2O).

إن الماء هو من المواد التي توجد بالطبيعة بصورها الثلاث: الصلبة والسائلة والغازية ينتقل بينها في دورة ثابتة تعرف بالدورة الهيدرولوجية، وللرياح دور أساس في هذه الدورة كما قال - تعالى -: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

إن الإشارات العلمية الكثيرة في المواضع التي صرّح القرآن فيها عن الماء ومطابقتها للواقع العلمي المعاصر تدل على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وأن الحقائق المذكورة في القرآن هي حقائق نهائية مطلقة وليست نسبية كما هو علم البشر.

إن الماء جعله الله - عز وجل - وسيلة للثواب والعقاب في الدنيا والآخرة؛ ففي الجنة يقول - تعالى -: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ...﴾ [محمد: ١٥]، وفي المقابل في النار ﴿...كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

وفي الدنيا عن الثواب يقول - تعالى -: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، أما العقاب فعن قوم نوح قال - تعالى -: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢].

إن المسطحات المائية على كوكب الأرض من محيطات وبحيرات وغيرها والتي تغطي أكثر من ثلثي مساحة الأرض هي التي ميزت كوكب الأرض عن باقي كواكب المجموعة الشمسية بلونه الأزرق المميز وبوجود الحياة عليه.

لقد أصبحت قضية الماء في عالم اليوم قضية للصراع من جانب الحكومات؛ لأنها سلعة اقتصادية يزيد الطلب عليها، بل يخشى أن تصبح المياه سبب حروب المستقبل. إن التدبر في الآيات القرآنية التي ذكر فيها لفظ الماء وما جاء ذكره عنها في السنة النبوية مثل قول المصطفى - عليه الصلاة والسلام -: «لا يبولن أحدكم في الماء الراكد، ثم يتوضأ منه» وهو يشير إلى قضية التلوث التي أصبحت مصدر رعب في عالمنا المعاصر. إن التدبر والتأمل فيما ذكر أعلاه يزيد المؤمن إيماناً وعلماً. نسأل الله أن يبارك لنا في القرآن والسنة، وأن ينفعنا بما فيهما من الآيات والحكمة.



الإجازة الصيفية

ماجد بن جعبل

ليس من المجازفة ولا من واقع الخيال إذا قلنا بأن ثلاثة أرباع المجتمع في ظرف يوم أو يومين على الأكثر يصبحون في عالم من الفوضى بسبب الفراغ الذي يغطي معظم الأوقات بالنسبة لهم؛ وهذا إن دل على شيء فالدلالة واضحة وهي عدم الانضواء تحت برنامج منظم يحفظ الوقت ويحمي من سوء ما يجلبه الفراغ من مساوئ. إن بعض الناس - وهم الأغلبية - يرى في البرنامج المنظم مصطلحاً واحداً وهو كبت الحرية وأخذ الراحة المزاجية من العطلة الصيفية. ونرجو أن تكون هذه الأسطر إيضاحاً لأحبائنا ودليلاً لهم إلى ما فيه صلاح الدنيا - ومن ضمنها الإجازة الصيفية - وصلاح الآخرة.

الوقت أغلى ما عني الإنسان بحفظه، وإذا كان هذا الوقت هو ريحان العمر وريعان الشباب فيا ترى كيف ستكون هذه الخسارة؟

وإن مما ينفع الإنسان في آخرته شغله فراغه في الدنيا بما يرضي الله؛ وعلى ذلك فللإجازة أمور تشغل بها منها:

حلقات تحفيظ القرآن الكريم: والتي يخرج منها الدارس برضى الله وبالتقوى وحسن الأخلاق وتعلم شرع الله والبعد عن أماكن الفساد والمعاصي، وهذا لا يقتصر على شخص دون آخر، بل حتى الأطفال في العاشرة فما فوقها على الآباء توجيههم إلى تلك الحلقات؛ فلعل الله أن يجعلهم بذرة صالحة ونواة طيبة لبناء مجتمع طاهر محافظ.

المراكز الصيفية: لقد أدت المراكز الصيفية عبر الأعوام السابقة دوراً كبيراً في الإجازات، وذلك لما تقوم به من نشاطات مختلفة تنمي الشباب على الخير والإصلاح؛ فمن الأنشطة الثقافية إلى الأنشطة الرياضية إلى بقية الأنشطة التي تتلاءم مع النشء.

طلب العلم الشرعي: ليست الإجازة حكراً على سن معين، ومن هذا المنطلق فإن بين أولئك شباب الصحوة الذين هم عماد الأمة بعد علمائها الأفذاذ، ولذلك فإن الإجازة ساحة للتنافس في طلب العلم الشرعي وتحصيله وتحصين النفس به من الشبهات المتتابعة عملاً بقوله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله، وسنتي».

الخروج إلى القرى والهجر: للدعوة إلى الله ونشر دينه؛ وهذه النقطة ليست «لكل من هب ودب» ولكن لمن آتاهم الله علماً واسعاً وأخذوا على عواتقهم الوفية لله الدعوة إلى سبيله، وما أجمل لو نظم هذا العمل ونسق له كي يؤتي ثماره بإذن الله.

الالتحاق بدور التحفيظ النسائية: وهي - والله - عصمة للفتاة من السوء وأهله، ودليلٌ لها إلى مرضاة الله عز وجل. إن فتيات المسلمين اليوم هن غداً أمهات رجالهم الأفذاذ؛ فهل من شيء أحق بالحفظ منهن؟

أصون عرضي بمالي لا أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض بالمال

تنظيم برنامج أسري: ويكون فيه كل متطلبات النفسيات الأسرية فيكون - مثلاً - متضمناً لدروس السيرة المتناسبة مع الأطفال، ودروس السيرة المتناسبة مع الكبار إلى جانب الرحلات البرية والتنزه.

ختاماً: إن بالإمكان أن يُشغل الفارغ بأي شيء؛ ولكن ما دام أن هناك سؤالاً وجزاءاً عن هذا الفراغ وعمَّا شغل به فإنه لا بد من التفكير في الذي سوف يحل محل الفراغ ما هو: نعيم، أم جحيم؟

سارع في السفر

صالح بن عبد الكريم العبودي

يا قلب فر، لله فرّ ... لا تكفرنّ، فلست حر

دع عنك زَيداً أو عمرْ ... لا ينفعونك وزن ذر

بالله سارع في السفرْ ... لا تنتظر لا تنتظر

يكفي الأسى يكفي الضجرْ ... يكفي السُّرى يكفي السهر

يكفي التأمل والنظرْ ... قد حان وردك للنهر

بالله أقلع لا تُصرّ ... لا تبقينّ مدى العُمر

خذ عبرةً ممن غبر ... احذر فقد ينجي الحذر

لم ينتبه لمّا زُجِر ... لم ينتبه حتى احتُضر

الشكر وأحلام التحقيق!

عبد الكريم علي الشهري

الشُكْرُ ... نعم معناه في اللغة: الثناء على الإنسان بمعروف يُولِيكَهُ[١].

وأيضاً هو: عرفان الإحسان ونشره[٢].

إلا أن محدودية الحروف لا تفي معنى «الشكر» حقه؛ إذ للشكر في الوجدان فضاء شاسع، وتُحمِّل قائلها عاطفة جيّاشة، ومشاعر فيّاضة، وتمنّت النفس التخلص من هَمِّ القيام بالشكر، جزاءاً للمعروف المُسدى إليها.

فالشاكر الحقيقي دائماً صادق المشاعر، كبير الهَمِّ تجاه مَنْ سيشكره كيف يجازيه؟ وهل ستكون الكلمات والمشاعر في رد المعروف كافية؟ نعم! يحق لمن أراد أن يشكر أحداً أن يكون مهموماً؛ لأن حقيقة الشكر نابعةٌ من حقيقة المعروف؛ فجميل روح تقديم المعروف على النفس يستوجب حكماً مشابهاً له من الشكر وإلا يُعدَّ ناكراً للمعروف هذا هو ميزان الفطرة التي ترى التقدير والشكر معيار العطاء. والله المستعان. لكن ونحن نعزِّز هذه الفطرة لا نعزِّزها لذواتنا وعلى حساب نياتنا، بل لأنه «لا يشكر الله مَنْ لا يشكر الناس»[٣] وحتى نتربى على هذا الخُلُق العظيم... وإلا لو أردنا القيام بحق الشكر مع الله أولاً لما استطاع أحدٌ ذلك ولو يُجَرُّ على وجهه من ميلاده حتى مماته ليفي بنعمة واحدة ومعروف واحد لما وفَّى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل: ١٨]، ولكن رحمته شاملة وسابقة.

فكيف لنا أن نقوم بالشكر مع البشر ذوي النفوس الطامعة الذين قد يمنون عليك معروفهم ولو كنت قد شكرتهم! ولو وسعهم شكرك لما منّوا عليك.

ولكن هناك النفوس الطيبة والضمائر المؤدَّبة بالخُلُق الرفيع، تزن خُلُق الشكر مكاييل كثيرة، فتجد حرارة مشاعرها وصدق عواطفها، تجاه كل من أسدى معروفاً إليها؛ ففي أقل الأحوال الكلمة الصادقة المقرونة بالمشاعر الفيّاضة. أما الصمت وكان معروفاً لم يكن فهذا لا تطيقه النفس البشرية، وإن استطاعته قدراً من الزمن؛ فالنفس تتوق أن ترى ثمار معروفها لتستمر أو تزيد في العطاء، هذا ما يشهد به الواقع وليس يقدح في الإخلاص لله من هذا شيء.

فمَنْ لم يُحسن إلى مَنْ أساء فهذا عدل، ومَنْ أحسن إلى مَنْ أساء فهذا فضل: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [الجمعة: ٤].

فالمربّون والمعلّمون والدعاة والناصحون لهم فضل علينا كبير، ولهم فضل من الله؛ إذ تحمّلوا عناء التربية والتعليم والدعوة والنصح لنا، رغم أننا لم نستطع تحقيق الشكر لهم ولن نستطيع! إذ كيف يُشكر من كان سبباً في هدايتك؟ أم كيف يُشكر من سعى في تربيتك؟ أم كيف يُشكر من أفرغ وقته لك؟ أم كيف يُشكر من أدام النصح لك؟ أم كيف - وربي - يُشكر مثل هؤلاء وخاصةً وهم يتمثّلون قول الله - تعالى -: ﴿ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩] فهل يمكن أن نحقق لهم الشكر؟ حسبنا أن نسأل الله أن يقيهم شر ذلك اليوم، ويلقيهم نضرةً وسروراً، وأن يجزيهم بما صبروا جنةً وحريراً.

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس.
(٢) لسان العرب، لابن منظور.
(٣) مسند الإمام أحمد (٧٩٢١) من حديث أبي هريرة.

ظلام اليأس

فهد يحيى مطهري

أيُّ وردٍ يزهو في الصحرْ	أيُّ قلبٍ صاحٍ يشكو من ضَررْ
أيُّ طفلٍ ناحَ يحكي حُزْنَهُ	أيُّ زرعٍ هالكٍ يرجو المطر
من ظلامِ اليأسِ يا قدسُ انتظرْ	عودةَ الحقِ وطَرْدَ المُحْتَقرْ
ليته يبكي فأُصغي نَحْوَهُ	يطلب العَفْوَ وأرجو المُسْتقرْ
أنت يا حيفاء هزّي شجونا	وابعثي لَحْناً رقيقاً من وَتَرْ
وابعثي نحوي أريجاً علّةً	في الدُّنى يَشْفي أنينَ المُحْتَضِرْ

لا وقفة على طريق الانتكاس

محمد عبد الله الرويلي

عـلـى أي نـحــو تـودّ الحـكـايـة ... ومـاذا تـكـون وكـيـف الـنـهـايـة؟

عـلـى أي شـيء تـمـوت المـعـانـي ... سـبـيـل أراه لفـقـد الـهـدايـة؟

نقـضـت الـعـهـود وعـفـت الـسـجـود ... وأطلـقـت نـفـسـاً تـريـد الـغـوايـة

نـنـادي وفـاءً وتـغـضـي جـفـاءً ... ونـبـدي صـفـاءً وتـخـفـي وشـايـة

رمـيـتَ بـسـهـم الفـراق فـؤادي ... وصـيَّـرتَ صـفـو الوداد نـكـايـة

رمـيـتَ بـهـجـرك حـبـاً تـلـيـداً ... فـهـل يـا صـديـقي أصـبـتَ الـرمـايـة؟

فـقـل لـي بربـك: أي اعـتـذار ... سـيـجـدي إذا مـا لـقـيـت الـنـهـايـة؟

فـمـهـلاً غـنـمـتَ الحـيـاة وإلا ... سـتـبـكي كـثـيـراً على كل آيـة

فـعـد لـلإلـه، ودع مـا سـواه ... وخـذ مِـنْ هُـداه، ولُـذْ بـالـعـنـايـة

إلـى الله أمـضـي وكلّـي خـضـوع ... ثـبـاتـاً يـفـيـض بـصـدق الولايـة

سـأمـضـي ودرب الرشـاد طـريـقـي ... وأعـلـي مـن الـعـلـم والحـق رايـة

شـبـابَ المعـالي! خـذوها شـعـاراً: ... لـزومُ الـكـرام طـريـقُ الحـمـايـة



ردود

* الإخوة الأفاضل: عبد الرحمن عبد الكريم، عيسى عبد العزيز، أحمد يوسف محمد، محمد عبد الله السحيم، محمد عبد الله الرويلي، حمد أحمد، صالح بن حسن القدسي: لقد أسعدنا كثيراً تواصلكم الكريم مع مجلتكم بالمقترحات، وهذا مما يثلج صدورنا ويشعرنا كذلك بالمسؤولية، سائلين الله ـ تعالى ـ أن نكون عند حُسْنِ ظن إخواننا، وأن يوفقنا وإياهم لخدمة دينه ونصرته.

* الأخوين: الحبيب كرون، أبو خلود الساري: نعتذر كثيراً عن تلبية طلباتكم؛ وذلك لعدم أهلية المجلة لذلك، وفقنا الله وإياكم لما يحب ويرضى.

* الأخ: صالح سعيد الزهراني: نرجو التكرم بإعادة إرسال المشاركة؛ لأنها لم تصل كاملة عبر الفاكس.

* الأخ: أمير أبو بكر أحمد: نشكر لك تواصلك مع المجلة، وما أرسلته عن تطبيق الشريعة في نيجيريا مقتضب ويحتاج إلى توسع، ومرحباً بك وبمشاركاتك.

* الإخوة: رضا أحمد الصمدي، عمر الرماش، محمد عودة الذبياني، أحمد عبد الدايم أبو نصرة: جزاكم الله خيراً على تواصلكم مع مجلتكم، ونفيدكم بأن مشاركاتكم مجازة للنشر.

* الإخوة: أسعد سيد تهامي، إمام الطيب، عبد الله بن سليمان الصالح: بارك الله فيكم، ومشاركاتكم مجازة للنشر في المنتدى.

* الإخوة: حامد سفر العبدلي، د. عادل عبد العزيز حامد، أبو عزام المكي، عبد الرحمن القصيمي، محمد نجيب لطفي، عبد العزيز الويلي، عبد الله سيد شعبان، أبو عبد الله الرحابي، عبد العزيز العبيسي، د. جمال نصار حسين، حمد ابن عبد الرحمن السالم: جزاكم الله خيراً على تواصلكم الكريم مع المجلة، ونتمنى لكم التوفيق في مشاركات قادمة.

الحرية والعبودية

د. عثمان علي حسن

الحرية غاية يسعى إليها كل إنسان ويتمناها كل متمنٍّ، وليسوا كلهم ينالها ويحققها، إلا من أدرك معناها وعرف سبيلها وطلبها من مظانها، ولا حرية حقيقية للإنسان إلا إذا ملك أمر نفسه، وسيطر عليها وعلى مطالبها، وسعى في تغذيتها بما تحتاجه ويصلحها، ولا يكون ذلك إلا في التذلل والتعبد لله ـ تعالى ـ خالق الإنسان وفطرته؛ فمن أراد الحرية الصادقة التي لا يشوبها خداع، ولا يحجبها غش فعليه بالدخول في العبودية لله؛ فمن دخلها وترقى في درجاتها نال من الحرية بقدر ما حقق من العبودية.

فالله ـ تعالى ـ يريد لعباده أن يكونوا أحراراً حقيقة، ولهذا أمرهم بعبادته التي خلقهم لأجلها، وشرع لهم من صنوف العبادات ما يساعدهم على الوصول إلى هذه الغاية المطلوبة، والأمنية المرجوة؛ ولنضرب لذلك أمثلة:

ففي الصلاة التي هي عمود الإسلام وركنه الركين يتحرر المؤمن من سلطان النوم فيصبح هو الذي يتحكم فيه لا العكس، مع أن النوم حاجة فطرية لا يصمد إنسان أمام هجومه وإلحاحه إلا لوقت معلوم، لكن المؤمن المقيم للصلاة والمحافظ عليها ينفلت من نومه وينخلع من فراشه وراحته مستجيباً لنداء ربه، فيؤدي ما أوجبه الله عليه من الفريضة في رغبة ومحبة وانشراح صدر وطيب نفس، بل لا راحة له في غيرها، ولا قرار له في سواها، كما جاء عن الصادق المصدوق ﷺ: «أرحنا بها يا بلال»[1]، وقوله: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[2].

وفي الزكاة يتحرر المؤمن من رق المال، الدرهم والدينار ونحوهما؛ فهو يقتطع من ماله وكسب يده جزءاً معلوماً يصل به المحرومين وأصحاب الحاجات، طيبة بذلك نفسه، وطالباً تطهير ماله وصونه عن الآفات، وساعياً لتنميته وزيادته بالبركة، وبانفتاح أبواب من الرزق لم يكن يحتسبها، وفي الحديث: «ما نقص مال عبد من صدقة»[3]. وفي الحديث الآخر: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[4].

---

(١) رواه أبو داود، ح/ ٤٣٢٣. (٢) رواه النسائي، ح/ ٩٨٧٨.

(٣) رواه الترمذي، ح/ ٢٢٤٧.

(٤) رواه البخاري، ح/ ٢٦٧٣.

وفي الصيام يتحرر المؤمن من قيود الطعام والشراب وشهوة الجماع مع أنها حاجات فطرية ليس في وسعه أن يستغني عنها مختاراً، فضلاً عن كونها أشياء مباحة وطيبة ونافعة، لكن المؤمن يترك ذلك كله من بزوغ الفجر إلى مغيب الشمس طيلة شهر بأكمله طاعة لله - تعالى - وإيماناً به واحتساباً للأجر والمثوبة. وفي هذا تربية عظيمة، ودربة رائعة، وذريعة لطيفة لترك الحرام الخبيث الضار من الأطعمة والأشربة والشهوات، وهي التقوى التي شرع الصيام وغيره من العبادات لتحقيقها: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وفي الحديث: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»(١). فالصوم عن المحرمات والخبائث والمفاسد أوْلى من الصوم عن المباحات والطيبات والمنافع، وهكذا يتحرر المؤمن من وطأة العادات الضارة.

وفي الحج يتحرر الإنسان من رق العادة؛ حيث يترك ما اعتاده من أساليب في الحياة من طعام وشراب ولباس ونوم، وأعمال وأشغال، وبقاء لدى الأهل والأولاد والأصدقاء ونحوهم من زملاء العمل أو الدراسة وغير ذلك مما يشق عادة تغييره أو مفارقته إلا بنوع كلفة، لكنه في الحج يترك ذلك كله طاعة لله، فيخرج الناس تاركين دورهم وما اعتادوه، إلى بيت الله الحرام، راجلين وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، ولهذا سمّى النبي ﷺ الحج جهاداً، لكن لا قتال فيه.

ثم تأتي أعظم عبادة وأسماها ألا وهي الجهاد في سبيل الله بالنفس؛ فالنفس أغلى ما يملك الإنسان؛ فهو يحرص عليها كل الحرص، ويجتهد في صونها عن الآفات والتلف، لكن المؤمن يعتبر تقديمها في سبيل الله - ذوداً عن حياض الإيمان والأوطان - إحياءً لها، وتخليداً لذكراها، ورفعة لدرجتها ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾.

[آل عمران: ١٦٩].

وفي نوافل هذه العبادات مجال للاستزادة والترقي في مدارج الحرية ومقاماتها، حتى يصل إلى ذروتها ويعتلي سنامها، وقد قال الله - تعالى - في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(٢).

وهكذا سائر العبادات في الإسلام تدرب المؤمن على التحرر الحقيقي، وتسعى به لنيل الحرية الصادقة، فلا أحد يتحكم في حركته ومسار حياته إلا إيمانه بربه وخالقه، لا سلطان نوم، ولا سلطان طعام وشراب، ولا سلطان شهوة ومال، ولا سلطان عادة؛ فهو عبد لله وكفى، وسيِّد متصرف في احتياجاته كلها ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

(١) رواه البخاري، ح/ ١٧٧٠.

(٢) رواه البخاري، ح/ ٦٠٢١.

AL-BAYAN

Islamic Magazine

Subscription Form

-- (BLOCK CAPITALS PLEASE)

Name ---------------------------- Surname -------------------

Address ---

City -------------------------------------- Post Code --------

Country ---

New ☐ 1 Year ☐ 2 Years ☐ 3 Years ☐

Renew ☐ Amount Enclosed --------------------------

(Sterling Only) (Cheques payable to AL-BAYAN)

Please quote subscription number in all correspondance:--------------

AL-MUNTADA AL-ISLAMI TRUST

7 Bridges Place , Parsons Green

LONDON SW6 4HR

U.K.

Printed in Egypt

مطابع الأهرام بكورنيش النيل